الإمامة

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام



باقر شريف القرشي



الإمامة

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

الإمامة

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

تأليف

باقر شريف القرشي

الإمامة
في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

باقر شريف القرشي

الناشر : ماهر

المطبعة : ستاره

الطبعة الأُولى : ١٤٢٩هـ / ١٣٧٨ش

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلّف

شابك

ISBN 978 - 600 - 90487 - 8 - 6 ٩٧٨ـ٦٠٠ـ٩٠٤٨٧ـ٨ـ٦



طبع هذا الكتاب من مبرّات المغفور له

الحاج موسىٰ بن حسن القريني

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ

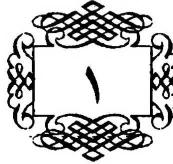
قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً

قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي

قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

البقرة ٢ : ١٢٤

تقديم

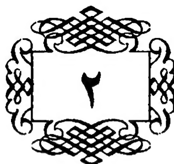


الإمامة عند شيعة أهل البيت عليهم السلام لطف من الله تعالى ، وفيض رحمة منه على عباده ، تقيم أودهم ، وتهديهم للتي هي أقوم .

الإمامة مفهوم حضاري مشرق بالنور والوعي ، وتجسيد للإسلام بجميع قيمه ومكوّناته ، وعنصر مهمّ لإقامة مجتمع أفضل تتوفّر فيه جميع عوامل النهوض والارتقاء .

الإمامة الماثلة في أئمّة أهل البيت عليهم السلام هي ظلّ الله تعالى في الأرض التي لا شبح في حكمها للبؤس والحرمان ، ولا ظلّ للغبن والجور والطغيان ، وليست من ألوان الترف في الحياة ، وإنّما هي امتداد ذاتي لحكومة النبيّ صلى الله عليه وآله ، وإدارة شؤون دولته ، وبيان أحكامه ، وإقامة معالم دينه ، وتحويل المجتمع من مستوى سحيق إلى مجتمع متوازن في آدابه وسلوكه ، تسوده العدالة ، وتنعدم فيه الفوارق ، وتشيع فيه المودّة والرحمة . إنّه المجتمع الفاضل الذي يريده الله تعالى لعباده .

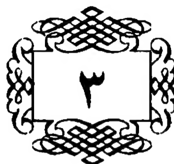
هذه هي الإمامة التي تنشدها الشيعة ، وآمنت بها ، وهي جزء من عقيدتها الإسلاميّة .



الإمامة من أهمّ المراكز الحسّاسة في الإسلام؛ لأنّ بها يتقرّر مصير المسلمين ، وتطوير حياتهم ، وقد اهتمّ بها النبيّ صلى الله عليه وآله اهتماماً بالغاً ، وقرنها بالدعوة إلى الإسلام ، كما في حديث الدار المجتمع على صحّته ، فقد أهاب بأبناء أسرته وأعمامه على مناصرته ومؤازرته ليتّخذ واحداً منهم وزيراً وخليفة له ، فلم يستجب له سوى الإمام عليّ عليه السلام ، وكان في ريعان شبابه .

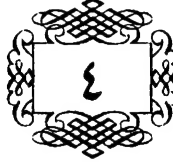
وبلغ من اهتمام النبيّ صلى الله عليه وآله بالإمامة من بعده أنّه قال : « مَنْ ماتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إمامَ زَمانِهِ ماتَ ميتَةً جاهِلِيَّةً » .

لقد تبنّى الإسلام بصورة جادّة وإيجابيّة إشاعة العدل والأمن والرخاء ، وحماية الناس من الظلم والجور ، وضمان كرامتهم ، وذلك لا يتحقّق إلّا في ظلّ حكومة الحقّ والعدل من أهل بيت النبوّة ، لا في حكم الخونة واللصوص ، أمثال معاوية ومروان وأبنائه ، وما شابههم من بني العبّاس ، أمثال المنصور الدوانيقي والمتوكّل العبّاسي الذين حاربوا الله تعالى ورسوله .



لقد وضع النبيّ صلى الله عليه وآله الخلافة من بعده بأسمى مكان ، وأعزّ موضع ، وأطهر بيت ، وهو البيت الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، فاختار سيّد عترته ، وأبا سبطيه ، وباب مدينة علمه ، ومَن كان منه بمنزلة هارون من موسى ، فأقامه خليفة من بعده ، ومرجعاً لأُمّته ، وأقام مهرجاناً شعبيّاً ضمّ آلاف المسلمين في غدير خم ، وبايعه المسلمون بالخلافة ، وهنّأوه بهذا المنصب الرفيع ، وممّن هنّأه عمر بن الخطّاب هنّأه وقال له : « أصبحت وأمسيت مولى كلّ مؤمن ومؤمنة » .

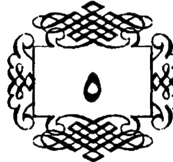
ويضاف لحديث الغدير جمهرة من النصوص النبويّة في فضل الإمام وسموّ مكانته ، وعظيم شأنه ، والتي لم يكن الغرض منها عند التأمّل إلّا إقامة الإمام خليفة من بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وقائداً لمسيرة اُمّته .



ومن المؤسف أنّ الحزب القرشي بقيادة أبي بكر وعمر وابن الجرّاح ذهبوا إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يعهد لأي أحد بالخلافة من بعده ، وترك هذا الأمر الخطير بيد اُمّته ، وهي حرّة في انتخاب من تشاء لمركز الحكم ، صالحاً كان أو فاسداً .

وهذا الرأي سطحي ليس له أي سند من وقائع التاريخ ، كما له مضاعفاته السيّئة ، والتي منها أنّه جرّ للأُمّة الكثير من الأزمات والويلات وألقاها في شرّ عظيم ، فقد مزّق كلمتها ، وشتّت شملها ، وقضى على وحدتها التي هي من أثمن ما أراده الله تعالى لها .

لقد أدّى هذا الرأي إلى سفك دماء المسلمين ، ونشر الحزن والحداد في بيوتهم ، وتركهم أعصاباً رخوة نهزة للطامع ، ولقمة للسائغ ، فقد تهالك على السلطة عصابة من النفعيّين الذين لم يفقهوا دين الله ، ولم يؤمنوا إلّا بمصالحهم الشخصيّة ، والظفر بخيرات البلاد ، وهذا الأمر واضح كلّ الوضوح لمن راجع التاريخ ، وتأمّل في بحوثه ولم يخضع لعوامل البيئة والوراثة .



إنّ سيرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام تملأ النفوس إشراقاً ، والعواطف رضاً وإعجاباً ، فقد حكت بجميع أبعادها ومكوّناتها ذاتيّات جدّهم الرسول صلى الله عليه وآله ، وعناصره النفسيّة ، فهي جزء لا يتجزّأ من ذاتيّاته ومقوّماته النفسيّة والإصلاحيّة ، وهم ـ من دون شكّ أو مغالاة ـ من أعظم الأرصدة الروحيّة التي أقامها النبيّ صلى الله عليه وآله لإصلاح اُمّته في ميادين

الإصلاح الاجتماعي والتطوّر الفكري.

لقد قرنهم النبيّ ﷺ بمحكم التنزيل الذي هو رسالة الإسلام العظمى الذي منّ الله تعالى به على عباده ليقيم أودهم، ويهديهم للّتي هي أقوم، وكذلك هم دعاة حقّ، وروّاد إيمان وهداية وإصلاح، وإذا لم يكونوا كذلك فلا تصحّ المقارنة والمساواة بينهما في حديث الثقلين.



عرضنا في بحوث هذا الكتاب لترجمة بعض ملوك الأمويّين والعبّاسيّين، وما صدر منهم من أعمال لا تتّفق مع روح الإسلام وهديه، فقد أسرف الكثيرون منهم في اللهو والمجون وظلم الناس، خصوصاً السادة العلويّين فقد صبّوا عليهم وابلاً من العذاب فقتلوهم وسجنوهم وبنوهم في الاسطوانات، خصوصاً في عهد المنصور الدوانيقي.

ومن المؤكّد أنّه ليس في عرض ذلك إثارة للتفرقة، فإنّ الذي يفرّق ولا يوحّد، ويشتّت ولا يجمع، إنّما هو الكذب والافتراء، أمّا نشر الوثائق التاريخيّة وتحليلها، والنظر في أبعادها، فإنّ ذلك ليس من الطائفيّة في شيء.

كما حوى هذا الكتاب عرضاً موجزاً لسيرة أئمّة الهدى، ومصابيح الإسلام، ودعاة الله عزّ اسمه في الأرض، فإنّ عرض ذلك فيما أحسب ضرورة ملحّة يقتضيها البحث العلمي.

وأعود للحديث عمّا جاء في هذا الكتاب من بحوث، وأهمّها:

١ ـ أهميّة الإمام وصفاته.

٢ ـ مخططاته وبرامجه الإصلاحيّة.

٣ ـ الإمامة بالنصّ أو بالانتخاب.

٤ ـ المضاعفات المدمّرة لفصل الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام.

وقد بحثت عن جميع ذلك ببحث حرّ ونزيه جهد ما توصّل إليه تتبّعي لم أُقصد به إلّا إبراز بعض القيم الإسلاميّة التي تبنّاها الإسلام، وتؤمن بها الشيعة في مجالاتها العقائديّة خدمة للإسلام وللأُمّة التي هي في أمسّ الحاجة إلى التدبّر والإمعان في سيرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، الذين هم من أعظم الأرصدة الروحيّة والفكرية لكرامة المسلمين وسيادتهم واستقلالهم.

وفي نهاية هذا التقديم نرفع دعاءنا بالمغفرة والرضوان الى المغفور له الحاج موسىٰ بن حسن القريني الذي كان من مبرّاته طبع هذا الكتاب. والحمد لله ربّ العالمين.

مكتبة الإمام الحسن العامة
النجف الأشرف

باقر شريف القرشي

١٤٢٩هـ



أهمية الإمام وصفاته

وقبل الحديث عن أهميّة الإمام وصفاته، والحاجة إليه، نعرض لبعض البحوث اللفظيّة -كما يسمّيها الأُصوليّون- عن لفظ الإمام، ومعناه في اللغة، وغير ذلك ممّا يرتبط من الشؤون التي لا تخلو من فائدة فيما أحسب.

الإمام في اللغة

الإمام -في اللغة- مشتقّ من أمَّ، ومعناها الرئيس، والدليل الذي يقود القافلة، وكلّ شخص يتّخذ دليلاً أو قدوة[1].

وذكر له معان أُخرى، كالقدوة، وهو بحسب إطلاقه شامل للإمام العادل والإمام الضالّ.

الإمام في الذكر الحكيم

استعمل الإمام في القرآن الكريم بمعناه اللغوي الشامل للصالح والطالح، وليس له معنىً آخر مغاير له حتّى يقال بنقله أو استعماله فيه مجازاً، كما في الصلاة التي هي في اللغة بمعنى الدعاء، واستعملها الشارع في الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود، أمّا نفلاً أو مجازاً، حسبما قرّر في علم الأُصول.

---

(١) لسان العرب: مادة «أمم».

لقد استعمل لفظ الإمام في القرآن في المعنيين : إمام الهدى ، وإمام الضلال ، أمّا ما استعمل في أئمّة الهدى والمتّقين ، فكوكبة من الآيات منها :

١ ـ قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[١].

٢ ـ قال تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾[٢].

٣ ـ قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[٣].

٤ ـ قال تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾[٤].

٥ ـ قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٥].

وأمّا بعض ما ورد من الآيات في أئمّة الكفر والضلال :

١ ـ قال تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾[٦].

٢ ـ قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾[٧].

أمّا الأئمّة الذين يدعون إلى النار ، ويدعون إلى التخلّف والانحطاط وسرقة أموال الناس ، فهم أمثال معاوية ويزيد ومروان وأبنائه ، والمنصور الدوانيقي وأبنائه .

---

(١) البقرة ٢ : ١٢٤.

(٢) هود ١١ : ١٧. الأحقاف ٤٦ : ١٢.

(٣) الأنبياء ٢١ : ٧٣.

(٤) الفرقان ٢٥ : ٧٤.

(٥) السجدة ٣٢ : ٢٤.

(٦) التوبة ٩ : ١٢.

(٧) القصص ٢٨ : ٤١.

الإمام والخليفة

هل إنّ الإمام والخليفة لفظان مترادفان، ويكون أحدهما عين الآخر وضعاً ودلالة؟ الذي يقتضيه النظر أنّهما مختلفان بحسب الوضع والمفهوم، فالإمام ـ كما ذكرنا ـ هو الدليل الذي يقتدى به قولاً وفعلاً.

وأمّا الخليفة فهو الذي يكون خلفاً لشخص في مهام أُموره وممثّلاً له، وهذا المعنى أُطلق على حكّام الأمويّين والعبّاسيّين على أنّهم خلفاء النبيّ ﷺ، فكلّ واحد منهم لقّب بالخليفة، إلّا أنّ ذلك لا يخلو من التسامح، كما سنعرض لذلك. وقد استعمل في القرآن بمعنى الإمامة. قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[٢].

وبناءً على أنّ المراد من الخليفة هو الإمام، فيكونان مشتركين اشتراكاً لفظيّاً، وإذا لم يكونا كذلك يكون الاستعمال على نحو المجاز.

وعلى أي حال، فلنعد إلى موضوع البحث.

أهمّيّة الإمام

للإمام أهمّيّة بالغة في الحياة الإسلاميّة، فهو من أهمّ العناصر لإقامة العدل وتنظيم الحياة الاجتماعيّة.

إنّ الشريعة الإسلاميّة مجموعة من الأحكام والقواعد، وفيها الجهاد، والذبّ عن حياض الدولة، وصيانة أرواح الناس، ولا يمكن إقامة ذلك من دون إمام يتولّى

---

(١) البقرة ٢ : ٣٠.

(٢) الأنعام ٦ : ١٦٥.

تنفيذ هذه الأُمور. إنّ الحياة السياسيّة في الإسلام لا يمكن تحقيقها من دون إمام يعالج قضايا المسلمين ويتولّى إدارة شؤونهم.

حديث مهمّ للإمام الرضا عليه السلام

أدلى الإمام الرضا عليه السلام بحديث بالغ الأهميّة عن سموّ الإمام وعظيم منزلته، وغير ذلك في حديثه مع عبدالعزيز، وهذا نصّه:

قال عبدالعزيز: «كنّا في أيّام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بمرو، فاجتمعنا في مسجد جامعها، فدار أمر الإمامة بين الناس وكثر الاختلاف فيه، وبعد الانتهاء قمت فدخلت على الإمام الرضا عليه السلام فأخبرته بما خاض فيه الناس.

فتبسّم عليه السلام، ثمّ قال: **يا عَبْدَالْعَزيزِ، جَهِلَ الْقَوْمُ وَخُدِعوا عَنْ أَدْيانِهِمْ، إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ لَمْ يَقْبِضْ نَبيَّهُ صلى الله عليه وآله حَتّىٰ أَكْمَلَ لَهُ الدِّينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فيهِ تِبْيانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَيَّنَ فيهِ الْحَلالَ وَالْحَرامَ، وَالْحُدودَ وَالْأَحْكامَ، وَجَميعَ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ النّاسُ كُملاً، فَقالَ: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾**[١].

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ في حِجَّةِ الْوِداعِ، وَهِيَ آخِرُ عُمْرِهِ صلى الله عليه وآله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾[٢].

وَأَمْرُ الْإِمامَةِ مِنْ كَمالِ الدِّينِ، وَلَمْ يَمْضِ صلى الله عليه وآله حَتّىٰ بَيَّنَ لِأُمَّتِهِ مَعالِمَ دِينِهِ، وَأَوْضَحَ لَهُمْ سُبُلَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ عَلىٰ قَصْدِ الْحَقِّ، وَأَقامَ لَهُمْ عَلِيّاً عليه السلام عَلَماً وَإِماماً، وَما تَرَكَ شَيْئاً مِمّا تَحْتاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ إِلّا وَقَدْ بَيَّنَهُ.

---

(١) الأنعام ٦: ٣٨.

(٢) المائدة ٥: ٣.

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ لَمْ يُكْمِلْ دِينَهُ فَقَدْ رَدَّ كِتابَ اللهِ ، وَمَنْ رَدَّ كِتابَ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ. هَلْ يَعْرِفونَ قَدْرَ الْإِمامَةِ وَمَحَلَّها مِنَ الْأُمَّةِ فَيَجوزَ فيها اخْتِيارُهُمْ؟

إِنَّ الْإِمامَةَ خَصَّ اللهُ بِها إِبْراهيمَ الْخَليلَ عليه‌السلام بَعْدَ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَّةِ مَرْتَبَةً ثالِثَةً، وَفَضيلَةً شَرَّفَهُ بِها، وَأَشادَ بِها ذِكْرَهُ، فَقالَ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[1]، فَأَبْطَلَتْ هٰذِهِ الْآيَةُ إِمامَةَ كُلِّ ظالِمٍ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ، وَصارَتْ في الصَّفْوَةِ.

ثُمَّ أَكْرَمَها اللهُ بِأَنْ جَعَلَها في ذُرِّيَّةِ أَهْلِ الصَّفْوَةِ وَالطَّهارَةِ، فَقالَ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[2].

فَلَمْ تَزَلْ تَرِثُها ذُرِّيَّتُهُ عليه‌السلام بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ، قَرْناً فَقَرْناً، حَتّىٰ وَرِثَها النَّبِيُّ صلى‌الله‌عليه‌وآله، فَقالَ اللهُ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾[3].

فَكانَتْ لَهُمْ خاصَّةً، فَقَلَّدَها النَّبِيُّ صلى‌الله‌عليه‌وآله عَلِيّاً عليه‌السلام، فَصارَتْ في ذُرِّيَّتِهِ الْأَصْفياءِ الَّذينَ آتاهُمُ اللهُ الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ، وَذلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4] عَلىٰ رَسْمِ ما جَرىٰ، وَما فَرَضَهُ اللهُ في وُلْدِهِ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ؛ إِذْ لا نَبِيَّ بَعْدَ

---

(١) البقرة ٢: ١٢٤.

(٢) الأنبياء ٢١: ٧٢ و ٧٣.

(٣) آل عمران ٣: ٦٨.

(٤) الروم ٣٠: ٥٦.

مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَمَنْ أَيْنَ يَخْتارُ هٰذِهِ الْجُهّالُ الإمامَةَ بِآرائِهِمْ ؟

إِنَّ الْإِمامَةَ مَنْزِلَةُ الْأَنْبِياءِ ، وَإِرْثُ الْأَوْصياءِ .

إِنَّ الْإِمامَةَ خِلافَةُ اللهِ ، وَخِلافَةُ رَسُولِهِ ﷺ ، وَمَقامُ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ عليه السلام ، وَخِلافَةُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام .

إِنَّ الْإِمامَ زِمامُ الدِّينِ ، وَنِظامُ الْمُسْلِمينَ ، وَصَلاحُ الدُّنْيا ، وَعِزُّ الْمُؤْمِنينَ .

الْإِمامُ أُسُّ الْإِسْلامِ النّامي ، وَفَرْعُهُ السّامي .

بِالْإِمامِ تَمامُ الصَّلاةِ ، وَالزَّكاةِ ، وَالصِّيامِ ، وَالْحَجِّ ، وَالْجِهادِ ، وَتَوْفيرِ الْفَيْءِ ، وَالصَّدَقاتِ ، وَإِمْضاءِ الْحُدودِ وَالْأَحْكامِ ، وَمَنْعُ الثُّغورِ وَالْأَطْرافِ .

الْإِمامُ يُحَلِّلُ حَلالَ اللهِ ، وَيُحَرِّمُ حَرامَهُ ، وَيُقيمُ حُدودَ اللهِ ، وَيَذُبُّ عَنْ دِينِ اللهِ ، وَيَدْعو إِلىٰ سَبيلِ اللهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالْحُجَّةِ الْبالِغَةِ .

الْإِمامُ كَالشَّمْسِ الطّالِعَةِ الْمُجَلِّلَةِ بِنورِها لِلْعالَمِ ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ حَيْثُ لَا تَنالُهُ الْأَبْصارُ وَلَا الْأَيْدي .

الْإِمامُ الْبَدْرُ الْمُنيرُ ، وَالسِّراجُ الزّاهِرُ ، وَالنّورُ الطّالِعُ ، وَالنَّجْمُ الْهادي في غَياباتِ الدُّجىٰ ، وَالدَّليلُ عَلَى الْهُدىٰ ، وَالْمُنْجي مِنَ الرَّدىٰ .

الْإِمامُ النّارُ عَلَى الْيَفاعِ الْحارُّ لِمَنِ اصْطَلىٰ ، وَالدَّليلُ في الْمَهالِكِ ، مَنْ فارَقَهُ فَهالِكٌ .

الْإِمامُ السَّحابُ الْماطِرُ ، وَالْغَيْثُ الْهاطِلُ ، وَالسَّماءُ الظَّليلَةُ ، وَالْأَرْضُ الْبَسيطَةُ ، وَالْعَيْنُ الْغَزيرَةُ ، وَالْغَديرُ وَالرَّوْضَةُ .

الْإِمامُ الْأَمينُ الرَّفيقُ ، وَالْوَلَدُ الشَّفيقُ ، وَالْأَخُ الشَّقيقُ ، وَكَالْأُمِّ الْبَرَّةِ بِالْوَلَدِ

الصَّغيرِ ، وَمَفْزَعُ الْعِبادِ.

الْإِمامُ أَمينُ اللهِ في أَرْضِهِ وَخَلْقِهِ ، وَحُجَّتُهُ عَلىٰ عِبادِهِ ، وَخَليفَتُهُ في بِلَادِهِ ، وَالدّاعي إِلَى اللهِ ، وَالذّابُّ عَنِ حَريمِ اللهِ.

الْإِمامُ الْمُطَهَّرُ مِنَ الذُّنوبِ ، مُبَرَّءٌ مِنَ الْعُيوبِ ، مَخْصوصٌ بِالْعِلْمِ ، مَوْسومٌ بِالْحِلْمِ ، نِظامُ الدِّينِ ، وَعِزُّ الْمُسْلمينَ ، وَغَيْظُ الْمُنافِقينَ ، وَبَوارُ الْكافِرينَ.

الْإِمامُ واحِدُ دَهْرِهِ ، لَا يُدانيهِ أَحَدٌ ، وَلَا يُعادِلُهُ عالِمٌ ، وَلَا يُوجَدُ لَهُ بَدَلٌ ، وَلَا لَهُ مِثْلٌ وَلَا نَظيرٌ. مَخْصوصٌ بِالْفَضْلِ كُلِّهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْهُ وَلَا اكْتِسابٍ ، بَلِ اخْتِصاصٌ مِنَ الْمُفَضِّلِ الْوَهّابِ ، فَمَنْ ذا يَبْلُغُ مَعْرِفَةَ الْإِمامِ أَوْ كُنْهَ وَصْفِهِ.

حفل هذا المقطع بالأهميّة البالغة للإمام من أهل البيت عليهم السلام ، فإنّه ظلّ الله تعالى في الأرض ، وترتبط به مصالح البشر وشؤون الدين ، وإقامة أحكام الله تعالى وحدوده ، وتحليل حلال الله تعالى وتحريم حرامه ، وحماية المسلمين ، وصيانة كرامتهم ، والدفاع عن أوطانهم.

ومن المؤكّد أنّه لا يمكن لأي أحد من الملوك الذين تولّوا حكم المسلمين إقامة هذه المبادئ الأصيلة والمثل العليا سوى أئمّة الهدى ومصابيح الإسلام.

وأضاف الإمام قائلاً :

هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، ضَلَّتِ الْعُقولُ ، وَتاهَتِ الْحُلومُ ، وَحارَتِ الْأَلْبابُ ، وَحَصَرَتِ الْخُطَباءُ ، وَكَلَّتِ الشُّعَراءُ ، وَعَجَزَتِ الْأُدَباءُ ، وَعَيِيَتِ الْبُلَغاءُ ، وَفَحَمَتِ الْعُلَماءُ عَنْ وَصْفِ شَأْنٍ مِنْ شَأْنِهِ ، أَوْ فَضيلَةٍ مِنْ فَضائِلِهِ ، فَأَقَرَّتْ بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصيرِ ، فَكَيْفَ يُوصَفُ بِكُلِّيَّتِهِ ، أَوْ يُنْعَتُ بِكَيْفِيَّتِهِ ، أَوْ يُوجَدُ مَنْ يَقومُ مَقامَهُ ، أَوْ يُغْني غِناهُ ، وَأَنّىٰ وَهُوَ بِحَيْثُ النَّجْمِ عَنْ أَيْدي الْمُتَناوِلينَ ، وَوَصْفِ الْواصِفينَ ؟

أَيظُنُّونَ أَنَّهُ يُوجَدُ ذلِكَ في غيرِ آلِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِم ؟ كَذَبَتْهُمْ وَاللهِ أَنْفُسُهُمْ ، وَمَنَّتْهُمُ الْأَباطيلُ إِذِ ارْتَقَوْا مُرْتَقىً صَعْباً ، وَمَنْزِلاً دَحْضاً. زَلَّتْ بِهِمْ إِلى الْحَضيضِ أَقْدامُهُمْ ، إِذْ رامُوا إِقامَةَ إِمامٍ بِآرائِهِمْ.

وكَيْفَ لَهُمْ بِاخْتِيارِ إِمامٍ ، وَالْإِمامُ عالِمٌ لَا يَجْهَلُ ، وراعٍ لَا يَمْكُرُ ؟ مَعْدِنُ النُّبُوَّةِ لَا يُغْمَزُ فيهِ بِنَسَبٍ ، وَلَا يُدانيهِ ذُو حَسَبٍ ، فَالْبَيْتُ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَالذُّرْوَةُ مِنْ هاشِمٍ ، وَالْعِتْرَةُ مِنَ الرَّسولِ ﷺ. شَرَفُ الْأَشْرافِ ، وَالْفَرْعُ عَنْ عَبْدِ مُنافٍ. نامي الْعِلْمِ ، كامِلُ الْحِلْمِ ، مُضْطَلِعٌ بِالْأَمْرِ ، عالِمٌ بِالسّياسَةِ ، مُسْتَحِقٌّ لِلرئاسَةِ ، مُفْتَرَضُ الطّاعَةِ ، قائِمٌ بِأَمْرِ اللهِ ، ناصِحٌ لِعبادِ اللهِ.

ثمّ تعرّض الإمام إلى علم الأنبياء والأئمّة عليهم السلام ، فقال :

إِنَّ الْأَنْبياءَ وَالْأَوْصِياءَ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِمْ يُوَفِّقُهُمُ اللهُ ، وَيُسَدِّدُهُمْ ، وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ مَخْزونِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ما لَا يُؤْتيهِ غَيْرَهُمْ ، يَكونُ عِلْمُهُمْ فَوْقَ عِلْمِ أَهْلِ زَمانِهِمْ ، وَقَدْ قالَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لَا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (١).

وَقالَ تَعالىٰ في قِصَّةِ طالُوتَ : ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ (٢).

وَقالَ في قِصَّةِ داودَ عليه السلام : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (٣).

---

(١) يونس ١٠ : ٣٥.

(٢) البقرة ٢ : ٢٤٧.

(٣) البقرة ٢ : ٢٥١.

وَقالَ لِنبيِّهِ ﷺ : ﴿ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾(١).

وَقالَ في الْأَئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَعِتْرَتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ -إلى قوله تعالى : - سَعِيراً ﴾(٢).

وإِنَّ الْعَبْدَ إِذا اخْتارَهُ اللهُ لِأُمورِ عِبادِهِ شَرَحَ صَدْرَهُ لِذلِكَ ، وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنابيعَ الْحِكْمَةِ ، وَأَلْهَمَهُ الْعِلْمَ إِلْهاماً ، وَأَطْلَقَ عَلىٰ لِسانِهِ ، فَلَمْ يَعيَ بَعْدَهُ بِجَوابٍ ، وَلَمْ تَجِدْ فيهِ غَيْرَ صَوابٍ ، فَهُوَ مُوَفَّقٌ مُسَدَّدٌ مُؤَيَّدٌ ، قَدْ أَمِنَ مِنَ الْخَطَأِ وَالزَّلَلِ .

خَصَّهُ بِذلِكَ لِيَكُونَ ذلِكَ حُجَّةً عَلىٰ خَلْقِهِ ، شاهِداً عَلىٰ عِبادِهِ ، فَهَلْ يَقْدِرونَ عَلىٰ مِثْلِ هٰذا فَيَخْتارُونَهُ فَيَكونُ مُخْتارُهُمْ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ »(٣).

وانتهى بذلك حديث الإمام الرضا عليه‌السلام ، وهو حافل بأروع وأوثق صور الاستدلال على ضرورة الإمامة وصفات الإمام ، واستحالة انتخاب الإمام واختياره ، وإنّما أمره بيد الله تعالى ، فهو الذي يختار لهداية خلقه أفضل عباده ممّن تتوفّر فيه النزعات الشريفة ، والصفات الكريمة ، والإيمان الوثيق بالله تعالى ، حتّى يصلح لهداية الناس ، وإشاعة الخير والإيمان في نفوسهم .

صفات الإمام

ذكر المعنيّون بالفقه السياسي في الإسلام آراءاً في صفات الإمام ، نذكر منها رأيين :

---

(١) النساء ٤: ١١٣.

(٢) النساء ٤: ٥٤ ـ ٥٧.

(٣) تحف العقول: ٤٣٦ ـ ٤٤٢. عيون أخبار الرضا عليه‌السلام : ١/٢١٦ ـ ٢٢٢.

الأوّل : ما ذكره الماوردي وابن خلدون أنّه يجب في الإمام الذي يتولّى قيادة الأمّة هذه الصفات :

١ ـ العدالة : على شروطها الجامعة ، وهي الامتناع من ارتكاب كبائر الذنوب ، وعدم الإصرار على صغائرها .

٢ ـ العلم : المؤدّي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام .

٣ ـ سلامة الحواسّ من السمع والبصر واللسان ؛ ليصحّ معها مباشرة ما يدرك بها .

٤ ـ الرأي المفضي إلى سياسة الرعيّة وتدبير مصالحها .

٥ ـ سلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض .

٦ ـ الشجاعة والنجدة للأمّة المؤدّية إلى حماية بيضة الإسلام وجهاد العدوّ .

٧ ـ النسب ، وهو أن يكون من قريش(١) .

الثاني : ما تذهب إليه الشيعة ، وتدين به في أئمّتها من أهل البيت عليهم‌السلام مصابيح الإسلام ، وكنوز الحكمة ، ومعدن الإيمان والتقوى ، ويذكرون صفاتهم التالية :

١ ـ العلم

وتعتقد الشيعة أنّ أئمّتهم عليهم‌السلام من أعلم الناس لا بأحكام الدين فقط ، وإنّما العلم والإحاطة الكاملة بما تحتاج إليه الأمّة في مجالاتها الإداريّة والسياسيّة والاقتصاديّة ، وغير ذلك من شؤون العلم والمعرفة ، أمّا ما يدعم ذلك ويؤيّده ما أجمع عليه الرواة أنّ سيّد العترة الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام كان أعلم الأمّة ، وهو القائل : « **سَلوني قَبْلَ أَنْ تَفْقِدوني ، فَلَأَنا بِطُرُقِ السَّماءِ أَعْلَمُ مِنّي بِطُرُقِ**

---

(١) الأحكام السلطانيّة : ٤. المقدّمة : ١٣٥.

الْأَرْضِ»(١).

وقال فيه النبيّ ﷺ : «**أنا مَدينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بابُها**» ، وذكر العقّاد : «أنّه فتق أكثر من ثلاثين علماً لم يعرفها الناس من قبل».

أمّا علم الإمام فإنّه مستمدّ من علم النبيّ ﷺ ، وقال الحجّة العلّامة محمّدرضا المظفّر : «أمّا علمه ـ أي علم الإمام ـ فهو يتلقّى المعارف والأحكام الإلهيّة وجميع المعلومات عن طريق النبيّ أو الإمام من قبله ، وإذا استجدّ شيء لا بدّ أن يعلمه من طريق الالهام بالقوّة القدسيّة التي أودعها الله تعالى فيه ، فإن توجّه إلى شيء وشاء أن يعلمه من طريق على وجهه الحقيقي لا يخطأ فيه ، كلّ ذلك مستند إلى البراهين العقليّة ، ولا يستند إلى تلقينات المعلّمين ، وإن كان علمه قابلاً للزيادة والاشتداد ، ولذا قال ﷺ : **رَبِّ زِدْني عِلْماً**».

وأضاف يقول :

«ويبدو واضحاً هذا الأمر في تاريخ الأئمّة عليهم السلام ، كالنبيّ محمّد ﷺ ، فإنّهم لم يتربّوا على أحد ، ولم يتعلّموا على يد معلّم من مبدأ طفولتهم إلى سنّ الرشد حتّى القراءة والكتابة ، ولم يثبت عن أحدهم أنّه دخل الكتاتيب أو تتلمذ على اُستاذ في شيء من الأشياء مع ما لهم من منزلة علميّة لا تجارى ، وما سئلوا عن شيء إلّا أجابوا عليه في وقته ولم تمرّ على ألسنتهم كلمة «لا أدري» ، ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمّل أو نحو ذلك ، في حين أنّك لا تجد شخصاً مترجماً له من فقهاء الإسلام ورواته وعلمائه إلّا ذكرت في ترجمته وتربيته وتلمذته على غيره ، وأخذ الرواية أو العلم عن المعروفين ، وتوقّفه في بعض المسائل أو شكّه في كثير من المعلومات ، كعادة البشر في كلّ عصر ومصر»(٢).

---

(١) نهج البلاغة : ٢٨٠ ، الخطبة ١٨٩.

(٢) عقائد الإماميّة : ٥١ ـ ٥٤.

وقال الإمام محمّدالحسين آل كاشف الغطاء : « وأن يكون ـ أي الإمام ـ أفضل أهل زمانه في كلّ فضيلة ، أو أعلمهم في كلّ علم ؛ لأنّ الغرض منه تكميل البشر وتزكية النفوس ، وتهذيبها بالعلم والعمل الصالح ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾[(١)] ، والناقص لا يكون مكمّلاً ، والفاقد لا يكون معطياً ، فالإمام في الكمالات دون النبيّ وفوق البشر »[(٢)].

هذا هو رأي الشيعة في الإمام أن يكون أعلم أهل عصره ، ويدعم ذلك بصورة واضحة موقف المأمون مع الإمام الرضا عليه السلام حينما جاء به إلى خراسان ، فقد أوعز إلى جميع علماء الأمصار بالقدوم إلى خراسان ، والتقى بهم سرّاً ، وطلب منهم أن يمتحنوا الإمام الرضا عليه السلام في أعقد المسائل وأكثرها غموضاً لعلّه لا يتمكّن من جوابها ، فيتّخذ ذلك وسيلة إلى فساد عقيدة الشيعة في الإمام من أنّه أعلم أهل زمانه .

وفعلاً فقد قدّم العلماء أهمّ المسائل في مختلف العلوم ، فأجاب عنها جواب المتخصّص المتمرّس ، ممّا حيّر العلماء وأذهلهم ، وقد دانت كوكبة منهم بالإمامة ، واعتنقت مذهب أهل البيت عليهم السلام ، وقد سجّلت تلك المسائل ، وهي تزيد على عشرين ألف مسألة ، فاضطرّ المأمون إلى حجب الإمام عليه السلام عن العلماء لئلّا يفتتن الناس به .

ومثل ذلك حدث مع الإمام الجواد عليه السلام البالغ من العمر تسع سنين ، فقد عهدت الحكومة العبّاسيّة إلى مجموعة من العلماء بامتحانه لعلّه يعجز عن الجواب فيتّخذون ذلك وسيلة إلى إفساد عقيدة الشيعة في أئمّتهم ، وتقدّم العلماء بمسائلهم

---

(١) الجمعة ٦٢ : ٢.

(٢) أصل الشيعة وأُصولها : ١٠٣.

إلى الإمام في اجتماع حاشد في بعض أروقة بلاط الحكم العبّاسي ، فأجابهم الإمام جواب العالم الخبير ، وقد سأله يحيى بن أكثم قاضي قضاة بغداد عن محرم قتل صيداً ، ففرّع الإمام على هذه المسألة عدّة فروع ، فقال له : « **قَتَلَهُ عَمْداً أَمْ خَطَأً ، قَتَلَهُ في الْحِلِّ أَوِ الْحَرَمِ ، قَتَلَ مِنْ صِغارِ الصَّيْدِ أَوْ كِبارِهِ** » .

ومن المعلوم أنّ لكلّ فرع حكماً خاصّاً ، ولم يهتد يحيى إلى الجواب ، وظلّ حائراً يطلب من الإمام إيضاح ذلك له ، وقد تحدّثت أندية العلم في بغداد عن علم الإمام وهو بهذا السنّ كيف خاض في ميدان البحوث العلميّة ، وأجاب عنها ، ويقول الرواة : « إنّه سئل عمّا يزيد عن عشرين ألف مسألة في نوب متفرّقة ، فأجاب عنها وهو بهذا السنّ » ، ولا تعليل لذلك سوى القول بما تؤمن به الشيعة في أئمّتهم من أنّ الله تعالى منحهم الحكمة وفصل الخطاب من دون فرق بين الصغير والكبير .

٢ ـ العصمة

ومن الصفات البارزة للإمام عند الشيعة : العصمة ، وهي عدم اقتراف الذنوب ، صغائرها وكبائرها ، عمداً أو سهواً ، وهي من ألطاف الله تعالى عليهم ، فقد خصّهم وميّزهم بهذه الصفة . قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ [(١)] .

والآية صريحة الدلالة ، واضحة الظهور في عصمة أهل البيت عليهم السلام وطهارتهم من كلّ زيغ وإثم وضلال .

كما أنّ حديث الثقلين يدلّ على العصمة ، فقد قرنهم النبيّ صلى الله عليه وآله بمحكم التنزيل الذي لا يأتيه الباطل من جميع جهاته ، فهو معصوم فكذلك العترة ، وإلّا لما صحّت المقارنة بينهما .

---

(١) الأحزاب ٣٣ : ٣٣.

وأمثله العصمة كثيرة واضحة في سيرة أهل البيت عليهم السلام ، ألم يقل سيّد العترة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : **« وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا ، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ »**[1] ؟

ألم يمتنع عليه السلام من قبول الخلافة حينما شرط عليه عبدالرحمن بن عوف أن يسير في دور حكومته بسيرة الشيخين ، فامتنع عن إجابته ؟ ولو كان من عشّاق الملك والسلطان لأجابه إلى ذلك ثمّ يعمل برأيه .

ألم يقل لابن عبّاس حينما تقلّد الخلافة ، وكان بيده نعل من ليف صنعه بيده : **ما قِيمَةُ هٰذَا النَّعْلِ ؟**

فقلت : لا قيمةَ لها !

فقال عليه السلام : **وَاللهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ ، إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً ، أَوْ أَدْفَعَ باطِلاً »**[2] ؟

أليست هذه العصمة ؟ وقد استشهد سلام الله عليه ولم يترك في بيته شيئاً من متع الحياة الدنيا ، وعاش عيشة الفقراء والبؤساء .

ومن أمثلة العصمة سيّد الشهداء وأبو الأحرار ، الذي دافع بمواقفه في يوم الطفّ عن حقوق المظلومين والمضطهدين ، ودافع عن دين الله تعالى ، وتحمّل أقسى ألوان المحن والخطوب التي تنهدّ من هولها الجبال ، وكان موقفه هذا من أروع أمثلة العصمة .

ومن أمثلة العصمة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام الذي قضى حياته في ظلمات السجون ، ودسّ إليه الطاغية هارون الرشيد السمّ حتّى استشهد ، ولو أنّه ساير حكومة الرشيد لوفّر له جميع ألوان النعم ، ولكنّه ترك ذلك طلباً لمرضاة الله تعالى .

---

(١) نهج البلاغة : ٣٤٧.

(٢) نهج البلاغة : ٧٦.

ومن أمثلة العصمة الإمام الرضا عليه‌السلام حينما عرض عليه المأمون الخلافة ، فأبى من قبولها ، ثمّ عرض عليه ولاية العهد فأبى ، فهدّده بالقتل ، فأجاب بشرط أن يكون بمعزل عن الحكم ، ولو كان من عشّاق الملك والسلطان لأجابه إلى ذلك ، ولكنّه آثر رضا الله تعالى على كلّ شيء .

وهكذا تتمثّل العصمة بجميع مفاهيمها ومقوّماتها في سيرة أئمّة الهدى عليهم‌السلام ، ومصابيح الإسلام .

يقول الحجّة الشيخ محمّد أمين زين الدين : « وما يصنع الشيعة إذا اضطرّتهم طبيعة الإسلام إلى هذه العقيدة ؟

وما يعملون إذا قادتهم نصوص القرآن ، وصحاح السنّة ، ودلائل العقل ؟

ما يعملون إذا قادتهم هذه الحجج كلّها قوداً إلى هذه النتيجة ؟

والعصمة التي يشترطونها في إمام المسلمين هل تخرج به عن مصافّ البشر ، وتلحقه بعداد الآلهة ، كما يشتهي أن يقول المتقوّلون ؟

هل العصمة في ذاتها جزء إلٰهي حتّى إذا اشترطناها ، فقد قلنا في الخليفة بالحلول ؟

وهل للأُلوهيّة أجزاء لتعدّ العصمة من هذه الأجزاء ؟ ولا تستطيع هذه الفرية أن تقف على قدم ، ألم تشترطها جمهرة المسلمين في رسالة الرسول ؟

فهلّا كانت لها هذه اللازمة هناك وهل نقدها أحد هناك بمثل هذا النقد ؟ العصمة شرط في رسالة الرسول لدى جمهور المسلمين ، وإن اختلفت فرقهم في تحديد هذا الشرط ، أهو العصمة في عهد النبوّة فقط أم العصمة حتّى فيما قبل هذا العهد ؟ » .

وأضاف قائلاً : « وشيعة أهل البيت وحدهم يقولون : الشرط في رسالة الرسول وفي إمامة الإمام : العصمة في كلّ أدوار الحياة من جميع أصناف الذنوب ، ومن جميع أنواع النقائص حتّى من الخطأ والغفلة والسهو .

والعصمة رصيد نفساني كبير يكون من تعادل جميع القوى النفسانيّة ، وبلوغ كلّ واحدة منها أقصى درجة يمكن أن يبلغها الإنسان ، ثمّ سيطرت القوّة العقليّة على جميع هذه القوى والغرائز والركائز سيطرة كاملة حتّى لا تشذّ في أمر ، ولا تستغلّ دونها في عمل .

هذه الحصانة الذاتيّة التي يرتفع بها الإنسان الأعلى من الاتّضاع في طبيعته ، ويمتنع بها عن الانزلاق في إرادته ، ثمّ عن الانحرافات والالتواءات التي تترسّب في منطقه اللّاشعوري ، وتتحوّل ـ كما يقول العلماء النفسانيّون ـ عقداً نفسيّة تتحكّم في دوافع المرء وسلوكه وفي اتّجاهاته وملكاته ، وتسوقه من حيث لا يريد إلى النشوز عن الحقّ ، والشرود عن العدل ، هذه الحصانة الذاتيّة التي توقظ مشاعر الإنسان الكامل فلا يغفل ، ويعتلي بملكاته وإشراقه فلا ينزلق ولا يكبو ، والتي تكفل له صحّته النفسيّة من كلّ وجه ، هذه هي العصمة التي يشترطها مذهب أهل البيت في الرئيس الأعلى لحكومة الإسلام ، وفي ظنّي أنّه شرط بمنتهى الجلاء ، كما أنّه بمنتهى الحكمة »(١) .

وهذا الرأي الذي أدلى به سماحة الإمام المغفور له زين الدين وثيق للغاية ، وحافلٌ بجميع المقوّمات العلميّة .

إنّ سيرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام تحكي العصمة بجميع أبعادها ومفاهيمها ، وقد تصدّى أعلام الشيعة إلى الاستدلال على لزوم عصمة الأئمّة ، وأنّهم كالأنبياء ، وكان منهم العلّامة الحلّي ، قال : « إنّ الأئمّة كالأنبياء في وجوب عصمتهم عن جميع القبائح والفواحش ، من الصغر إلى الموت ، عمداً وسهواً ، لأنّهم حفظة الشرع ، والقوّامون به ، حالهم كحال النبيّ »(٢) .

---

(١) الإسلام : ٢٨٣ ـ ٢٨٥ .

(٢) تلخيص الشافي : ١/٢١١ .

٣ ـ الحلم

من صفات الإمام: الحلم، وكظم الغيظ، ومقابلة الإساءة بالعفو والغفران، وكانت هذه الظاهرة من سمات جميع الأئمّة الطاهرين.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ، وَلٰكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ. وَأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ**»(١).

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «**إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي الرَّجُلُ أَنْ يُدرِكَهُ حِلْمُهُ عِنْدَ غَضَبِهِ**»(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**كَفىٰ بِالْحِلْمِ ناصِراً**»(٣).

وكان الإمام الحسن عليه السلام المثل الأعلى للحلم، وقد اعترف مروان بن الحكم الذي هو أعدى الخلق لأهل البيت عليهم السلام بذلك، فقد سارع بعد وفاة الإمام إلى حمل جثمانه، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: **كَيْفَ تَصْنَعُ ذلِكَ وَكُنْتَ تُجَرِّعُهُ الْغَيْظَ**.

فأجابه: أفعل ذلك بمن كان حلمه يوازي الجبال.

وكان الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام من أروع أمثلة الحلم، فقد ذكر الرواة أنّ شخصاً من أحفاد عمر بن الخطّاب كان يكثر الإهانة للإمام ويشتم أمامه جدّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فأراد بعض شيعة الإمام اغتياله، فنهاه الإمام عند ذلك ورأى أن يعالجه ويصلح ضميره، فسأل عن مكانه، فقيل له إنّه يزرع في بعض نواحي المدينة، فركب الإمام بغلته ومضى إليه متنكّراً، فوجده في مزرعته، فأقبل نحوه

---

(١) نهج البلاغة: ٤٨٤، الحديث ٩٤، عنه بحار الأنوار: ١٨٣/١، الحديث ٨ و: ٣٨/٦، الحديث ٦٢.

(٢) الكافي: ١١٢/٢، الحديث ٣.

(٣) الكافي: ١١٢/٢، الحديث ٦.

فصاح به العمري : لا تطأ زرعنا .

فلم يعن به الإمام لأنّه ليس له طريق يسلكه ، ولمّا انتهى إليه جلس إلى جنبه وأخذ يلاطفه ، وقال له بلطف : **كَمْ غَرِمْتَ في زَرْعِكَ هٰذا ؟**

- مائة دينار .

- **كَمْ تَرْجو أَنْ تُصيبَ مِنْهُ ؟**

- أنا لا أعلم الغيب .

- **إِنَّما قُلْتُ لَكَ : كَمْ تَرْجو أَنْ تُصيبَ مِنْهُ ؟**

- أرجو أن يجيئني منه مائتا دينار .

فأعطاه الإمام ثلاثمائة دينار ، وقال له : **هٰذِهِ لَكَ وَزَرْعُكَ عَلىٰ حالِهِ** .

فبهر الرجل وخجل من نفسه على ما فرّط في حقّ الإمام من الإساءة إليه ، وقفل الإمام راجعاً إلى الجامع النبوي ، فوجد العمري قد سبقه ، فلمّا رأى الإمام أخذ يهتف : الله أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء .

وبادر إليه أصحابه منكرين هذا الانقلاب في عقيدته ورأيه ، وراح يثني على الإمام ويذكر مآثره ومناقبه ويدعو له .

والتفت الإمام إلى أصحابه قائلاً : **أَيُّما كانَ خَيْراً ما أَرَدْتُمْ** ـ أي القتل ـ **أَوْ ما أَرَدْتُ أَنْ أُصْلِحَ أَمْرَهُ بِهٰذَا الْمِقْدارِ**(١) .

إنّ موقف الإمام وسائر الأئمّة عليهم السلام متّسم باللطف والإحسان عمّن أساء إليهم ، وكان الإمام موسى عليه السلام يوصي أبناءه بالصفح عمّن اعتدى عليهم قائلاً :

« يا بَنِيَّ ، إِنّي أُوصيكُمْ بِوَصِيَّةٍ مَنْ حَفِظَها انْتَفَعَ بِها : إِذا أَتاكُمْ آتٍ فَأَسْمَعَ أَحَدَكُمْ

---

(١) تاريخ بغداد : ١٣/٢٨ و ٢٩ . كشف الغمّة : ٢/٢١٨ ، باختلاف .

في الأُذُنِ الْيُمْنى مَكْروهاً ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلى الْيُسْرىٰ فَاعْتَذَرَ لَكُمْ ، وَقالَ : إِنّي لَمْ أَقُلْ شَيْئاً فَاقْبَلوا عُذْرَهُ »[١] .

ومن المؤكّد أنّ هذا الخلق الرفيع من أهمّ الوسائل في نشر المحبّة والمودّة بين الناس ، وهو من صميم الأخلاق النبويّة التي ورثها الأئمّة الطاهرون .

٤ ـ البرّ والإحسان

من صفات الإمام : البرّ والإحسان إلى الناس ، وأن يكون نديّ الكفّ ، واسع العطاء إلى الفقراء والمحرومين ، وكانت هذه الظاهرة من أبرز القيم عند أهل البيت عليهم السلام ، لا يبتغون بذلك إلّا وجه الله عزّ اسمه والدار الآخرة ، وقد أنزل الله تعالى فيهم قوله : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً** ﴾[٢] .

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يخرج في غلس الليل البهيم متنكّراً ويطرق أبواب الفقراء ويوصلهم من برّه ، وهم لا يعرفونه .

وكان الإمام الكاظم عليه السلام يخرج ليلاً ويوصل الضعفاء والمحرومين بصراره التي تتراوح ما بين المائتي دينار إلى الأربعمائة دينار[٣] ، وكان يضرب المثل بصراره ، فكان أهله يقولون : « عجباً لمن جاءته صرار موسى وهو يشتكي القلّة والفقر »[٤] .

وكان من برّه أنّه إذا أساء إليه شخص وآذاه بعث إليه بصرّة فيها ألف دينار[٥] .

---

(١) الفصول المهمّة / ابن الصبّاغ : ٢٢٠ .

(٢) الإنسان ٧٦ : ٨ و ٩ .

(٣) تاريخ بغداد : ١٣/٢٨ . كنز اللغة : ٧٦٦ .

(٤) عمدة الطالب : ١٨٥ .

(٥) تاريخ بغداد : ١٣/٢٧ .

وعلى هذا السمت سار جميع أئمّة أهل البيت عليهم السلام برّاً بالناس ، وعطفاً على الفقراء ، ولم يعرف التاريخ الإسلامي نظيراً لهم فيما أسدوه على الناس من إحسان .

٥ ـ الزهد

ومن مظاهر أئمّة الهدى عليهم السلام : الزهد في الدنيا ، وعدم الاحتفاء بمباهجها ، وكان زعيم العترة وسيّدها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد طلّق الدنيا ثلاث مرّات لا رجعة له فيها ، وسار على هذا الخطّ الأئمّة من أبنائه .

فقد روى إبراهيم بن عبدالحميد ، قال : « دخلت على الإمام موسى بن جعفر في بيته ، فإذا ليس فيه سوى خصفة ، وسيف معلّق ، ومصحف »[١] .

وكان يحدّث أصحابه عن سيرة أبي ذرّ الصحابي العظيم ، فيقول لهم : « **رَحِمَ اللهُ أَبا ذَرٍّ ، فَلَقَدْ كانَ يَقولُ : جَزَى اللهُ تَعالَى الدُّنْيا عَنِّي مَذَمَّةً بَعْدَ رَغيفَيْنِ مِنَ الشَّعيرِ أَتَغَدّىٰ بِأَحَدِهِما ، وَأَتَعَشّىٰ بِالْآخَرِ ، وَبَعْدَ شَمْلَتَي الصّوفِ أَتَّزِرُ بِأَحَدِهِما وَأَتَرَدّىٰ بِالْأُخْرىٰ** »[٢] .

وكان سيّد شباب أهل الجنّة وريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام الحسن عليه السلام من أظهر الزاهدين في الإسلام ، وهو القائل :

لَكِسْرَةٌ مِنْ خَسيسِ الْخُبْزِ تُشْبِعُني	وَشِربَةٌ مِنْ قِراحِ الْماءِ تَكْفيني
وَطُرَّةٌ مِنْ دَقيقِ[٣] الثَّوبِ تَسْتُرُني	حَيّاً وَإِنْ مِتُّ تَكْفيني لِتَكْفيني[٤]

---

(١) بحار الأنوار : ١١/٢٦٥ .

(٢) أُصول الكافي : ٢/١٣٤ .

(٣) الدقيق : الحقير من الثياب .

(٤) بحار الأنوار : ١٠/٩٤ .

وكان كثيراً ما يتمثّل بهذه الأبيات :

يا أَهْلَ لَذّاتِ دُنْياً لَا بَقاءَ لَها ... إِنَّ اغْتِزازاً بِظِلٍّ زائِلٍ حَمَقُ(١)

ونسب له في ذمّ المغرور في الدنيا والمفتون بحبّها هذا الشعر :

قُلْ لِلْمُقيمِ بِغَيْرِ دارِ إِقامَةٍ ... حانَ الرَّحيلُ فَوَدِّعِ الْأَحْبابا

إِنَّ الَّذينَ لَقيتَهُمْ وَصَحِبْتَهُمْ ... صاروا جَميعاً في الْقبورِ تُرابا(٢)

وقد ألّف في زهده محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي كتاباً أسماه زهد الحسن(٣).

وأجمع المترجمون له أنّه كان أزهد الناس وأفضلهم بعد جدّه وأبيه. وعلى أي حال، فإنّ الزهد في الدنيا، والرفض لمتعها ومباهجها، كان من سماتهم عليهم السلام.

٦ ـ الإيمان الوثيق بالله

وأخلص أئمّة أهل البيت عليهم السلام في إيمانهم بالله عزّ اسمه، وقدّموا أرواحهم قرابين في سبيل دينه، والقضاء على كلمة الشرك والضلال، فهم أساس التقوى ومعدن الإيمان، ولولاهم ما عبد الله تعالى عابد، ولا وحّده موحّد، وما حقّت فريضة، ولا أُقيمت سنّة، ولا ساغت في الإسلام شريعة.

وكان سيّد العترة الامام أمير المؤمنين عليه السلام المثل الأعلى للإيمان بالله تعالى، وهو القائل : **«لَوْ كُشِفَ لي الْغِطاءُ ما ازْدَدْتُ يَقيناً»**(٤).

وهو القائل مخاطباً الله تعالى : **«عَبَدْتُكَ لَا خَوْفاً مِنْ نارِكَ، وَلَا طَمَعاً في**

---

(١) الفصول المهمّة : ١٦٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب : ٢/١٤٥.

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ١/٣٣٠.

(٤) بحار الأنوار : ٤٠/١٥٣ و : ٤٦/١٣٥.

جَنَّتِكَ ، وَلكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبادَةِ فَعَبَدْتُكَ»[١].

وروى أبو الدرداء قال: «شهدت عليّ بن أبي طالب بشويحطات النجّار وقد اعتزل عن مواليه ، واختفى ممّن يليه ، واستتر بمغيلات النخل ، فافتقدته ، وبعُد عليَّ مكانه ، فقلت : لحق بمنزله ، فإذا أنا بصوت حزين ، وهو يقول :

إلـٰهِي كَمْ مِنْ مُوبقَةٍ حَلُمْتَ عَنْ مُقابَلَتِها بِنِقْمَتِكَ ، وَكَمْ مِنْ جَرِيرَةٍ تَكَرَّمْتَ عَنْ كَشْفِها بِكَرَمِكَ ، إلـٰهِي إنْ طَالَ فِي عِصْيانِكَ عُمُرِي ، وَعَظُمَ فِي الصُّحُفِ ذَنْبِي ، فَما أَنا بِمُؤَمِّلٍ غَيْرَ غُفْرانِكَ ، وَلا أَنا بِراجٍ غَيْرَ رِضْوانِكَ .

وذهل أبو الدرداء من هذه المناجاة التي تحكي عظيم الإنابة لله تعالى ، وراح يفتّش عن صاحب هذا الصوت ، ولم يلبث أن عرفه ، وإذا به إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام ، ومضى الإمام يصلّي ، فلمّا فرغ من صلاته توجّه بقلب منيب إلى مناجاة الله عزّ اسمه قائلاً :

إلـٰهِي أُفَكِّرُ فِي عَفْوِكَ فَتَهُونُ عَلَيَّ خَطِيئَتِي ، ثُمَّ أَذْكُرُ الْعَظِيمَ مِنْ أَخْذِكَ فَتَعْظُمُ عَلَيَّ بَلِيَّتِي .

آهِ إنْ أَنا قَرَأْتُ فِي الصُّحُفِ سَيِّئَةً أَنا ناسِيها وَأَنْتَ مُحْصِيها ، فَتَقُولُ : خُذُوهُ ، فَيا لَهُ مِنْ مأْخُوذٍ لا تُنْجِيْهِ عَشِيرَتُهُ ، وَلا تَنْفَعُهُ قَبِيلَتُهُ ، لا يَرْحَمُهُ الْمَلأُ إذا أُذِنَ فِيهِ بِالنِّداءِ .

آهِ مِنْ نارٍ تُنْضِجُ الْأَكْبادَ وَالْكُلَىٰ .

آهِ مِنْ نارٍ نَزّاعَةٍ لِلشَّوىٰ .

آهِ مِنْ غَمْرَةٍ مِنْ مُلْهِباتِ لَظَىٰ .

---

(١) بحار الأنوار : ٧٠/١٨٦ و ١٩٧ و ٢٣٤.

ثمّ انفجر الإمام باكياً حتّى خمد صوته ، فأسرعت إليه فوجدته كالخشبة الملقاة ، فحرّكته فلم يتحرّك ، فقلت : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، مات والله عليّ بن أبي طالب .

فبادرت مسرعاً إلى بيته أنعاه ، فقالت سيّدة النساء الزهراء عليها السلام : **ما كانَ مِنْ شَأْنِهِ ؟**

فأخبرتها بما رأيته .

فقالت : **هِيَ وَاللهِ الْغَشْيَةُ الَّتي تَأْخُذُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ .**

ثم أتوه بماء فنضحه على وجهه ، فأفاق ، ونظر إلى أبي الدرداء فرآه يبكي ، فقال له :

مِمَّ بُكاؤُكَ يا أَبا الدَّرْداءِ ؟

- ممّا أراه تنزله بنفسك .

فأجابه الإمام وهو غارق من الخوف من خشية الله تعالى :

يا أَبا الدَّرْداءِ ، كَيْفَ لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ دُعِيَ بِي إِلَى الْحِسابِ ، وَأَيْقَنَ أَهْلُ الْجَرائِمِ بِالْعَذابِ ، وَاحْتَوَشَتْنِي مَلائِكَةٌ غِلاظٌ ، وَزَبانِيَةٌ فِظاظٌ ، فَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَي الْمَلِكِ الْجَبّارِ ، قَدْ أَسْلَمَنِي الْأَحْياءُ ، وَرَحِمَنِي أَهْلُ الدُّنْيا ، لَكُنْتَ أَشَدَّ رَحْمَةً لِي بَيْنَ يَدَيْ مَنْ لَا تَخْفىٰ عَلَيْهِ خافِيَة .

وبهر أبو الدرداء من إنابة الإمام وخشيته من الله تعالى ، وراح يقول : فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله »[١] .

أرأيتم هذا الإيمان الذي يمثّل قوّة التقوى والإنابة إلى الله تعالى ، ووصفه ضرار لمعاوية ، فقال : « رأيته إذ مثل في محرابه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وهو قابض على لحيته يتململ تململ السليم[٢] ، ويبكي بكاء الحزين ،

(١) أمالي الصدوق : ٤٨ ـ ٤٦ . بحار الأنوار : ٤١/١١ و ١٢ .

(٢) السليم : الذي لدغته الحيّة .

وهو يقول : « **يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا ، إِلَيْكِ عَنِّي ، أَبي تَعَرَّضْتِ ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ ؟ لَا حَانَ حِينُكِ ! هَيْهَاتَ ! غُرِّي غَيْرِي ، لَا حَاجَةَ لي فِيكِ ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثاً لَا رَجْعَةَ فِيهَا ! فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ ، وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ .**

آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَطُولِ الطَّرِيقِ ، وَبُعْدِ السَّفَرِ ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ !

وراح معاوية يقول : يا ضرار ، كذلك والله كان عليّ »[١].

أرأيتم هذه الصور المذهلة من خشية الإمام وإنابته إلى الله الناجمة عن عظيم إيمانه ، وعلى هذا الخطّ من الإيمان الوثيق سار أبناؤه الأئمّة الطاهرون .

فقد تحدّث الرواة عن ابنه الإمام الزكيّ الحسن عليه السلام أنّه لم ير في وقت من الأوقات إلّا وهو يلهج بذكر الله تعالى[٢].

وكان إذا أراد الوضوء تغيّر حاله ، وداخله خوف عميق حتّى يصفرّ لونه ، وسئل عن ذلك ، فقال : **حَقٌّ عَلىٰ مَنْ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعَرْشِ أَنْ تَرْتَعِدَ فَرائِصُهُ وَيَصْفَرَّ لَوْنُهُ** .

وإذا فرغ من الوضوء وأراد الدخول إلى المسجد رفع صوته قائلاً :

إلٰهي ضَيْفُكَ بِبابِكَ ، يا مُحْسِنُ ، قَدْ أَتاكَ الْمُسِيءُ ، فَتَجاوَزْ عَنْ قَبيحِ ما عِنْدي بِجَميلِ ما عِنْدَكَ يا كَريمٌ »[٣].

أمّا الإمام الحسين عليه السلام ، فكان أروع مثل للإيمان بالله تعالى ، وهو القائل في مناجاته له : « **ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ، وَمَا الَّذي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ** » .

الإمام الحسين عليه السلام هو المنقذ الأعظم لدين الإسلام ، فقد جهد الأمويّون

---

(١) نهج البلاغة : ٤٨٠ . أمالي الصدوق : ٣٧١ . بحار الأنوار : ١٥/٤١ .

(٢) أمالي الصدوق : ١٠٨ .

(٣) بحار الأنوار : ٣٣٩/٤٣ ، الحديث ١٣ . أمالي الصدوق : ١٠٨ .

وعملائهم على لفّ لوائه ، وإطفاء نوره ، وإعادة الحياة الجاهليّة بآثامها ومكوّناتها إلى مسرح حياة المسلمين ، فثار أبو الأحرار بثورته المباركة التي أعادت المدّ الإسلامي ، وأوجدت تحوّلاً فكريّاً في حياة المسلمين ، ودفعتهم إلى الثورات المتتالية على الحكم الأموي وحوّلته إلى رماد .

ومثل آخر من أئمّة الهدى عليهم السلام وهو زين العابدين ، وإمام الموحّدين ، وصاحب الصحيفة السجّاديّة ، التي هي زبور آل محمّد عليهم السلام ، وتأتي في الأهميّة بعد نهج البلاغة لأمير المؤمنين عليه السلام ، وهي تحكي مدى إيمانه العميق بالله تعالى الذي لا حدّ له ، فقد تجرّد من جميع رغائب الحياة ، واتّجه نحو الله تعالى بقلبه وعواطفه ، وشبّهه المؤرّخون بالسيّد المسيح في تقواه وورعه وعظيم طاعته لله تعالى .

ومن قادة الفكر الإسلامي الإمام أبو جعفر محمّد الباقر عليه السلام ، فكان من أئمّة المتّقين ، ومن سادات الموحّدين ، وكان فيما يقول الرواة : « إذا أقبل على الصلاة اصفرّ لونه من خشية الله تعالى »(١) .

وقد أُثر عنه من المناجاة والأدعية في سجوده وقنوته ، وهي تحكي مدى إنابته إلى الله تعالى وانقطاعه ، وقد ذكرناها بالتفصيل في كتابنا (حياة الإمام محمّد الباقر عليه السلام) .

ومن أئمّة أهل البيت عليهم السلام الإمام الصادق عليه السلام ، عملاق هذه الأُمّة ورائد نهضتها الحضاريّة والفكريّة ، فقد كان من سادات المتّقين ، وإمام المنيبين إلى الله تعالى ، وقد تحدّث عنه مالك أحد قادة المذاهب الإسلاميّة بقوله : « إنّه ـ أي الإمام الصادق عليه السلام ـ لا يخلو من خصال ثلاث : إمّا صائماً ، وإمّا قائماً ، وإمّا ذاكراً ، وكان يطعم الفقراء ويكسوهم حتّى لم يبق لعياله شيء »(٢) .

---

(١) تاريخ مدينة دمشق : ٤٤/٥١.

(٢) صفة الصفوة : ٩٨/٢.

وكان في معظم أوقاته يلهج بذكر الله عزّ اسمه ، وقد أتينا على ذكر بعض مآثره ، ومناقبه ، ومدى إيمانه وانقطاعه إلى الله تعالى وخشيته منه ، في كتابنا (موسوعة الإمام الصادق عليه السلام) التي حكت بعض معالم شخصيّته التي هي أثرى شخصيّة علميّة عرفها التاريخ البشري عدا آبائه الأئمّة العظام في مواهبه وعبقريّاته .

ومن سادات المتّقين والمنيبين إلى الله تعالى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، الذي شغف بالعبادة والطاعة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ ، وقد شغل أغلب أوقاته بالصلاة وتلاوة كتاب الله تعالى ، ولمّا حبسه الطاغية هارون كان يشكر الله تعالى لتفرّغه لعبادته ، وكانت له ثفنات كثفنات البعير في مواضع سجوده ، وفيه يقول بعض الشعراء :

طالَتْ لِطولِ سُجودٍ مِنْهُ ثَفنتُهُ ... فَقَرَّحَتْ جَبْهَةً مِنْهُ وَعِرْنينا
رَأىٰ فَراغَتَهُ في السِّجْنِ مُنْيَتَهُ ... وَنِعْمَةً شَكَرَ الْباري بِها حِينا [1]

ولم يبارح العبادة حتّى استشهد في سجن الطاغية هارون ، وقد بحثنا عن معالم شخصيّته التي كان البارز فيها هو الإيمان الوثيق بالله عزّ اسمه في كتابنا (الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام) .

وعلى هذا الخطّ المشرق من الإيمان بالله تعالى سار بقيّة الأئمّة الطاهرين ، فكانوا النماذج لروحانيّة الإسلام ، فقد جهدوا على طاعة الله تعالى ، وأخلصوا أعظم ما يكون الإخلاص لكلّ ما يقرّبهم إلى الله تعالى زلفى . ومن المقطوع به أنّه لا يوجد لهم مشابه في عظيم إيمانهم ، فقد وهبوا أرواحهم لله تعالى ، وقاوموا الظلم والطغيان ، وتبنّوا حقوق المظلومين والمضطهدين ، والحمد لله تعالى الذي هدانا لمعرفتهم ، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله عزّ اسمه ، فقد شرّفنا بموالاتهم ، وكان ذلك من أعظم نعمه علينا .

---

(١) الأنوار البهيّة : ٩٣.



المخططات والبرامج الإصلاحية

من بحوث هذا الكتاب ما ينشده أئمّة أهل البيت عليهم السلام من القيم والأهداف ، والتي منها إشاعة العدل ، ونشر الأمن والرخاء والمحبّة بين الناس على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ، وقد تحقّق ذلك بصورة واضحة في الفترة القصيرة من حكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رائد العدالة الاجتماعيّة في دنيا الإسلام ، فقد نشر صفحات مشرقة من العدل والمساواة لم تشاهد البشريّة نظيراً لها في جميع أدوارها .

إنّ سياسة الإمام عليه السلام في جميع بنودها هي المنهج الكامل لأبنائه الطاهرين ، ولكن من المؤسف ، بل من الخسارة العظمى لعامّة الناس أجمعين أن أحداث السقيفة والشورى العمريّة قد حالت دون تحقيق ما يصبو إليه الأئمّة عليهم السلام من سعادة الناس ، وفتح أبواب الخير لهم ، فإنّ ذلك من أهمّ أهدافهم وأغلى أمانيهم ، ولكن حيل بينهم وبين ذلك ، فقد تسلّط الجبابرة والطغاة على المسلمين ، وقد جهدوا في إذلالهم ، وإرغامهم على ما يكرهون ، وسنعرض لتفصيل ذلك في البحوث الآتية .

وقبل البحث عن الأهداف النبيلة التي ينشدها أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، والتي هي من صميم رسالتهم ، نعرض بإيجاز للسياسة وما يرتبط بها من شؤون :

السياسة

أمّا المدلول اللغوي للسياسة فهو القيام على الشيء بما يصلحه(١).

ومن معانيها : القيادة للمجتمع والأسرة وغير ذلك ، وأنشد ثعلب :

سـادَةٌ قـادَةٌ لِكُـلِّ جَـمـيعٍ ساسَةٌ لِلرِّجالِ يَوْمَ الْقِتالِ(٢)

أنواعها :

أمّا أنواع السياسة ، فمنها :

أوّلاً : السياسة الرشيدة

أمّا السياسة الرشيدة ، فهي التي تسعد بها الشعوب ، وقد تبنّاها الإسلام ؛ لأنها تمثّل العدل الخالص ، والحقّ المحض ، وهي أسمى سياسة عرفها الناس لأنّها تنشد الاطمئنان الذي لا يشوبه قلق ، والأمن الذي لا يشوبه خوف ، والعدل الذي لا يشوبه ظلم .

إنّ السياسة الرشيدة البنّاءة قد تبنّاها أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، فهي جزء لا يتجزّأ من سيرتهم ، ومن معالمها :

١ ـ الصدق

أمّا الصدق فهو من أوّليات صفاتهم ، ولا يجوز الكذب ، ولا يسوغ استعماله لتدعيم المصالح الشخصيّة الضيّقة . يقول الرسول صلى الله عليه وآله : «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ**

---

(١) لسان العرب : ١٠٨/٦.

(٢) تاج العروس : ١٦٩/٨.

الصِّدْقَ يَهْدي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَما زالَ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ تَعالىٰ صِدِّيقاً .

وَإِيّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدي إِلَى الْفُجورِ ، وَإِنَّ الْفُجورَ يَهْدي إِلَى النّارِ ، وَما يَزالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ حَتّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ تَعالىٰ كَذّاباً »[١] .

إنّ أهل البيت عليهم السلام ركّزوا حياتهم على الصدق والصراحة ، وتجنّبوا أي كلمة فيها كذب ودجل ونفاق .

٢ ـ الاجتناب عن المكر والخديعة

ومن معالم سياسة أهل البيت عليهم السلام الاجتناب عن المكر والخديعة والتضليل ، انظروا إلى كوكبة من أحاديث سيّد العترة الطاهرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك :

ـ قال عليه السلام : « لَوْلَا أَنَّ الْمَكْرَ وَالْخِداعَ في النّارِ لَكُنْتُ أَمْكَرَ النّاسِ »[٢] .

ـ كان الإمام كثيراً يتنفّس الصعداء من الآلام التي أحاطت به من الأمويّين وغيرهم ، يقول :

« وَا وَيْلاهُ ! يَمْكُرُونَ بِي ، وَيَعْلَمُونَ أَنّي بِمَكْرِهِمْ عَالِمٌ ، وَأَعْرَفُ مِنْهُمْ بِوُجُوهِ الْمَكْرِ ، وَلٰكِنّي أَعْلَمُ أَنَّ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ فِي النَّارِ ، فَأَصْبِرُ عَلىٰ مَكْرِهِمْ وَلَا أَرْتَكِبُ مِثْلَ مَا ارْتَكَبُوا »[٣] .

ـ وقال عليه السلام : « لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ »[٤] .

إنّ الغدر من صفات الفاسقين الذين لا يؤمنون بالله عزّ اسمه ، ولا باليوم الآخر ،

---

(١) صحيح مسلم : ٨/٢٩.

(٢) أُصول الكافي : ٢/٣٣٦ ، الحديث ١ ، عنه بحار الأنوار : ٣٣/٤٥٤ ، الحديث ٦٧٠.

(٣) جامع السعادات : ١/٢٠٢.

(٤) نهج البلاغة : ٣١٨.

وقد تحدّث الإمام عن هذه الظاهرة التي محيت من نفسه.

- قال عليه السلام: «**وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنا في زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً، وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلى حُسْنِ الْحِيلَةِ. مَا لَهُمْ! قَاتَلَهُمُ اللهُ! قَدْ يَرَىٰ الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ الْعَيْنِ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ**»[١].

- وتحدّث الإمام في الردّ عمّن قال إنّه لا دراية له في شؤون السياسة، وأنّ معاوية خبير بها، قال عليه السلام: «**وَاللهِ! مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَلٰكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ. وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ**»[٢].

على هذا الخط المشرق بروح الإيمان والإسلام كانت مسيرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

٣ ـ الصراحة

من معالم سياسة أهل البيت عليهم السلام الصراحة في القول والعمل، وعدم المواربة، فقد أسرع عبدالرحمن بن عوف بعد اغتيال عمر بن الخطّاب إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام طالباً منه أن يسير في منهج الحكم على سياسة الشيخين وسيرتهما ليبايعه، فأبى ذلك، وصرّح بأنّه يسير على ضوء الكتاب والسنّة واجتهاد رأيه، فرفض سيرة الشيخين، ولو كان من عشّاق الملك والسلطان لأجابه إلى ذلك ثمّ يعمل برأيه، وإن عارضه ابن عوف يعتقله.

٤ ـ الزهد بالمصالح الخاصّة

من مناهج سياسة أهل البيت الزهد بالمصالح الخاصّة التي لا تعود على الأمّة

---

(١) نهج البلاغة: ٨٣، الخطبة ٤١.

(٢) نهج البلاغة: ٣١٨.

بنفع ، وهذا من أوّليات سيرة الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام ، فقد زهد في جميع مباهج الحياة ، واتّجه صوب الله تعالى حتّى استشهد في بيت الله تعالى ، وذكر الله تعالى بين شفتيه ، هذه بعض مظاهر السياسة الرشيدة .

ثانياً : السياسة الظالمة

أمّا السياسة الظالمة ، فهي التي تهلك الحرث والنسل ، وتمنى بها الشعوب بالأزمات والخطوب ، وهي التي سار عليها معاوية ومروان وأبناؤه ، ومعظم ملوك بني العبّاس ، ومن معالمها :

١ ـ الظلم

وهو من أفحش المحرّمات ، وأكثرها ضرراً بحياة الناس ، وقد عانى منه العراقيّون أمرّ ألوانه في عهد الطاغية الظالم معاوية بن أبي سفيان ، فقد عهد إلى عصابة من المجرمين كان منهم زياد بن أبيه ، فصبّ عليهم العذاب ، ولمّا هلك معاوية وابنه يزيد وآل الحكم إلى مروان وأبنائه تضاعف عليهم الجور ، ففي حكم عبدالملك بن مروان أعطى حكم العراق إلى المجرم الأثيم الحجّاج بن يوسف الثقفي الذي اقترف كلّ ما حرّم الله تعالى من إثم ، فكان يعدم الناس على الظنّة والتهمة ، ولا يلتذّ إلّا بسفك الدماء .

إنّ الإسلام حرّم الظلم ، وتوعّد عليه بالخلود في نار جهنّم ، وفي القرآن الكريم كوكبة من الآيات في لعن الظالمين .

٢ ـ الغدر والخيانة

من مظاهر السياسة المنحرفة عن الحقّ : الغدر والخيانة ، وهما سمتان للظالمين ولصوص المجتمع والخونة ، أمثال معاوية ، فقد التزم في صلحه مع الإمام الزكيّ الحسن سيّد شباب أهل الجنّة بشروط ذكرها المؤرّخون ، ولكنّه خاس بعهده ،

ولم يفِ بشيء منها، وقد أعلن ذلك في خطابه أمام الجماهير قائلاً: «ألا إنّ كلّ دم أُصيب في هذه الفتنة مطلول، وكلّ شرط شرطته فتحت قدمي هاتين»[1].

إنّ الوفاء بالعهد في العرف الدولي سمة يجب تنفيذها ولا يجوز نقضها، ولكنّ معاوية وأمثاله لا يفقهون ذلك، فقد طُبعوا على الغدر، وبنوا حكمهم وسياستهم على التخلّي عن كلّ صفة إنسانيّة.

٣ ـ الكذب

أمّا الكذب، فهو سمة ظاهرة عند الدبلوماسيّين ومعظم السياسيّين، خصوصاً في هذا العصر، فقد شاعت فيهم هذه الظاهرة الملتوية التي أغرقت الناس بالفتن والويلات.

هذه بعض معالم السياسة الظالمة التي نشرت الخوف والجوع والظلم بين الناس، ونعود إلى البحث عن صميم الموضوع.

منهج الحكم عند الأئمّة عليهم السلام

أمّا منهج الحكم عند أئمّة الهدى ومصابيح الإسلام، فقد ظهر بصورة واضحة في حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو المثل الأعلى لكلّ فضيلة، وكان من معالم سياسته ما يلي:

---

(١) وفي رواية أبي إسحاق السبيعي: «ألا وإنّ كلّ شيء أعطيت الحسن بن عليّ تحت قدمي هاتين لا أفي به». ذكر ذلك ابن أبي الحديد في شرح النهج: ١٦: ٤٦.

وقريب منه في مقاتل الطالبيّين: ٤٥.

للمزيد من الاطّلاع راجع كتابنا حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام ـ اجتماع الإمام بمعاوية.

أوّلاً: إقامة الحقّ

أمّا إقامة الحقّ وإشاعته بين الناس، فإنّها من أهمّ عناصر حكمه، وقد أعلن ذلك مع مستشاره عبدالله بن عبّاس، فقد رآه الإمام مزهوّاً بتقليده للخلافة، وكان بيد الإمام نعل من ليف صنعه بيده، فقال له: **يابْنَ عَبّاسٍ، ما قيمَةُ هٰذَا النَّعْلِ؟**

- لا قيمة له يا أمير المؤمنين.

- **هُوَ خَيْرٌ مِنْ خِلافَتِكُمْ هٰذِهِ، إِلَّا أَنْ أُقيمَ حَقّاً وَأَدْفَعَ باطِلاً.**

لقد زهد الإمام عليه السلام في الخلافة إذا لم تكن وسيلة لإقامة الحقّ وإزهاق الباطل.

وصرّح مرّة أُخرى في إحجامه من حكومة أبي بكر قائلاً:

«اللّٰهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً في سُلْطَانٍ، وَلَا الْتِمَاسَ شِيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلٰكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلاحَ فِي بِلادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ»[1].

لهذه الأسباب الوثيقة أعلن سخطه على أبي بكر، وامتنع عن مبايعته، وكان عليه السلام يرى أنّ الأمّة من واجبها أن تنقاد إليه، فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، فقال له:

«يا عَلِيُّ، أَنْتَ بِمَنْزِلَةِ الْكَعْبَةِ، تُؤْتىٰ وَلَا تَأْتي، فَإِنْ أَتاكَ هٰؤُلاءِ الْقَوْمُ فَسَلِّموها ـأي الخلافة ـ **إِلَيْكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَأْتوكَ فَلا تَأْتِهِمْ حَتّىٰ يَأْتوكَ»**[2].

ثانياً: المساواة

ومن مظاهر العدالة الكبرى لأئمّة الحقّ: المساواة العادلة بين الشعوب وسائر المواطنين، فلا ميزة لقوم على قوم، ولا شعب على آخر، فالناس في شريعة الإسلام

---

(١) نهج البلاغة: ١٨٩، الخطبة ١٣١.

(٢) أُسد الغابة: ٤/٣١.

سواء ، وإنّ أكرمهم عند الله أتقاهم ـ كما في الحديث ـ ، وقد تبنّى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه السياسة المشرقة حينما آل إليه الحكم ، فلم يقدّم العرب على الموالي ، وإنّما ساوى بينهم جميعاً ، وهذا عرض لبعض المساواة :

١ ـ المساواة في الحقوق

من مظاهر المساواة في الإسلام هي المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، فلم يفرض حقّاً على الضعيف ويلغيه عن القويّ ، بل الكلّ متساوون أمام العدل .

٢ ـ المساواة في العطاء

ساوى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أيّام حكمه بين المسلمين جميعاً أمام العطاء ، فلم يقدّم عربيّاً على عجمي ، ولا مسلماً على مسيحي [١] ، ولا قريباً على غيره ، وقد حمّل نفسه رهقاً من هذه المساواة ، فقد تنكّر له القريبون له ، فضلاً عن غيرهم ، خصوصاً الرأسماليّة القرشيّة ، فقد أعلنوا عليه الحرب بقيادة طلحة والزبير وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان ، وغيرهم من الأمويّين .

٣ ـ المساواة أمام الحاكم

ومن مظاهر المساواة في الإسلام المساواة الكاملة أمام الحاكم ، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في بعض رسائله إلى عمّاله :

« فَاخْفِضْ لَهُمْ ـ أي للرعيّة ـ جَنَاحَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَآسِ بَيْنَهُمْ في اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ ، حَتَّىٰ لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ في حَيْفِكَ [٢] لَهُمْ ،

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢/١٢٩.

(٢) **الحيف** : هو المنزلة الكريمة .

وفي النهج : « **حيفك لهم** : أي ظلمك لأجلهم » .

وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ»[١].

أرأيتم هذا العدل الذي تبنّاه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والمساواة بين الناس حتّى في اللحظة والنظرة.

ثالثاً: الحريّة

من المبادئ الأصيلة التي تبنّاها أئمّة أهل البيت عليهم السلام منح الناس الحريّة الكاملة، شريطة أن لا تستغلّ في الاعتداء على الناس، ولا تضرّ بمصالحهم وعقائدهم ومقدّساتهم، ولا تتنافى مع قواعد الشرع، وقد طبّق الإمام الحريّة الواسعة على حياة الناس في أيّام حكومته، ومن معالم هذه الحريّة:

١ ـ الحريّة السياسيّة

ونعني بها حريّة الناس في اعتناقهم لأي مذهب سياسي دون أن تفرض عليهم السلطة رأياً معاكساً لهم، وقد منح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحريّة حتّى لأعدائه الذين رفضوا بيعته التي قام عليها إجماع المسلمين، كسعد بن أبي وقّاص وعبدالله ابن عمر وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبي سعيد الخدري، وأمثالهم من عملاء الحكم المباد الذين كان يغدق عليهم عثمان الأموال الطائلة، فلم يجبرهم الإمام على مبايعته، ولم يتّخذ معهم أي إجراء حاسم، كما اتّخذه أبو بكر ضدّ المتخلّفين عن بيعته، كالإمام أمير المؤمنين ومالك بن نويرة وقومه.

كان الإمام يرى أنّ الناس أحرار في اتّجاهاتهم وميولهم، وليس للسلطة أن تتّخذ أي إجراء ضدّهم ما لم يعلنوا التمرّد والخروج على الدولة، وقد منح الإمام عليه السلام الحريّة للخوارج، وهم ألدّ أعدائه، لكنّهم لمّا عاثوا في الأرض فساداً اضطرّ

---

(١) نهج البلاغة: ٣٨٣.

إلى قتالهم حفظاً للمصلحة العامّة.

٢ ـ حريّة القول والنقد

ومن مظاهر الحريّة في الإسلام التي كانت من أهداف أهل البيت عليهم السلام هو منح الناس حريّة القول والنقد، وإن كان في غير صالح الدولة، ما لم يتعقبه فساد في الأرض فيكون العقاب عليه.

وقد روى المؤرّخون أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لمّا رجع من النهروان استقبله الكوفيّون بمزيد من السبّ والشتم، فلم يتّخذ معهم أي إجراء ولم يقابلهم بالعقوبة والحرمان(١).

وكان من مظاهر الحريّة التي منحها الإمام للناقدين والمبغضين له أنّ أبا خليفة الطائي التقى بجماعة من رفقائه، وكان فيهم أبو العيزار الطائي، وهو من عيون الخوارج، فقال لعدي بن حاتم: يا أبا طريف، أغانم سالم، أم ظالم آثم؟

وقد عرض بذلك إلى الإمام أمير المؤمنين، فقال له عدي: بل غانم سالم.

ـ الحكم ذاك إليك.

وأوجس منه خيفة كلّ من الأسود بن زيد والأسود بن قيس، فألقيا القبض عليه وحملاه إلى الإمام، ونقلا كلامه المنطوي على الخبث.

فال لهما الإمام: **ما أَصْنَعُ؟**

ـ تقتله.

ـ **أَأَقْتُلُ مَنْ لَا يَخْرُجُ عَلَيَّ؟**

ـ احبسه.

---

(١) الغارات: ٣١/١.

- **لَيْسَ لَهُ جِنايَةٌ ، خَلِّيا سَبيلَهُ**[١].

ولم يشاهد الناس مثل هذه الحريّة في جميع مراحل التاريخ ، فلم يفرض على أعدائه ومبغضيه رقابة تحول بينهم وبين حرّيّتهم ، وقد منح الحريّة لأعدى أعدائه ، وهو ابن الكوّاء ، فقد قال للإمام : ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾[٢].

فأجابه عليه‌السلام : ﴿ **فاصْبِرِ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِيْنَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾[٣].[٤]

ولم يتّخذ مع هذا الرجس الخبيث أي إجراء ، وإنّما عفا عنه وخلّى سبيله .

٣ ـ حريّة التنقّل

ولم يفرض الإمام الإقامة الجبريّة على أحد من الصحابة وغيرهم ، كما فرضها عمر بن الخطّاب على الصحابة ، وقد سمح لطلحة والزبير بالخروج من المدينة والذهاب إلى مكّة ليتمتّعا بالعمرة حسب زعمهما ، مع أنّهما يريدان الغدرة .

هذه بعض مظاهر الحريّة التي منحها الإمام للناس ، وهي تحكي مدى ما حقّقه الإمام من العدل حتّى مع أعدائه .

رابعاً : مواساة الناس

وظاهرة من سياسة أهل البيت عليهم‌السلام ، وهي مواساة الناس في السرّاء والضرّاء ، خصوصاً الفقراء والضعفاء ، وقد أعلن الإمام ذلك بقوله :

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٣/٧٣.

(٢) الزمر ٣٩ : ٦٥.

(٣) الروم ٣٠ : ٦٠.

(٤) الاحتجاج : ١/٣٢٩.

وقد ذكرنا الخبر مفصّلاً في موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام ـ مناظرات الإمام عليه‌السلام .

«أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسي بِأَنْ يُقَالَ : هٰذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ في مَكَارِهِ الدَّهْرِ ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ في جُشُوبَةِ الْعَيْشِ !.... وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ في الْقُرْصِ ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلي بُطُونٌ غَرْثَىٰ وَأَكْبَادٌ حَرَّىٰ ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ   وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلى الْقِدِّ[١]

وليس في تاريخ الإسلام وغيره حاكم مثل الإمام واسى رعيّته في آلامهم وبؤسهم ، وشاركهم في جميع مكاره الدهر.

خامساً: كتابة الحوائج

وكان من معالم سياسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه أصدر مرسوماً إلى رعيّته بكتابة حوائجهم صيانة لوجوههم من ذلّ السؤال.

قال عليه السلام : « **مَنْ كانَتْ لَهُ إِلَيَّ مِنْكُمْ حاجَةٌ فَلْيَرْفَعْها في كِتابٍ لأَصونَ وُجُوهَكُمْ مِنَ الْمَسْأَلَةِ** »[٢].

ثالثاً: السياسة الماليّة

إنّ للإسلام منهجاً خاصّاً في اقتصاد الدولة طبّقه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أيّام حكومته ، فهو يرى أنّ أموال الدولة للمواطنين ، ويجب إنفاقها في تطوير حياتهم ، وإنقاذهم من البؤس والحاجة ، ولا يختصّ ذلك بالمسلمين ، وإنّما يعمّ من سكن في بلاد المسلمين من النصارى واليهود والصابئة ، أمّا غيره من الملوك فكانوا يرون

---

(١) نهج البلاغة : ٤١٨.

(٢) العقد الفريد : ١/٢٣٨.

أنّ المال لهم ينفقونه على رغباتهم وأهوائهم ، فكان معاوية يقول : « مال الدولة ليس للمسلمين وإنّما هو لي » ، وهكذا كان ملوك الأمويّين والعبّاسيّين ، فقد استأثروا بأموال المسلمين ، وتركوا شبح الفقر ينهش في أجسامهم ، وهذه نظرة موجزة عن بعض ملامح السياسة الماليّة عند أهل البيت عليهم السلام :

١ ـ توزيع الأموال

انتهج الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حكومته توزيع ما يرد لخزانة الدولة من الأموال على مستحقّيها من الفقراء والجيش ، وتعمير الأراضي ، وإصلاح الريّ ، وغير ذلك ممّا تتطوّر به الحياة الاجتماعيّة ، وكان ابن النباح أمين بيت المال ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ بيت المال قد امتلأ من الصفراء والبيضاء .

فقال الإمام : **اللهُ أَكْبَرُ** ، وبادر إلى بيت المال وقال :

« هذا جَنايَ وَخِيارُهُ فِيهِ وَكُلُّ جانٍ يَدُهُ إِلى فيهِ »

ثمّ أمرالإمام بإحضار أهل الكوفة ، فلمّا حضروا وزّع جميع ما في بيت المال وهو يقول : « **يا صَفْراءُ ! وَيا بَيْضاءُ ! غُرِّي غَيْرِي** » .

ولم يبق في بيت المال شيء ، فأمر بنضحه بالماء ، وصلّى فيه ركعتين [١] .

وورد له مال فقسّمه ، ففضل منه رغيف فقسّمه سبعة أقسام ، وأعطاها لممثّلي الأسباع ، كما وردت إليه زقاق من عسل فقسّمه عليهم ، ثمّ جمع الأيتام فجعل يطعمهم ما بقي في الزقّ من عسل .

هذه سيرة إمام الحقّ ورائد العدل في الأموال التي تجبى لخزينة الدولة ، فلم يستأثر بأي شيء منها لا هو ولا أهل بيته .

---

(١) حلية الأولياء : ١/٨١.

٢ ـ المساواة في العطاء

وانتهج رائد العدالة وسيّد العترة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام منهجاً خاصّاً في العطاء ، وهي التسوية بين المسلمين ، فلم يميّز قوماً على قوم ، ولا فئة على فئة ، ولم يحفل بالأزمات التي واجهها ، فقد تنكّرت له الوجوه والأعيان ، وناهضته الرأسماليّة القرشيّة التي استأثرت بأموال المسلمين في عهد الخلفاء .

وقد سلك بما سنّه النبيّ صلى الله عليه وآله من المساواة في العطاء ، ولمّا مني جيشه بالانحلال والتخاذل واتّجهوا صوب معاوية سارع ابن عبّاس إليه ، وعرض عليه حالة جيشه وما يصلحه قائلاً : يا أمير المؤمنين ، فضّل العرب على العجم ، وفضّل قريشاً على سائر العرب .

فرمقه الإمام بطرفه ورفض نصيحته قائلاً : « **أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ... ؟ لَوْ كانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ ، فَكَيْفَ وَإِنَّما الْمَالُ مَالُ اللهِ** »[1] .

الإمام أبو المحرومين ، وصديق الفقراء والبؤساء ، فآثرهم بكلّ شيء .

ومن مظاهر عدله في المساواة أنّ سيّدة قرشيّة وفدت عليه طالبة زيادة مرتّبها ، ولمّا انتهت إلى الكوفة لم تهتدِ إلى محلّ إقامة الإمام ، فسألت سيّدة عنه ، فأخبرتها ، وطلبت منها أن تدلّها عليه ، فأجابتها إلى ذلك ، وفي الطريق سألتها عن مرتّبها ، فأخبرتها ، وإذا هو يساوي مرّتبها ، ثمّ سألتها فأخبرتها أنّها أعجميّة ، فورم أنفها ، وأخذت تتميّز غيظاً ، فلمّا انتهت إلى الجامع الأعظم الذي كان مقرّاً للإمام أمسكت بالأعجميّة ورفعت صوتها قائلة :

أمن العدل يابن أبي طالب تساوي بيني وبين هذه الأعجميّة ؟

فالتاع الإمام وتناول قبضة من التراب وجعل يقلّبها بيده ، وهو يقول :

---

(١) نهج البلاغة : ١٨٣ ، الخطبة ١٢٦ .

« لَمْ يَكُ بَعْضُ هٰذَا التُّرابِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ » ، وتلا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1]. [2]

إنّ هذه السياسة المشرقة التي سار عليها الإمام قد أدّت إلى إجماع القوى المنحرفة عنه إلى الاطاحة بحكومته ، وشلّ جميع فعّاليّاتها .

يقول المدائني : « إنّ من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى تخاذل العرب عن الإمام اتّباعه لمبدأ المساواة حيث كان لا يفضّل شريفاً على مشروف في العطاء ولا عربياً على أعجمي »[3].

إنّ الإنسانيّة على ما جرّبت من تجارب ، وبلغت من رقيّ في أنظمتها الاقتصاديّة والإداريّة ، فإنّها لا تستطيع أن تقيم مثل هذا النظام الذي سنّه رائد العدالة في الإسلام .

صور من مساواته :

وروى المؤرّخون صوراً مدهشة من مساواته في العطاء ، كان منها :

١ ـ مع الحسن والحسين عليهما السلام

ولم يمنح الإمام أي شيء من بيت المال لسبطي رسول الله صلى الله عليه وآله وسيّدي شباب أهل الجنّة : الحسن والحسين ، وعاملهما كبقيّة أبناء المسلمين في العطاء .

يقول خالد بن معمّر السدوسي لعلباء بن الهيثم ، وكان من أصحاب الإمام : « اتّق الله يا علباء ! في عشيرتك ، وانظر لنفسك ولرحمك ، ماذا تؤمّل عند رجل

---

(١) الحجرات ٤٩ : ١٣ .

(٢) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : ١١/٣٩ .

(٣) شرح النهج : ١/١٨٠ .

أردته أن يزيد في عطاء الحسن والحسين دريهمات يسيرة ريثما يرأبان بها ظلف العيش فأبى وغضب فلم يفعل ؟ »[١].

٢ ـ مع عقيل

وفد على الإمام أخوه عقيل طالباً منه أن يرفّه عليه ويمنحه الصلة ، فأخبره الإمام أنّ بيت مال المسلمين ليس لأيّ أحد أن يأخذ منه قليلاً ولا كثيراً ، وإذا منحه شيئاً منه يكون خائناً ومختلساً ، ولم يقنع عقيل بذلك نظراً لبؤسه وحاجته ، فأخذ يلحّ عليه ويجهد في مطالبته ، فأحمى له الإمام حديدة أدناها منه ، فظنّ أنّها صرّة فيها مال ، فألقى نفسه عليها ، فلمّا مسّها كاد أن يحترق من ميسمها ، وضجّ ضجيج ذي دنف منها ، فلمّا أفاق غادره والتحق بمعاوية لينعم بصلاته وأمواله التي اختلسها من بيت مال المسلمين[٢].

٣ ـ مع عبدالله بن جعفر

وفد عليه عبدالله بن أخيه جعفر ومعه زوجته سيّدة النساء عقيلة بني هاشم زينب عليها السلام طالباً منه أن يسعفه بالأموال ويهبه الثراء العريض ، فتنكّر له الإمام وأعرض عنه ، وخطب خطبة تعدّ من روائع خطبه ، ذكر فيها أنّه قد تنكّر له القريب والبعيد بسبب عدله ونكرانه للذات وابتغائه مرضاة الله تعالى في جميع أعماله .

٣ ـ الرقابة على السوق

من مناهج حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مراقبة السوق لئلّا تحدث فيه بعض الأزمات التي تضرّ بالصالح العامّ ، وكان الإمام بنفسه يتجوّل بين الباعة ويوصيهم بتقوى الله تعالى ، وينهاهم عن معصيته ، ويأمرهم بالاستقامة في معاملاتهم ،

---

(١) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : ١١/٤٠.

(٢) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : ١١/٤٠.

ويقول لهم : **أَحْسِنوا ، أَرْخِصوا بَيْعَكُمْ عَلَى الْمُسْلمينَ ، فَإِنَّهُ أَعْظَمُ لِلْبَرَكَةِ** .

وكان يسير في الأسواق وفي يده الدرّة ، ويقول للتجّار :

« يا مَعْشَرَ التُّجّارِ ! خُذُوا الْحَقَّ وَأَعْطُوا الْحَقَّ تَسْلَمُوا » .

وكان يمشي وحده في الأسواق ولا يصحب أحداً من شرطة الخميس ، وكان يقول للقصّابين :

« أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلَا تَنْفُخُوا اللَّحْمَ »[١] .

وكان يخرج إلى سوق الإبل ويرفع صوته قائلاً :

« يا مَعْشَرَ التُّجارِ ، إِيّاكُمْ وَالْيَمينَ الْفاجِرَةَ ، فَإِنَّها تُنْفِقُ السِّلْعَةَ وَتَمْحَقُ الْبَرَكَةَ »[٢] .

هذه صور من العدل الذي لم يشاهد مثله عند جميع من تصدّى للحكم في جميع تاريخ الإسلام ، وهي من برامج المخطّطات الاقتصاديّة للدولة الإسلاميّة التي تسير على منهج أهل البيت عليهم السلام .

---

(١) بحار الأنوار : ١٠٤/٤١ و : ٥٤/٧٨ و : ٣١٠/٧٩ و : ٩٤/١٠٣ ، باختلاف .

(٢) بحار الأنوار : ٩٣/١٠٣ .



الإمامة بالنص

أو بالانتخاب

واختلف المسلمون كأشدّ ما يكون الاختلاف في أمر الخلافة بعد رحيل النبيّ ﷺ إلى حظيرة القدس ، فقد شاع الخلاف والتنازع بين المسلمين ، فتفرّقت كلمتهم ، وتمزّق شملهم ، وانتشر العداء والحقد بينهم .

لقد ذهب الحزب القرشي بقيادة أبي بكر وأبي عبيدة بن الجرّاح إلى أنّ النبيّ ﷺ لم يعيّن أي أحد خليفة من بعده ، وأهمل أمر الخلافة إهمالاً كلّيّاً ، وجعل انتخاب الخليفة بيد المسلمين ، فلهم أن يختاروا من أحبّوا ومالوا إليه ، ودان بهذا الرأي جمهور المسلمين الذين عرفوا بالسنّة ، وهم الأكثريّة الساحقة في العالم الإسلامي ، وسنذكر بتحقيق جاد عدم أصالة هذا الرأي حسب الدراسة الجادّة .

ورأي آخر ذهب إليه خيار الصحابة ، ومعهم العترة الطاهرة ، وهو أنّ النبيّ ﷺ قد أقام خليفة من بعده ، ونصّ على إمامته ، وهو سيّد عترته ، وأخوه ، وأبو سبطيه ، الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وإلى هذا الرأي تذهب شيعة أهل البيت وتدين به ، وهو من أوليّات عقائدهم الدينيّة .

وإذا نظرنا إلى الواقع ، وتأمّلنا بجد وعمق نجد أنّ ما ذهبت إليه الشيعة هو عين الواقع من دون تحيّز أو استجابة للعواطف التقليديّة ، ويدعم ذلك ما يلي :

اهتمام النبيّ صلى الله عليه وآله بالخلافة

الخلافة أهم القضايا الحسّاسة في الإسلام ، وتتركّز عليها حياة المسلمين السياسيّة والاقتصاديّة ، وغير ذلك من شؤون حياتهم ، وقد اهتمّ بها النبيّ صلى الله عليه وآله اهتماماً بالغاً ، واحتاط فيها كأشدّ ما يكون الاحتياط ؛ لأنّ بها حماية اُمّته من الظلم والاعتداء ، وضمان كرامتهم ، وطهارة نفوسهم ، وتزكية أعمالهم ، فكيف لا يعيّن لها القائد لمسيرتها ويتركها فريسة للأهواء ، وموطناً للفتن والاضطراب ، ويدعم ذلك :

- إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله استشفّ ممّا اُوحي إليه من الغيب أنّ اُمّته من بعده ستمنى بالفتن والانقلاب على الأعقاب ، حسبما تحدّث عنه القرآن الكريم . قال تعالى : **﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾**[1] .

وقد أخبر النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ قوماً من اُمّته سيرتدّون على أعقابهم من بعده ، فيرفضون الإسلام ، ويرجعون إلى جاهليّتهم الاُولى ، ويكون مصيرهم إلى النار ، حسبما تواترت النصوص بذلك .

أليس الواجب يقتضي في مثل هذا الموقف المصيري للمسلمين أن يعهد النبيّ صلى الله عليه وآله بالخلافة من بعده إلى شخص يمثّل أهدافه ، ويحكي حرصه على حماية الإسلام ، وصيانة المسلمين ، وهو صلى الله عليه وآله من دون شكّ قام بهذه المهمّة ، وفرغ من أدائها قبل أن يوافيه الأجل المحتوم ، فوضع الخلافة بأسمى مكان ، وأعزّ موضع ، وأطهر ذات ، وأسمى نفس ، وهو باب مدينة علمه ، وحامي شريعته ، وناصره في جميع المواقف والمشاهد ، الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، الذي كان منه بمنزلة هارون من موسى حسبما ذكرته الصحاح .

---

(١) آل عمران ٣ : ١٤٤ .

- وكان من أهمّ مظاهر اهتمام النبيّ صلى الله عليه وآله بالخلافة أنّه أوجب على المسلمين معرفة إمامهم، قال: «**مَنْ ماتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إمامَ زَمانِهِ ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً**»[١].

ونقف وقفة قصيرة أمام هذا الحديث، فنتساءل أي إمام هذا الذي عناه النبيّ صلى الله عليه وآله ؟

هل عنى النبيّ صلى الله عليه وآله أئمّة الظلم والجور من ملوك الأمويّين والعبّاسيّين، الذين ينزون على منبره كالقردة، وأشاعوا الظلم والجور، وأرغموا المسلمين على الذلّ والعبوديّة، ومن المستحيل أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله قد نظر إليهم، وسنذكر في بحوث هذا الكتاب مدى ما أحدثوه من الفساد في الأرض.

إنّ الشيء المؤكّد الذي لا ريب فيه أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله عنى الأئمّة العظام من أهل بيته عليهم السلام، دعاة الله تعالى في أرضه، وسدنة وحيه، وخزنة علومه، الذين وهبوا أرواحهم بسخاء لله تعالى، وعملوا كلّ ما يقرّبهم إليه زلفى.

إنّ الإسلام هو الدين العظيم الذي منّ الله تعالى به على عباده ليحقّق لهم العدالة والأمن والرخاء، ولا يتحقّق ذلك إلّا في ظلّ حكومة العدل والحقّ من أهل بيت النبوّة لا في حكم اللصوص والخونة أمثال معاوية ويزيد ومروان وأبنائه، ومعظم ملوك العبّاسيّين، كالدوانيقي والمتوكّل وأمثالهما، الذين حاربوا الله تعالى ورسوله.

- وشيء آخر بالغ الأهميّة يوضّح لنا أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد أقام سيّد عترته الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة من بعده، ونصبه إماماً لأُمّته، وهي الأحاديث المتواترة التي لا يتطرّق الشكّ في صحّتها في حقّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وهذه بعضها:

---

(١) بحار الأنوار: ٢٧/٣٧.

١ ـ عليّ نفس النبيّ صلى الله عليه وآله

أمّا الإمام نفس النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقد أعلنه الذكر الحكيم في آية المباهلة ، وأكّده النبيّ صلى الله عليه وآله في كوكبة من أحاديثه ،كان منها :

❁ روى عمرو بن العاص ، قال : « لمّا قدمت من غزوة ذات السلاسل ، وكنت أظنّ أنّه ليس أحد أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله منّي ، فقلت : يا رسول الله ، أي الناس أحبّ إليك ، فذكر أناساً .

فقلت : يا رسول الله ، فأين عليّ ؟

فالتفت النبيّ إلى أصحابه ، فقال : « **إِنَّ هـٰذا يَسْأَلُنِي عَنِ النَّفْسِ** »[١].

❁ روى عقبة أخو عثمان لأُمّه : « أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أُخبر أنّ بني وليعة ارتدّوا عن الإسلام ، فغضب النبيّ وقال : **لَيَنْتَهِيَنَّ بَنُوْ وَلِيْعَةَ أَوْ لأَبْعَثَنَّ إِلَيْهِمْ رَجُلاً كَنَفْسِي ، يَقْتُلُ مَقَاتِلَهُمْ وَيَسْبِي ذَرَارِيَهُمْ ، وَهُوَ هـٰذا** ، ثمّ ضرب على كتف عليّ عليه السلام[٢].

وإذا كان النبيّ صلى الله عليه وآله نفس عليّ حسب ما نطق به الذكر الحكيم ، وأكّده النبيّ العظيم ، فكيف يتولّى شؤون الحكم غيره ، لأنّه امتداد لحياة الرسول ، وكما أنّه لا مجال للخليفة في حياة الرسول ، فكذا بعده ، لوجود ممثّله ووصيّه .

٢ ـ عليّ عليه السلام أخو النبيّ صلى الله عليه وآله

أعلن النبيّ صلى الله عليه وآله أمام أصحابه أنّ الإمام أمير المؤمنين أخوه ، في جمهرة من الأحاديث ، هذه بعضها :

❁ روى الترمذي بسنده عن ابن عمر ، قال : « آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين

---

(١) كنز العمّال ٦/٤٠٠.

(٢) مجمع الزوائد : ٧/١١٠.

أصحابه ، فجاء عليّ تدمع عيناه ، فقال : **يا رَسُولَ اللهِ ، آخَيْتَ بَيْنَ أَصْحَابِكَ ، وَلَمْ تُواخِ بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدٍ ؟**

فقال له رسول الله ﷺ : **أَنْتَ أَخِي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ** »[١].

وعمّت اخوّة النبيّ ﷺ للإمام في الدنيا والآخرة ، فأي اخوّة هذه التي تمتدّ لدار الآخرة التي لا نهاية لها.

❁ روت أسماء بنت عميس ، قالت : «كنت في زفاف فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فلمّا أصبحنا جاء النبيّ إلى الباب فقال : **يا أُمَّ أَيْمَنَ ، ادْعِي لِي أَخِي**

فقلت : هو أخوك وتنكحه ابنتك ؟

قال : **نَعَمْ ، يا أُمَّ أَيْمَنَ**»[٢].

❁ روى أنس بن مالك ، قال : « صعد رسول الله ﷺ المنبر وبعد انتهاء خطابه قال : **أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟**

فوثب إليه عليّ قائلاً : **ها أنا ذا يا رَسولَ اللهِ** ، فضمّه إلى صدره ، وقبّل بين عينيه ، وقال : **مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ ، هٰذا أَخِي وَابْنُ عَمِّي وَخَتْنِي ، هٰذا لَحْمِي وَدَمِي وَشَعْرِي ، هٰذا أَبُو السِّبْطَيْنِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ سَيِّدَيْ شَبابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ** »[٣].

❁ روى عبدالله بن عمر ، قال : « سمعت رسول الله ﷺ في حجّة الوداع ، وقد ضرب على منكب عليّ ، وهو يقول : **اللّٰهُمَّ اشْدُدْ بِهِ أَزْري . اللّٰهُمَّ قَدْ بَلَّغْتُ هٰذا أَخِي ، وَابْنُ عَمِّي ، وَصِهْرِي ، وَأَبُو وَلَدَيّ . اللّٰهُمَّ كُبَّ مَنْ عاداهُ فِي النّارِ** »[٤].

---

(١) صحيح الترمذي : ٢/٢٩٩. مستدرك الحاكم : ٣/١٤.

(٢) مستدرك الحاكم: ٣/٢١٠. خصائص النسائي : ١٧٤ ، الحديث ١٢٤.

(٣) ذخائر العقبى : ٩٢.

(٤) كنز العمّال: ٣/٦١.

❋ قال رسول الله ﷺ : «إذا كانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ نُودِيْتُ مِنْ بُطْنانِ الْعَرْشِ : يا مُحَمَّدُ ، نِعْمَ الْأَبُ أَبُوكَ إِبْراهِيمُ ، وَنِعْمَ الْأَخُ أَخُوكَ عَلِيٌّ »(١).

❋ روى أبو الطفيل عامر بن واثلة ، قال : «كنت على الباب يوم الشورى ، فارتفعت الأصوات بينهم ، فسمعت عليّاً يقول : بايَعَ النَّاسُ أَبا بَكْرٍ وَأَنا وَاللهِ أَوْلىٰ بِالْأَمْرِ مِنْهُ ، وَأَحَقُّ بِهِ مِنْهُ ، فَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ ، مَخافَةَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ كُفّاراً يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ رِقابَ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ .

ثُمَّ بايَعَ النَّاسُ عُمَرَ وَأَنا وَاللهِ أَوْلىٰ مِنْهُ ، وَأَحَقُّ بِهِ مِنْهُ ، فَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ مَخافَةَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ كُفّاراً يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ رِقابَ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ .

ثُمَّ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُبايِعُوا عُثْمانَ إِذَنْ أَسْمَعُ وَأُطِيعُ ، إِنَّ عُمَرَ جَعَلَنِي فِي خَمْسَةِ نَفَرٍ أَنا سادِسُهُمْ ، لَا يَعْرِفُ لِي فَضْلاً عَلَيْهِمْ فِي الصَّلاحِ ، وَلَا يَعْرِفُونَهُ لِي ، كُلُّنا فِيهِ شَرَعٌ سَواءٌ ، وَأَيْمُ اللهِ لَوْ أَشاءُ أَتَكَلَّمُ ثُمَّ لَا يَسْتَطِيعُ عَرَبِيُّهُمْ وَلَا عَجَمِيُّهُمْ ، وَلَا الْمُعاهِدُ مِنْهُمْ وَلَا الْمُشْرِكُ ، رَدَّ خُصْلَةٍ مِنْهَا ، لَفَعَلْتُ .

ثمّ قال : نَشَدْتُكُمُ اللهَ أَيُّها النَّفَرُ جَمِيعاً ، أَفِيْكُمْ أَحَدٌ أَخُوْ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَيْرِي ؟ ، قالوا : اللّهمّ لا »(٢).

حكى هذا الحديث أمراً مهمّاً ، وهو إقدام الشيخين على الاستيلاء على الحكم مع علمهما أنّه أحقّ بالخلافة وأوْلى بها منهما ، فهو ألصق الناس برسول الله ﷺ ، وهو أخوه ، وابن عمّه ، وصاحب الجهاد في الإسلام ، فلم يكن لهما أي دور يذكر في خدمة الإسلام والذبّ عن قيمه وأهدافه أيّام الرسول ﷺ ، وكان السبب في إحجامه

(١) كنز العمّال : ٣/١٦٢.

(٢) كنز العمّال : ٣/١٥٥.

عن منازعة القوم بالقوّة هو خوفه من ارتداد المسلمين ورجوعهم إلى جاهليّتهم الأُولى ، فإنّهم كانوا حديثي عهد بالإسلام .

وخصّ الإمام في حديثه باللوم على عمر بن الخطّاب ، فهو صاحب المواقف المشهورة عنده في أيّام السقيفة ، وهو الذي فتل حبل الشورى ، وسلّط الأمويّين على الحكم ، وغفا نظره عن الإمام أمير المؤمنين وإمام الموحّدين خوفاً أن تجتمع النبوّة والخلافة في بيت واحد ، وهو الشعار الذي رفعه في أيّام السقيفة ، كما سنعرض لذلك في بحوث هذا الكتاب .

❁ قال الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام : «**أَنَا عَبْدُ اللهِ ، وَأَخُو رَسُولِهِ ، وَأَنَا الصِّدِّيقُ الْأَكْبَرُ ، لَا يَقُولُها بَعْدِي إِلَّا كَذَّابٌ ، صَلَّيْتُ قَبْلَ النَّاسِ بِسَبْعِ سِنِينَ**»[١] .

❁ قال الإمام أبوجعفر عليه‌السلام : «**لَمّا نَزَلَتِ الْآيَةُ ﴿ وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾**[٢] ، **كانَ رَسولُ اللهِ صلى‌الله‌عليه‌وآله عَلىٰ جَبَلٍ فَدَعا رَبَّهُ ، وَقالَ : اللّٰهُمَّ اُشْدُدْ أَزْرِي بِأَخِي عَلِيٍّ**»[٣] .

وكثير من أمثال هذه الأحاديث أعلنت أنّ الإمام هو أخو النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وألصق النّاس به ، وأقربهم إليه ، وليس لغيره ممّن ارتقى الحكم أي خدمة للإسلام أيّام محنته .

٤ ـ عليّ عليه‌السلام وزير النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله

أعلن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله في جمهرة من أحاديثه أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام وزيره ، وهذه بعضها :

---

(١) سنن ابن ماجة : ١/١٢ . مستدرك الحاكم : ٣/١١١ . تاريخ الطبري : ٢/٥٦ .

(٢) طٰه ٢٠ : ٢٩ ـ ٣١ .

(٣) كنز العمّال : ٧/١١٣ . مستدرك الحاكم : ٣/٢١٠ .

❊ قالت السيّدة أسماء بنت عميس: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **اللّهمّ إنّي أَقُوْلُ كَما قَالَ أَخِي مُوسىٰ: اللّهُمَّ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي، أَخِي عَلِيّاً، اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَي نُسَبِّحَكَ كَثِيراً، وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً، إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً**»[١].

❊ روى الصحابي الجليل أبو ذرّ، قال: «صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً صلاة الظهر، فسأل سائل فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال: اللّهمّ اشهد إنّي سألت في مسجد محمّد صلى الله عليه وآله فلم يعطني أحد شيئاً، وكان عليّ في الصلاة راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى، وفيها خاتم، وذلك بمرأى النبيّ وهو في المسجد، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله طرفه إلى السماء وقال:

اللّٰهُمَّ إنَّ أَخِي مُوسىٰ سَأَلَكَ فَقالَ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[٢].

فَأَنْزَلْتَ عَلَيْهِ قُرْآناً: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾[٣].

اللّٰهُمَّ وَإِنِّي مُحَمَّدٌ نَبِيُّكَ وَصَفِيُّكَ، اللّٰهُمَّ فَاشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي، عَلِيّاً اُشْدُدْ بِهِ ظَهْرِي.

قال أبو ذرّ: فما استتمّ دعاءه حتى نزل عليه جبرئيل من عند الله بهذه الآية:

---

(١) الرياض النضرة: ١٦٣/٢.

(٢) طٰه ٢٠: ٢٥ ـ ٣٢.

(٣) القصص ٢٨: ٣٥.

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[١] »[٢].

٥ ـ الإمام عليه السلام خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله

صرّح النبيّ في كثير من المناسبات خلافة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، وقد أعلن ذلك في بداية دعوته، فقد قال للقرشيّين: «**إذاً هـٰذا** ـ يعني عليّاً ـ **أَخِي، وَوَصِيِّي، وَخلِيفَتِي فِيْكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا**»[٣].

وأخذ يكرّر ذلك ليحفظه المسلمون، ويكون جزءً من عقيدتهم، وهذه نفحات منها:

❋ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا عَلِيُّ، أَنْتَ خَلِيْفَتِي عَلىٰ أُمَّتِي**»[٤].

❋ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَقْدَمُهُمْ سِلْماً، وَأَكْثَرُهُمْ عِلْماً، وَهُوَ الْإمامُ وَالْخَلِيفَةُ بَعْدِي**»[٥].

❋ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَعاشِرَ النَّاسِ، مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ قِيلاً؟ إِنَّ رَبَّكُم جَلَّ جَلالُهُ أَمَرَنِي أَنْ أُقِيمَ لَكُم عَلِيّاً عَلَماً وَإِماماً وَخَلِيفَةً وَوَصِيّاً**»[٦].

❋ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**عَلِيٌّ مِنِّي، وَأَنا مِنْ عَلِيٍّ، قاتَلَ اللهُ مَنْ قاتَلَ عَلِيّاً،**

---

(١) المائدة ٥ : ٥٥.

(٢) نور الأبصار : ٧٠. تفسير الرازي : ٢٦/١٢.

(٣) تاريخ الطبري : ١٢٧/٢. الكامل في التاريخ : ٢٢/٢. تاريخ أبي الفداء : ١١٦/١. مسند أحمد بن حنبل : ٣٣١/١. كنز العمّال : ٣٩٩/٦.

(٤) المراجعات : ٢٠٨.

(٥) و (٦) المراجعات : ٢٠٩.

عَلِيٌّ إِمامُ الْخَلِيقَةِ بَعْدِي »[١].

❋ قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَوْحىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ جاعِلٌ لِي مِنْ أُمَّتِي أَخاً، وَوارِثاً، وَخَلِيفَةً، وَوَصِيّاً.

فَقُلْتُ: يا رَبِّ مَنْ هُوَ؟

فَقالَ: ذٰاكَ مَنْ أُحِبُّهُ وَيُحِبُّنِي، وَهُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ »[٢].

وكثير من أمثال هذه الأحاديث أُثرت عن أئمّة الهدى ومصابيح الإسلام، وغيرهم، وهي صريحة واضحة في أنّ النبيّ ﷺ قد أقام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة من بعده، وإماماً لأُمّته، وهادياً وقائداً لمسيرتها، وقد قال ﷺ له: « لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي »[٣].

٦ ـ الإمام عليه السلام من النبيّ ﷺ كهارون من موسى عليهما السلام

وأكّد النبيّ ﷺ في كثير من أحاديثه فضل الإمام، وسموّ مكانته، وعظيم شأنه، أنّه منه بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام، وهذه نماذج منها:

❋ قال النبيّ ﷺ لعليّ: «أَما تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي »[٤].

❋ روى سعيد بن المسيّب، عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص، أنّه قال: « قال رسول الله ﷺ لعليّ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي ...»[٥].

---

(١) و (٢) المراجعات: ٢١٠.

(٣) فضائل الخمسة من الصحاح الستّة: ٢/٢١.

(٤) مسند أبي داود: ١/٢٩. حلية الأولياء: ٧/١٩٥. مشكل الآثار: ٢/٣٠٩. مسند أحمد بن حنبل: ١/١٨٢. تاريخ بغداد: ١١/٤٣٢. خصائص النسائي: ١٦.

(٥) أُسد الغابة: ٤/٢٦. خصائص النسائي: ١٥. صحيح مسلم ـ كتاب فضائل الأصحاب »

❋ روى جابر بن عبدالله: «أنّ النبيّ قال لعليّ: **أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[(١)].

❋ قال عمر بن الخطّاب: «كفّوا عن ذكر عليّ بن أبي طالب فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: **فِي عَلِيٍّ ثَلَاثُ خِصالٍ**، لئن يكون لي واحدة منهنّ أحبُّ إليَّ ممّا طلعت عليه الشمس: كنت أنا وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجرّاح ونفر من أصحاب رسول الله ﷺ والنبيّ متّكئ على عليّ بن أبي طالب، حتى ضرب بيده على منكبه، ثمّ قال: **أَنْتَ يا عَلِيُّ، أَنْتَ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيماناً، وَأَوَّلُهُمْ إِسْلاماً**.

ثمّ قال: **أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ**»[(٢)].

وشاع هذا الحديث بين المسلمين، ونظمه الشهيد الخالد زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام بقوله:

وَمَنْ فَضَلَ الْأَقْوامَ يَوْماً بِرأْيِهِ ... فَإِنَّ عَلِيّاً فَضَّلَتْهُ الْمَناقِبُ
وَقَوْلُ رَسُولِ اللهِ وَالْحَقُّ قَوْلُهُ ... وَإِنْ رَغَمَتْ مِنْهُ الْأُنُوفُ الْكَواذِبُ
بِأَنَّكَ مِنِّي يا عَلِيُّ مُعالِناً ... كَهارُونَ مِنْ مُوسىٰ أَخٌ لِي وَصاحِبُ
دَعاهُ بِبَدْرٍ فَاسْتَجابَ لِأَمْرِهِ ... فَبادَرَ فِي ذاتِ الْإِلٰهِ يُضارِبُ[(٣)]

وسند هذه الرواية متواتر، ودلالتها واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، في أنّ الإمام عليه السلام خليفة النبيّ ﷺ ووزيره كهارون من موسى عليه السلام.

» ٧: ١٢٠.

(١) صحيح الترمذي: ٣٠١/٢. تاريخ بغداد: ٢٨٨/٣. مسند أحمد بن حنبل: ٢٣٨/٣.

(٢) الرياض النضرة: ١٦٣/٢.

(٣) فوات الوفيات: ٣٨/٢.

٧ ـ الإمام عليه السلام باب مدينة علم النبيّ صلى الله عليه وآله

وممّا أشاد به الرسول صلى الله عليه وآله بمنزلة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه باب مدينة علمه، وقد حكى ذلك مجموعة من الروايات، منها:

❋ روى جابر بن عبدالله، قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية، وهو آخذ بيد عليّ عليه السلام، يقول: **هٰذا أَميرُ الْبَرَرَةِ، وَقاتِلُ الْفَجَرَةِ، مَنْصُورٌ مَنْ نَصَرَهُ، مَخْذُولٌ مَنْ خَذَلَهُ**، وأضاف: **أَنا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بابُها، فَمَنْ أَرادَ الْبَيْتَ فَلْيَأْتِ الْبابَ**»(١).

❋ روى ابن عبّاس، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **أَنا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بابُها، فَمَنْ أَرادَ الْمَدِينَةَ فَلْيَأْتِها مِنْ بابِها**»(٢).

❋ قال صلى الله عليه وآله: «**عَلِيٌّ بابُ عِلْمِي، وَمُبَيِّنٌ لِأُمَّتِي ما أُرْسِلْتُ بِهِ مِنْ بَعْدِي، حُبُّهُ إِيمانٌ، وَبُغْضُهُ نِفاقٌ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ رَأْفَةٌ**»(٣).

❋ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**نَحْنُ الْبُيوتُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِها أَنْ تُؤْتىٰ مِنْ أَبْوابِها، نَحْنُ بابُ اللهِ وَبُيُوتُهُ الَّتِي يُؤْتىٰ مِنْها، فَمَنْ تابَعَنا وَأَقَرَّ بِوَلَايَتِنا فَقَدْ أَتَى الْبُيوتَ مِنْ أَبْوابِها، وَمَنْ خالَفَنا وَفَضَّلَ عَلَيْنا غَيْرَنا فَقَدْ أَتَى الْبُيوتَ مِنْ ظُهُورِها**»(٤).

وقال الإمام الصادق عليه السلام في حديث له مع خيثمة: «**نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، وَبَيْتُ**

---

(١) تاريخ بغداد: ٣٧٧/٢.

(٢) كنز العمّال: ٤٠١/٦.

(٣) كنز العمّال: ١٥٦/٦. الصواعق المحرقة: ٧٣.

(٤) تفسير فرات: ١٤٢.

الرَّحْمَةِ ، وَمَفاتيحُ الحِكْمَةِ ، وَمَعْدِنُ الْعِلْمِ ، وَمَوْضِعُ الرِّسالَةِ ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلائِكَةِ ، وَمَوْضِعُ سِرِّ اللهِ ، وَنَحْنُ وَديعَةُ اللهِ في عِبادِهِ ، وَنَحْنُ حَرَمُ اللهِ الْأَكْبَرُ ، وَنَحْنُ ذِمَّةُ اللهِ ، وَنَحْنُ عَهْدُ اللهِ ، فَمَنْ وَفىٰ بِعَهْدِنا فَقَدْ وَفىٰ بِعَهْدِ اللهِ ، وَمَنْ خَفَرَها [1] فَقَدْ خَفَرَ ذِمَّةَ اللهِ وَعَهْدَهُ » [2].

الإمام أمير المؤمنين باب مدينة علم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فقد آثره بعلومه ، وغذّاه بمواهبه ، وسكب في نفسه حكمه وآدابه .

إنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ينبوع من العلم ، وفيض من الحكمة ، وقد أودع علومه عند الإمام لتنتهل الأُمّة من نمير علومه ومعارفه ، ولكن من المؤسف أنّ القوى الحاقدة عليه من قريش قد سدّت نوافذ ذلك النور وحرمت الأُمّة من الاستضاءة منه ، وهذا ما حدّثنا به التاريخ .

هذا بعض ما أُثر عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله في الإشادة بالإمام ، وسموّ مكانته ، وقد ذكرنا كوكبة من الأحاديث في فضله في الجزء الأوّل من موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام .

لماذا اختار النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله عليّاً عليه‌السلام للخلافة ؟

والشيء الذي يدعو إلى التساؤل هو أنّ النبيّ عليه‌السلام لماذا اختار الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه‌السلام خليفة ووزيراً ووصيّاً له ، وقدوة على أُسرته وأصحابه ، وفيهم خيرة الرجال هدياً وسلوكاً ؟

إنّ الشيء المحقّق أنّ مقام النبوّة أسمى وأجلّ وأعظم من أن يخضع لأيّة عاطفة

---

(١) **خفرها** : أي نقضها .

(٢) أُصول الكافي : ١/٢٢١ .

أو جهة لا ترجع إلى الحقّ بصلة ، فلم يؤثر عليّاً بأهمّ منصب في أُمّته لأنّه ختنه على ابنته ، وأبو سبطيه ، وابن عمّه ، وإنّما اختاره لهذا المركز الحسّاس البالغ الأهميّة لأنّه توفّرت فيه جميع صفات الكمال ، ومحاسن الأعمال ، والتي منها :

١ ـ مواهبه عليه‌السلام العلميّة

وأجمع المؤرّخون في الإسلام أنّ الإمام أعلم الناس بعد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وأبصرهم لا في الأحكام الشرعية فحسب ، وإنّما في نظام الحكم والإدارة ، وعهده لمالك الأشتر من أوثق الأدلّة على ذلك ، فقد حفل هذا العهد بما لم يحفل به أي دستور سياسي في الإسلام وغيره ، فقد عنى بواجبات الدولة تجاه الرعيّة ، ومسؤوليّتها عن توفير العدل السياسي والاجتماعي والاقتصادي لها ، كما حدّد صلاحيّات الحكّام ومسؤوليّاتهم ، كما نصّ على الشروط التي يجب أن تتوفّر في الموظّفين في جهاز الحكم من الكفاءة ، والنزاهة ، والدراية بشؤون العمل الذي عهد إليهم ، كما يجب أن يتحلّون بالأخلاق الكريمة ، والآداب الرفيعة ، إلى غير ذلك من البنود المشرقة التي حفل بها هذا العهد ، التي لا غنى للحكومة والشعب عنها ، وقد ألمحت كثير من رسائله إلى ولاته وعمّاله بالشؤون السياسيّة التي دلّت على أنّه ألمع سياسي حاكم في الإسلام .

وكما كان الإمام أعلم المسلمين بشؤون الحكم والإدارة ، فقد كان أعلمهم بسائر العلوم الأُخرى ، كعلم الكلام والفلسفة والحساب وغيرها ، وقد فتق أبواباً كثيرة من العلوم تربو على ثلاثين علماً حسبما ذكره المترجمون له .

ومع هذه الثروات العلميّة الهائلة التي يتمتّع بها الإمام عليه‌السلام كيف لا ينتخبه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله قائداً وحاكماً لأُمّته ليعالج قضاياها على ضوء العلم والفقه .

إنّ الطاقات العلميّة التي يملكها الإمام تقضي بحكم المنطق الإسلامي الذي يؤثر الصالح العامّ على كلّ شيء أن يكون هو المرشّح للقيادة العامّة دون غيره ،

فإنّ الله عزّ اسمه قال: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (١).

وليس أدعى إلى السخرية من القول بجواز تقديم المفضول على الفاضل، فإنّ هذا القول يوجب الغبن والزهد في العلم، وتأخير الأُمّة وانحطاطها.

٢ - شجاعته عليه‌السلام

وظاهرة أُخرى من صفات بطل الإسلام الإمام عليه‌السلام هي الشجاعة، فقد كان من أشجع الناس وأقواهم قلباً، وأثبتهم جناناً في ميادين الحروب، وقد استوعبت شجاعته النادرة جميع لغات الأرض.

وهو القائل: «**وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَىٰ قِتَالي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا**» (٢).

إنّ الإسلام قام بجهاده وجهوده، وهو صاحب المواقف المشهورة يوم بدر وحنين والأحزاب، فقد حصد بسيفه رؤوس المشركين، وفلّ وحدتهم، ولم تنفتح ثغرة على الإسلام إلّا تصدّى لإسكاتها، وقدّمه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله على جميع أصحابه، وأسند إليه قيادة جيوشه، وما ولج حرباً إلّا فتح الله على يده، وهو الذي أذلّ اليهود، وفتح حصن خيبر، وكسر شوكتهم.

ومن المؤكّد أنّ الشجاعة من العناصر الأساسيّة التي يجب توفّرها فيمن يتولى الحكم، فإنّه لو كان ضعيفاً وخائر القوى وجبان القلب، فإنّ الأُمّة تصاب بالنكسات والخطوب والأزمات.

وعلى أي حال، فمع توفّر هذه الصفة بأسمى معانيها في الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام كيف لا يرشّحه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لقيادة أُمّته ؟!

---

(١) الزمر ٣٩: ٩.

(٢) نهج البلاغة: ٤١٨.

٣ ـ نكران ذاته عليه السلام

ومن صفات الإمام عليه السلام نكران الذات ، فلم يعرف المسلمون وغيرهم حاكماً تنكّر لجميع مصالحه الخاصّة كالإمام ، فقد تحرّج في أموال الدولة كأشدّ ما يكون المتحرّج ، فلم يأخذ لنفسه ولا لأبنائه وأهل بيته أي شيء منها ، وقد أجهد نفسه وحمّلها رهقاً ، وسار بين المسلمين بسيرة قوامها العدل الخالص والحقّ المحض .

٤ ـ إيمانه عليه السلام

أمّا الإيمان بالله تعالى ، فإنّه من أبرز صفات الإمام عليه السلام ، فقد اُترعت نفسه الشريفة بتقوى الله تعالى ، وهو القائل : « **وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا ، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَىٰ ، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَىٰ !** »[١] .

وكان من مظاهر إيمانه أنّه امتنع من إجابة عبدالرحمن بن عوف حينما عرض عليه الخلافة بشرط أن يسير بسياسة الشيخين ، فأبى ذلك[٢] .

ولو كان من عشّاق الملك والسلطان لأجابه إلى ذلك ثمّ يسير على وفق رأيه ، ولكنّه أبى أن يسير بسياسة الشيخين ، ويسلك طريقاً فيه التواء وبعد عن الحقّ .

هذه لمحات يسيرة عن صفات الإمام عليه السلام ، فكيف لا يرشّحه النبيّ صلى الله عليه وآله لمنصب الخلافة .

ولو التزمنا بمبدأ القرابة الذي تمسّك به أبو بكر وتغلّب فيه على الأنصار ، فإنّ الإمام أوْلى به ، فهو ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وآله ، فهو ابن عمّه ، وختنه على

---

(١) نهج البلاغة : ٣٤٧.

(٢) روح الإسلام : ٢٩٢.

ابنته سيّدة نساء العالمين، وأبو سبطيه.

قال الإمام في خطبته القاصمة:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعي مِنْ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ. وَضَعَني في حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ [وليدٌ] يَضُمُّني إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُني في فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّني جَسَدَهُ، وَيُشِمُّني عَرْفَهُ. وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لي كَذْبَةً في قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً في فِعْلٍ».

وأضاف الإمام يقول:

«وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لي في كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُني بِالاقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ في كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ في الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَىٰ نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ»(١).

وعلى أي حال، فالإمام أوْلى بمقام الخلافة من غيره، لأنه ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وآله.

يقول سيديو: «لو كان قد تمّ الاعتراف بمبدأ الوراثة ـ وهو في صالح عليّ ـ منذ البداية لكان بوسع ذلك أن يمنع المنازعات التي أغرقت المسلمين في الدم، كان زوج فاطمة يضمّ في شخصه حقّ الوراثة كوارث شرعي للرسول، كما يضمّ الحقّ بالانتخاب»(٢).

ولم يلتزم النبيّ صلى الله عليه وآله بقاعدة الوراثة وغيرها من الأمور التي لا ترجع بصلة لصالح

---

(١) نهج البلاغة: ٣٠٠ و ٣٠١.

(٢) روح الإسلام: ٢٩٢.

أُمّته وتطوير حياتها ، ومن أوهى الأقوال وأكثرها بُعداً عن الواقع أنّه صلى الله عليه وآله أهمل أمر الخلافة ، ولم يعرض لها بشيء ، وترك الأمر من بعده للمسلمين ، وجعل لهم الحريّة والاختيار في انتخاب من شاءوا ، مؤمناً أو فاسقاً ، فإنّ ذلك حسبما تقوله الشيعة تدمير للبناء الاجتماعي الذي أقامه الإسلام ، وإلقاء للأُمّة في متاهات سحيقة من الفوضى والفتن والأزمات ، وقد تحقّق ذلك ، فقد واجه المسلمون البلاء ، وعصفت بهم الخطوب ، وشاع بينهم القتل والدمار.

يقول محمّد سيف الكيلاني : « لقد تنازع القوم على منصب الخلافة تنازعاً قلّ أن نجد له مثيلاً في الأُمم الأُخرى ، وارتكبوا في سبيل ذلك ما نتعفّف نحن عن ارتكابه الآن ، فترتّب على ذلك أن أُزهقت أرواح ، ودمّرت مدن ، وهدّمت قرى ، وأُحرقت دور ، وترمّلت نساء ، وتيتّمت أطفال ، وهلك من المسلمين خلق كثير »[١].

وسوف نتحدّث عن ذلك الدمار في البحوث الآتية.

١ ـ الإمام عليه السلام في رحاب القرآن

الإمام العادل في رحاب القرآن هو المصباح المشرق للأُمّة ، والمرشد الأعظم لهدايتها ، وقد ورد ذلك في كوكبة من الآيات ، منها :

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾[٢].

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٣].

﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾[٤].

---

(١) أثر التشيّع في الأدب العربي : ١٥.

(٢) الفرقان ٢٥ : ٧٤.

(٣) السجدة ٣٢ : ٢٤.

(٤) القصص ٢٨ : ٥.

حكت هذه الآيات أنّ الأئمّة الذين يسيرون على هدي الله تعالى وطلب مرضاته ، هم قادة المجتمع ، ومن المؤكّد أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام هم في طليعة المتّقين والصالحين .

وهم الذين ﴿ **لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** ﴾[١] .

وهم المعنيّون بقوله تعالى : ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً** ﴾[٢] ، فقد أجمع الرواة أنّ هذه الآيات نزلت في أهل بيت النبوّة .

إنّ الإمامة كالنبوّة غير قابلة للانتخاب من الشعب ، وإنّما أمرها بيد الله تعالى ، وقد أعرب القرآن الكريم بوضوح عن ذلك .

قال تعالى : ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾[٣] ، فقد دلّت الآية على أنّ الإمامة مجعولة من الله تعالى ، وأنّها لا تمنح للظالمين .

٢ ـ الإمام عليه السلام في رحاب السنّة

ذهبت الشيعة إلى أنّ الإمامه كالنبوّة غير خاضعة للانتخاب والاختيار ، وأمرها

---

(١) النور ٢٤ : ٣٧.

(٢) الإنسان ٧٦ : ٧ ـ ١١.

(٣) البقرة ٢ : ١٢٤.

بيده تعالى ،فهو الذي يختار لهداية عباده من أحبّ ، وقد تظافرت النصوص عن أئمّة الهدى ومصابيح الإسلام بذلك ، والتي منها :

١ ـ روى الصحابي الجليل سلمان الفارسي ، قال : « دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله ، فإذا الحسين بن عليّ على فخذه ، وهو يلثم فاه ويقول له : **أَنْتَ سَيِّدٌ ابْنُ سَيِّدٍ ، أَنْتَ إِمامٌ ابْنُ إِمامٍ أَخو إِمامٍ ، وَأَبو الْأَئِمَّةِ ، وَأَنْتَ حُجَّةُ اللهِ وَابْنُ حُجَّتِهِ ، وَأَبو حُجَجٍ تِسْعَةٍ مِنْ صُلْبِكَ ، تاسِعُهُمْ قائِمُهُمْ** »[١].

٢ ـ من أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله في الأئمّة من أهل بيته ، أنّه قال : « **هذا** ـ وأشار إلى الحسين عليه السلام ـ **إِمامٌ ابْنُ إِمامٍ ، أَخو إِمامٍ ، أَبو أَئِمَّةٍ تِسْعَةٍ** »[٢].

٣ ـ روى الحافظ أبو نعيم بسنده : عن ابن عبّاس ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَحْيا حَياتِي ، وَيَمُوْتَ مَماتِي ، وَيَسْكُنَ جَنَّةَ عَدْنٍ غَرَسَها رَبِّي فَلْيُوالِ عَلِيّاً مِنْ بَعْدِي ، وَلْيُوالِ وَلِيَّهُ ، وَلْيَقْتَدِ بِأَهْلِ بَيْتِي مِنْ بَعْدِي ، فَإِنَّهُمْ عِتْرَتِي خُلِقُوا مِنْ طِيْنَتِي ، وَرُزِقُوا مِنْ فَهْمِي وَعِلْمِي ، فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ بِفَضْلِهِمْ مِنْ أُمَّتِي ، الْقاطِعِيْنَ فِيْهِمْ صِلَتِي ، لَا أَنالَهُمُ اللهُ شَفَاعَتِي** »[٣].

٤ ـ أخرج الصدوق في الإكمال بسنده إلى الإمام الصادق عليه السلام ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : « **الْأَئِمَّةُ اثْنا عَشَرَ ، أَوَّلُهُمْ عَلِيٌّ ، وَآخِرُهُمُ الْقائِمُ ، هُمْ خُلَفائي وَهُمْ أَوْصيائي** »[٤].

---

(١) الخصال : ٢٧٥. إكمال الدين وإتمام النعمة : ٢٦٠. ينابيع المودّة : ٤٢/٢. كفاية الأثر : ٤٦.

(٢) النكت الاعتقاديّة : ٣٤. بحار الأنوار : ٣٧٢/٢٦. الرسائل العشر : ٩٨.

(٣) حلية الأولياء : ٨٦/١. المراجعات : ٥٨ ، نقلاً عن الشرف المؤبّد.

(٤) إكمال الدين : ٢٥٩ ، الحديث ٤.

وكثير من أمثال هذه النصوص حفلت بهاكتب الحديث ، وهي تدلّ بوضوح على لزوم النصّ في الإمامة ، وبطلان غيره ، وقد أخذت بها الشيعة في بناء عقيدتها .

حديث مهمّ للإمام المنتظر عليه السلام

استدلّ حجّة الله تعالى في أرضه ، والمصلح الأعظم للبشريّة الإمام المنتظر عليه السلام على زيف الانتخاب للإمام من بين أوساط الشعب ، فإنّ تعيينه ليس بيد أحد ، وإنّما هو راجع إلى الله تعالى ، فقد سأله سعد بن عبدالله عن العلّة التي تمنع من اختيار الناس إماماً لأنفسهم .

فأجابه الإمام : **يَخْتارونَ مُصْلِحاً أَوْ مُفْسِداً ؟**

- بل مصلحاً .

- **فَهَلْ يَجوزُ أَنْ تَقَعَ خيرَتُهُمْ عَلَى الْمُفْسِدِ وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ بِما يَخْطُرُ بِبالِهِ مِنْ إِصْلاحٍ أَوْ فَسادٍ ؟**

- بلى .

- **فَهِيَ الْعِلَّةُ أَوْرِدُها لَكَ بِبُرْهانٍ يَثِقُ بِهِ عَقْلُكَ ، أَخْبِرْني عَنِ الرُّسُلِ الَّذينَ اصْطَفاهُمُ اللهُ تَعالىٰ ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَيَّدَهُمْ بِالْوَحْيِ وَالْعِصْمَةِ ، إِذْ هُمْ أَعْلامُ الْأُمَمِ ، وَأَهْدىٰ إِلَى الْإِخْتيارِ مِنْهُمْ ، مِثْلِ مُوسىٰ وَعِيسىٰ ، هَلْ يَجوزُ مَعَ وفورِ عَقْلِهِما ، وَكَمالِ عِلْمِهِما إِذا هَمّا بِالْإِخْتِيارِ أَنْ تَقَعَ خيرَتُهُما عَلَى الْمُنافِقِ وَهُما يَظُنّانِهِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ ؟**

- لا .

- **هٰذا مُوسىٰ كَليمُ اللهِ تَعالىٰ مَعَ وفورِ عَقْلِهِ ، وَكَمالِ عِلْمِهِ ، وَنزولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ ، اخْتارَ مِنْ أَعْيانِ قَوْمِهِ وَوُجوهِ عَسْكَرِهِ لِميقاتِ رَبِّهِ سَبْعينَ رَجُلاً مِمَّنْ لَا يَشُكُّ**

في إيمانِهِمْ وَإِخْلاصِهِمْ ، فَوَقَعَتْ خيرَتُهُ عَلَى الْمُنافِقِينَ . قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا ﴾[١] إلىٰ قَوْلِهِ : ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾[٢].

فَلَمّا وَجَدْنا اخْتِيارَ مَنْ قَدِ اصْطَفاهُ اللهُ تَعالىٰ لِلنُّبُوَّةِ واقِعاً عَلَى الْأَفْسَدِ دونَ الْأَصْلَحِ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ الْأَصْلَحَ عَلِمْنا أَنَّ الْإِخْتيارَ لَيْسَ إِلَّا لِمَنْ يَعْلَمُ ما تُخْفي وَتَكِنُّ الضَّمائِرُ »[٣].

وحديث الإمام عليه السلام مهمّ جدّاً لا يمكن المناقشة فيه ، فإنّ الطاقات البشريّة قاصرة عن الاطّلاع على خفايا الضماير والنفوس ، وليست لها أيّة دراية في إدراك الأصلح الواقعي الذي لا يعلم به إلّا الله عزّ اسمه ، المطّلع على واقع الأمور وما تنطوي عليه النفوس من خير أو شرّ.

مع التاريخ

والشيء المحقّق الذي لا يخالجه شكّ ولا هم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد قلّد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة ، ونصّبه علماً لأُمّته ، وقائداً لمسيرتها في غدير خم ، عرف ذلك القاصي والداني ، والقريب والبعيد ، فقد بايعه في صعيد غدير خم الحجّاج والصحابة والنساء ، بايعوه بالخلافة ، واعتبر بعض المحقّقين أنّ هذه البيعة جزء من رسالة الإسلام ، فمن أنكرها فقد أنكر الإسلام.

ومن المؤسف أنّه بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله انقلبت الأوضاع ، وتغيّرت الأمور ،

---

(١) الأعراف ٧: ١٥٥.

(٢) النساء ٤: ١٥٣.

(٣) بحار الأنوار: ٨٥/٥٢.

فقد تحوّلت الخلافة لأبي بكر، الأمر الذي أوجب تحوّلاً اجتماعيّاً وتغييراً شاملاً في الحياة الاجتماعيّة، وانقلب الكثيرون من المسلمين على أعقابهم، فقد أنكروا بيعتهم للإمام مع قرب العهد **وَالْجُرْحُ لَمّا يَنْدَمِلْ، وَالرَّسُولُ لَمّا يُقْبَرْ** ـ على حدّ تعبير سيّدة نساء العالمين زهراء الرسول ﷺ ـ.

وعلينا أن ننظر إلى الأحداث الخطيرة التي أعقبت وفاة النبيّ ﷺ؛ لأنّها ترتبط بالإمامة التي تبنّاها الرسول ﷺ، والتي هي جزء من رسالته الخالدة، وفيما يلي ذلك:

مؤتمر السقيفة

وليس من التعصّب في شيء أنّ السقيفة أخطر حادثة مدمّرة في تاريخ الإسلام السياسي، فقد انطوت على الشرّ والفتن والبلاء وإشاعة البغضاء والعداء بين المسلمين، وألقتهم في شرّ عظيم.

إنّ جميع الأحداث المؤلمة التي مني بها المسلمون كانت من النتائج المباشرة لأحداث السقيفة. يقول الامام كاشف الغطاء:

تَـاللهِ مـا كَـربَلا لَـوْلا سَـقيفَتُهُمْ وَمِثْلُ هذا الفَرعِ ذاكَ الأَصْلُ أنْتَجَهُ

إنّ الرزايا المذهلة التي أحاطت بأبي الأحرار في صعيد كربلاء كانت من نتائج السقيفة التي أسفرت عن استيلاء القرشيّين على الحكم، ورحم الله المعرّي إذ قال:

أَلَيْسَ قُرَيْشُكُمْ قَتَلَتْ حُسَيْناً وَكانَ عَلىٰ خِلافَتِكُمْ يَـزيدُ

وعلى أي حال، فإنّا نعرض بإيجاز إلى السقيفة، وما رافقها من أحداث.

اجتماع الأنصار في السقيفة

عقد الأنصار بجناحيهما : الأوس والخزرج مؤتمراً في سقيفة بني ساعدة ، وهي مركز لاجتماعهم ، ودار لندوتهم ، وتبادلوا آراءهم فيما يهمّهم من الأحداث السياسية وغيرها ، وقد أحاطوا مؤتمرهم بكثير من الكتمان والتحفّظ ، أمّا بواعث هذه السرّيّة في مؤتمرهم فإنّها ترجع إلى ما يلي :

أوّلاً : إنّهم رأوا التحرّك السياسي من قِبل المهاجرين المعارضين للإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد أجمعوا على صرف الخلافة عنه ، وظهرت منهم بوضوح بوادر التمرّد ، وهي :

١ ـ إنّ بعض المهاجرين صدّ النبيّ عن الكتابة في مرضه ، التي ضمن فيها سلامة أُمّته من الزيغ على امتداد التاريخ ، وقال كلمة لا تنسى ولا تمحى : « إنّ النبيّ ليهجر »[(١)] ، وقد أراد النبيّ صلى الله عليه وآله أن يكتب كتاباً في حقّ وصيّه وباب مدينة علمه ،

---

(١) من المغالطات والتشويه لواقع التاريخ أنّه اعتبر يحيى أبو زكريّا النووي أنّ اتّهام عمر للنبيّ صلى الله عليه وآله بالهجر والهذيان يدلّل على فقهه وفضائله ، ودقيق نظره ، لأنّه خشي أن يكتب النبيّ صلى الله عليه وآله أُموراً ربّما عجزوا عنها ، واستحقّوا العقوبة عليها ، لأنّها منصوصة لا مجال للاجتهاد فيها ، فقال عمر : حسبنا كتاب الله ، لقوله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ الأنعام ٦ : ٣٨ ، وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ المائدة ٥ : ٣.

فعلم عمر أنّ الله تعالى أكمل دينه ، فأمن من الضلال على الأُمّة ، وأراد الترقية على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكان عمر أفقه من ابن عبّاس ، كما جاء ذلك في صحيح مسلم شرح النووي : ١٧٤/٤.

وأكّد النووي في تسديده لمقالة عمر : « أنّ النبيّ يهجر » بقوله : « إنّ النبيّ ليس معصوماً عن الأمراض والأسقام العارضة للأجسام ونحوها ممّا لا نقص لمنزلته ولا فساد لما تعهّد من شريعته ». صحيح مسلم شرح النووي : ١٧٢/٤ ، وفيه توجيه لمقالة عمر إلّا أنّه ليس بسديد.

فصدّه عن ذلك.

٢ ـ امتناع المهاجرين من الالتحاق بسريّة أُسامة، وقد لعن النبيّ ﷺ المتخلّفين عنها، فلم يذعنوا لذلك.

وقد احتاط الأنصار لأنفسهم فبادروا لعقد مؤتمرهم للاستيلاء على الحكم لئلّا يسبق إليه المهاجرون.

ثانياً: إنّ الأنصار كانوا العمود الفقري للقوّات الإسلاميّة المسلّحة، وقد أنزلوا بالقرشيّين الضربات القاصمة، فأبادوا أعلامهم، وأشاعوا في بيوتهم الثكل والحزن والحِداد، وهم على يقين أنّ القرشيّين إذا ظفروا بالحكم فإنّهم سيمعنون في قتلهم وقهرهم، وقد صرّح بذلك الحباب بن المنذر بقوله: «لكنّا نخاف أن يليها أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم»[١].

وتحقّق ذلك، فإنّه لم ينته حكم الخلفاء القصير الأمد حتّى استولى الأمويّون على الحكم، فأمعنوا في إذلال الأنصار وقهرهم وإشاعة الفقر والحرمان في بيوتهم، خصوصاً في عهد معاوية وابنه يزيد الذي أباح المدينة لجنده في واقعة الحرّة، فانتهكوا الأعراض، وقتلوا الأبرياء، وسلبوا الأموال.

هذه بعض العوامل التي أدّت إلى مبادرة الأنصار إلى عقد مؤتمرهم، وإحاطته بالسرّيّة والكتمان.

خطاب سعد

ولمّا انعقد مؤتمر الأنصار في السقيفة انبرى سعد بن عبادة زعيم الخزرج إلى افتتاح المؤتمر، وكان مريضاً لم يتمكّن أن يجهر بكلامه، وإنّما كان يقول

---

(١) الطبقات الكبرى: ١٨٢/٣. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٥٣/٢.

ويبلّغ مقالته بعض أقربائه ، وهذا نصّ خطابه :

« يا معشر الأنصار ، لكم سابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ، ليست لقبيلة من العرب ، إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلّا القليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا أن يعزّوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عمّوا به ، حتّى إذا أراد الله تعالى بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ، وخصّكم بالنعمة ، فرزقكم الله تعالى الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشدّ النّاس على عدوّه ، وأثقله على عدوّه من غيركم ، حتّى استقامت العرب لأمر الله تعالى طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً ، حتّى أثخن الله عزّ وجلّ لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفّاه الله تعالى وهو عنكم راضٍ قرير العين . استبدوا بهذا الأمر دون سائر النّاس ، فإنّه لكم دون النّاس »[١] .

أشاد هذا الخطاب ـ **أوّلاً** ـ بنضال الأنصار وبسالتهم في نصرة الإسلام والذبّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فهم الذين حموه في أيّام غربته ومحنته .

وثانياً: التنديد بالأُسر القرشيّة التي ما آمنت بالنبيّ ، وناهضت رسالته ، وعذّبت المؤمنين به ، فلا حقّ للقرشيّين في إدارة شؤون الدولة الإسلاميّة التي ما قامت إلّا على عواتق الأنصار.

المؤاخذة على سعد

وما يؤخذ على سعد أنّه تناسى العترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن ـ كما في الحديث النبوي ـ فلم يعرض إلى سيّدها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو باب

---

(١) الكامل في التاريخ : ٣٢٨/٢ ، باختلاف .

مدينة علم النبيّ ﷺ ، ومَن كان منه بمنزلة هارون من موسى ، فقد تجاهله سعد ، ودعا إلى نفسه وقومه .

إنّ سعداً قد أخطأ إلى حدّ بعيد في تجاهله لحقّ الإمام عليه السلام ، وقد جرّ للأُمّة أبواب الفتن والكوارث ، فقد انحرفت الخلافة عن مسارها الذي أراده الله ورسوله للأُمّة ، وصارت اُلعوبة بيد الطلقاء وأبناء الطلقاء .

إنّ سعداً هو المسؤول عن الأحداث الرهيبة التي عاناها المسلمون ، خصوصاً قومه من الأوس والخزرج ، فقد صبّ عليهم الحكم الأموي ألواناً قاسية من الظلم والتنكيل ، وقد تحدّث الإمام أمير المؤمنين عن مسؤولية سعد بقوله :

أَوَّلُ مَنْ جَرَّأَ النّاسَ عَلَيْنا سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ ، فَتَحَ باباً وَلِجَهُ غَيْرُهُ ، وَأَضْرَمَ ناراً كانَ لَهَبُها عَلَيْهِ وَضَوْؤُها لأَعْدائِهِ[١] .

وقد لاقى سعد جزاء عمله العادل ، فإنّه لم يكد يستقرّ الحكم إلى أبي بكر حتّى جهد في ملاحقته ، وفرض الرقابة عليه ، حتّى اضطرّ إلى الهجرة من المدينة إلى الشام ، فتبعه خالد بن الوليد مع صاحب له ، فكمنا له ليلاً وطعناه ، وألقياه في البئر ، وأعلنوا أنّ الجنّ هي التي قتلته ، وأوردوا على لسانها شعراً تفتخر بقتله :

قَدْ قَتَلْنا سَيِّدَ الخَزرَ ... جِ سعدَ بْنَ عُبادَه

وَرَمَيناهُ بِسَهمَيـ ... ـنِ فَلَمْ نُخْطِئْ فُؤادَه

لقد استخدمت السياسة في ذلك العصر الجنّ ، واتّخذته من وسائل إعلامها إغراءً للبسطاء والسذّج من الناس .

---

(١) تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين : ١٤٦ ـ ١٤٩ .

إنكار عمر لموت النبيّ صلى الله عليه وآله

وشيء خطير هو ما قام به عمر لتجميد الأوضاع، وإيقاف أيّة عمليّة تؤدّي إلى انتخاب مَن يتولّى الحكم بعد الرسول صلى الله عليه وآله لأنّ صاحبه أبا بكر لم يكن في المدينة بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، وإنّما كان في السنح، وهو محلّ يبعد عن المدينة بميل أو أربعة أميال(١).

فبعث خلفه مَن يأتي به، إلّا أنّه خشي فوات الأمر قبل مجيئه، فانطلق بحالة رهيبة وهو يجوب شوارع المدينة وأزقّتها، ويهزّ سيفه منادياً بأعلى صوته: «إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات، وأنّه والله تعالى ما مات، ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، والله ليرجعنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم ممّن أرجفوا بموته»(٢).

وذهل الناس وساورتهم الأوهام والشكوك، فلا يدرون أيصدّقون مزاعم عمر بحياة النبيّ وهي من أعزّ ما يحلمون به، أم يصدّقون ما عاينوه من جثمان النبيّ صلى الله عليه وآله، وهو مسجّى في فراش الموت لا حراك فيه.

واستمرّ عمر يرعد ويبرق حتّى أزبد شدقاه مهدّداً بالقتل كلّ من أرجف بموت النبيّ صلى الله عليه وآله، ولم يمض قليل من الوقت حتّى جاء صاحبه أبو بكر من (السنح) فانطلق معه إلى بيت النبيّ صلى الله عليه وآله فكشف أبو بكر الرداء عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، فتحقّق من وفاته، فخرج إلى الناس وهو يفنّد مزاعم عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يمت قائلاً:

«مَن كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد الله تعالى، فإنّ الله حيّ لا يموت»، وتلا قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**

---

(١) معجم البلدان: ٣/٣٠١.

(٢) أنساب الأشراف: ٢/٢٤١، وغيره.

أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(١).

ولم يلبث عمر أن أسرع إلى الاذعان والتصديق لمقالة صاحبه أبي بكر، وراح يقول: « فوالله إذ سمعتها عقرت حتّى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي، وقد علمت أنّ رسول الله ﷺ قد مات »(٢).

تساؤلات

وهنا نقاط مهمّة تدعو إلى التساؤل، والنظر لها بدقّة وتأمّل لا بعاطفة، وهي:

أوّلاً: إنّ عمر أنكر بصورة جازمة موت النبيّ ﷺ زاعماً أنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، وأنّه سيعود إلى الأرض فينكل بالمرجفين بموته، ومن المؤكّد أنّ ذلك لم يكن عن إيمان به، وإنّما كان استغلالاً للفرص، وتوصّلاً لتحقيق أهدافه السياسيّة التي وضع مخطّطاتها حزبه الذي يضمّ أبا بكر وابن الجرّاح وغيرهما من القرشيّين، والذي يوضّح ذلك ما يلي:

١ ـ إنّ عمر كان من المتفائلين بموت رسول الله ﷺ، فقد قال لأُسامة الذي جعله رسول الله ﷺ أميراً عليه مع حداثة سنّه، قال له: مات رسول الله وأنت عليَّ أمير؟ »(٣).

قال هذا القول، وكان رسول الله ﷺ حيّاً، فكيف وقد انتقل إلى حظيرة القدس؟

٢ ـ إنّ عمر وقف بصلابة أمام رسول الله ﷺ لمّا أراد أن يوصي بالخلافة

---

(١) آل عمران ٣ : ١٤٤.

(٢) تاريخ الطبري : ٦٧/٣. الكامل في التاريخ : ٢١٩/٢. المستدرك : ٢٩٥/٢.

(٣) سير أعلام النبلاء : ٥٠١/٢. تهذيب الكمال : ٢٤٤/٢.

لأهل بيته ، فقال له : « حسبنا كتاب الله »[١] .

ثانياً : إنّ عمر حكم بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سوف يرجع إلى الأرض فيقطع أيدي رجال وأرجلهم ممّن أرجفوا بموته ، وهذا الحكم الصارم إنّما يكون للذين يسعون في الأرض فساداً ، وليس هذا منه .

ثالثاً : إنّ أبا بكر أعلن في خطابه الذي نعى فيه النبيّ صلى الله عليه وآله : « مَن كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ـ تعالى ـ فإنّ الله حيّ لا يموت » ، ويواجه هذا الخطاب أنّ المسلمين لم يؤثر عن أيّ أحد منهم أنّه يعبد رسول الله ، فقد أجمعوا أنّه عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحقّ .

هذه بعض التساؤلات على موقف عمر وأبي بكر لا نبغي بها غير نشر الواقع ودراسة الأحداث بدقّة وعمق .

مباغتة الأنصار

وحينما كان الأنصار في سقيفتهم يتداولون الرأي في شؤون الخلافة إذ خرج من مؤتمرهم وهم لا يشعرون كلّاً من : عويم بن ساعدة الأوسي ، ومعن بن عدي حليف الأنصار ، وكانا يبغضان سعداً ، فأسرعا إلى أبي بكر وعمر بذلك ، وانطلقا مسرعين إلى السقيفة وتبعهما جماعة من المهاجرين ، فكبسوا الأنصار في ندوتهم ، فأُسقط ما في أيديهم ، وغاض لون سعد ، فقد انهارت جميع مخطّطاتهم وفشل سعد في عقد البيعة له[٢] .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل : ٥٣٤/١ . الطبقات الكبرى : ٢٤٤/٢ .

(٢) تاريخ الطبري : ٦٨/٣ . الكامل في التاريخ : ٢٢١/٢ .

خطاب أبي بكر

وبعد ما ولج المهاجرون مؤتمر الأنصار أراد عمر أن يفتح الحديث معهم فنهره أبو بكر وذلك لعلمه بشدّته وقسوة حديثه ، وفي هذا الموقف الملبّد بالضغائن والأحقاد والأطماع يجب أن تستعمل فيه الكلمات المعسولة الليّنة التي لا تجرح عاطفة أي شخص .

وانبرى أبو بكر فخاطب الأنصار بكلمات رقيقة ناعمة مشفوعة ببسمات قائلاً لهم : « نحن المهاجرون أوّل النّاس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأمسّهم برسول الله ﷺ رحماً ، وأنتم اخواننا في الإسلام ، وشركاؤنا في الدين ، نصرتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأُمراء وأنتم الوزراء ، إنّ رسول الله ﷺ قال : **الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ** ، فلا تنافسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله تعالى إليهم » .

وانبرى الحباب فأبدى مخاوفه من البيعة لأبي بكر قائلاً : « ما نحسدك ولا أصحابك ، ولكنّا نخشى أن يكون الأمر في أيدي قوم قتلناهم فحقدوا علينا » .

وانبرى أبو بكر فقابله ببسمات قائلاً : « إن تطيعوا أمري تبايعوا أحد هذين الرجلين : أبا عبيدة ، وكان عن يمينه ، أو عمر بن الخطّاب ، وكان عن يساره »[١] .

دراسة وتحليل

ونقف بإمعان وتأمّل أمام هذا الخطاب الذي تغلّب فيه أبو بكر على الموقف ويواجهه :

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه‌السلام : ١ / ٢٧٢ ، نقلاً عن تاريخ الطبري : ٣ / ٨٢. السنن الكبرى : ٨ / ١٤٣. أنساب الأشراف : ٢ / ٢٦٢.

١ ـ إنّ أبا بكر لم يعن بوفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، وهي أعظم مصيبة ورزيّة مني بها العالم الإسلامي، فكان الأجدر به أن يرفع تعازيه لهم بوفاة المنقذ والمحرّر الذي برّ بدينهم ودنياهم، ويدعوهم إلى القيام بتشييع الجثمان المقدّس، ثمّ بعد مواراته يدعوهم إلى عقد مؤتمر عامّ يضمّ جميع الطبقات الشعبيّة لينتخبوا عن إرادتهم وحرّيّتهم من يرضونه خليفة عليهم إن لم يكن هناك نصّ من النبيّ صلى الله عليه وآله على أحد من بعده.

٢ ـ إنّ خطاب أبي بكر قد حفل بطلب الإمرة والسلطان لا بشيء آخر، وطلب من الأنصار أن يتنازلوا لاخوانهم المهاجرين من قريش عن الخلافة، ولا ينازعوهم فيها، ومنّاهم عوض ذلك بالوزارة، إلّا أنّه لمّا تمّ إليه الأمر أجحف في حقّهم فلم يمنحهم أي منصب في الدولة وأقصاهم عن جميع مراتب الحكم.

٣ ـ تجاهل خطاب أبي بكر حقّ العترة الطاهرة التي قرنها الرسول صلى الله عليه وآله بمحكم التنزيل، وجعلها كسفينة نوح مَن ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق وهوى، فكان الأوْلى بأبي بكر أن يتريّث بالأمر حتّى يتمّ تجهيز النبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ يأخذ رأي أهل بيته لتحمل خلافته طابعاً شرعيّاً.

يقول الإمام شرف الدين: «لو فرض أن لا نصّ بالخلافة على أحد من آل محمّد صلى الله عليه وآله، وفرض كونهم غير مبرزين في حسب أو نسب أو أخلاق أو جهاد أو علم أو عمل أو ايمان أو إخلاص، ولم يكن لهم السبق في مضامير كلّ فضل، بل كانوا كسائر الصحابة، فهل هناك مانع شرعي أو عقلي أو عرفي يمنع من تأجيل عقد البيعة إلى فراغهم من تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله، ولو بأن يوكل حفظ الأمن إلى القيادة العسكرية مؤقّتاً حتى يستتبّ أمر الخلافة.

أليس هذا المقدار من التريّث كان أرفق بأُولئك المفجوعين وهم وديعة النبيّ لديهم، وبقيّته فيهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ**

عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[١]؟ أليس من حقّ هذا الرسول الذي يعزّ عليه عنت الأمّة، ويحرص على سعادتها، وهو الرؤوف بها، الرحيم لها، أن لا تعنت عترته فلا تفاجأ بمثل ما فوجئت به، والجرح لمّا يندمل، والرسول لما يقبر»[٢].

٤ ـ إنّ المنطق الذي استند إليه أبو بكر لأحقّيّة المهاجرين من قريش بالخلافة هو أنّهم أمسّ الناس رحماً برسول الله ﷺ، فإذا كان هذا الملاك في استحقاقهم للخلافة، فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام أمسّ الناس رحماً برسول الله ﷺ، فهو ابن عمّه، وأبو سبطيه، وقد قال: «**احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ**».

وخاطب أبا بكر بقوله:

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَىٰ مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ ... فَكَيْفَ بِهٰذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيَّبُ

وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَىٰ حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ ... فَغَيْرُكَ أَوْلَىٰ بِالنَّبِيِّ وأَقْرَبُ

وهذا الاحتجاج صارم بالغ الأهميّة، فإنّ أبا بكر قد استدلّ على أحقّيّته للخلافة بالسبق إلى الإسلام، وأنّه من الأسرة القرشيّة التي ينتمي إليها النبيّ ﷺ، فإنّها لم تتوفّر فيه على النحو الكامل، وإنّما توفّرت على النحو الكامل في الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فهو أوّل الناس إسلاماً وإيماناً وأقربهم إلى رسول الله ﷺ، فهو أخوه وابن عمّه وأبو سبطيه وباب مدينة علمه.

وقد أعلن الإمام عليه السلام عن شدّة اتّصاله بالنبيّ ﷺ وقربه، وعظيم منزلته عنده بقوله: «**كانَتْ لي مَنْزِلَةٌ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ لَمْ تَكُنْ لأَحَدٍ مِنَ الْخَلائِقِ، فَكُنْتُ آتيهِ كُلَّ سَحَرٍ أَقولُ: السَّلامُ عَلَيْكَ يا نَبِيَّ اللهِ، وَكانَ لي مَدْخَلانِ: مَدْخَلٌ بِاللَّيْلِ**

---

(١) التوبة ٩: ١٢٨.

(٢) النصّ والاجتهاد: ٧.

وَمَدْخَلٌ بِالنَّهارِ ».

وقيل لقثم بن العبّاس : كيف ورث عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله ؟

فقال : لأنه كان أوّلنا به لحوقاً ، وأشدّنا به لزوقاً [١].

وعلى أي حال ، فالإمام عليه السلام أوْلى بمقام النبيّ صلى الله عليه وآله ومركزه من غيره من جميع الوجوه والمرجّحات ، كما كان أعلم المسلمين بأحكام القرآن وتأويله ، فكان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله ليلاً فلا يصبح حتّى يعلّمه عليّاً ، وينزل الوحي نهاراً فلا يمسي حتّى يعلّمه عليّاً [٢].

إنّ الإمام بحسب قربه من النبيّ أوْلى به من غيره .

يقول خالد محمّد خالد : « إنّ البيت الذي اختارته السماء ليكون منه النبيّ المصطفى إنّما هو البيت الذي يختار منه المسلمون ليكون خليفتهم ما دام في هذا البيت من يتمتّع بالكفاية لشغل منصب الخلافة » [٣].

كما فقدت الشورى أهمّ عناصرها ، وهو اجتماع أهل الحلّ والعقد على الانتخاب ، فإنّ هذا لم يتمّ في بيعة أبي بكر ، فإنّ القوى المفكّرة والصالحة لم تكن في قاعة الانتخاب .

البيعة لأبي بكر

وكسب أبو بكر الموقف بلباقته ونعومة كلامه ، وأنّه إنّما رشّح المهاجرين لزعامة الدولة لأنّ العرب لا تدين ولا تذعن إلّا لهم ، وكأنّ هذه القضيّة المهمّة من قضايا العرب وحدهم وليس لبقيّة المسلمين فيها حقّ ورأي ، وهنا نكتة سياسي محنّك ،

---

(١) مستدرك الحاكم : ١٢٥/٣.

(٢) بحار الأنوار : ٣١٧/٣٨.

(٣) في رحاب عليّ : ١٠٣.

فقد جعل أبو بكر نفسه حاكماً في هذا الأمر ، وجرّد نفسه من الأطماع السياسيّة ، فرشّح عمر وأبا عبيدة للخلافة ، فهل أنّ الخلافة من مسؤوليّاته ، وله أن يرشّح من شاء لقيادة الأمّة ؟ !

وعلى أي حال ، فقد انبرى عمر لتأييد صاحبه قائلاً : هيهات لا يجتمع اثنان في قرن ، والله لا ترضى العرب أن يؤمّروكم ونبيّها من غيركم ، ولكنّ العرب لا تمتنع أن تولّي أمرها مَن كانت النبوّة فيهم ، ووليّ أُمورهم منهم ، وأقام بذلك على مَن أبى الحجّة الظاهرة والسلطان المبين .

وأضاف قائلاً : من ذا ينازع سلطان محمّد ﷺ وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلّا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورّط في هلكة »[١] .

وعلّق السيّد محمّد الگيلاني على هذا الكلام بقوله : « إنّه احتجّ عليهم ـ أي على آل النبيّ ـ بقرابة المهاجرين للرسول ، ومع ذلك فقد كان واجب العدل يقضي بأن تكون الخلافة لعليّ بن أبي طالب ما دامت القرابة اتّخذت سنداً بحيازة ميراث الرسول ، لقد كان العبّاس أقرب الناس إلى النبيّ ، وكان أحقّ الناس بالخلافة ، ولكنّه تنازل بحقّه هذا لعليّ ، فمن هنا صار لعليّ الحقّ وحده في هذا المنصب »[٢] .

وثار الحباب بن المنذر فردّ على عمر مقالته قائلاً : « يا معشر الأنصار ، املكوا عليكم أمركم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموهم فاجلوهم عن هذه البلاد ، وتولّوا عليهم هذه الأُمور ، فأنتم ـ واللهِ ! ـ أحقّ بهذا الأمر منهم ؛ فإنّه بأسيافكم ، دان الناس لهذا الدين من دان ممّن لم يكن يدين ، أنا جذيلها المحكّك ، وعذيقها المُرجّب ، أنا شبل في عرينة الأسد واللهِ ! لو شئتم لنعيدنها جذعة ، والله ! لا يرد أحد عليّ ما أقول إلّا حطّمت

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/٨٣. الإمامة والسياسة : ١/٧ و ٨.

(٢) أثر التشيّع في الأدب العربي : ٥.

أنفه بالسيف..»[١].

وردّ عليه عمر مقالته، وسادت بينهما المهاترات، والتهديد بسفك الدماء.

وانبرى أبو بكر فرشّح للخلافة صاحبيه عمر وابن الجرّاح، فأسرع عمر قائلاً: «يكون هذا وأنت حيّ؟ ما كان أحد ليؤخّرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله صلى الله عليه وآله»[٢].

ولا نعلم متى أقام الرسول صلى الله عليه وآله أبا بكر خليفة على المسلمين، وإنّما كان مع بقيّة المهاجرين من قريش جنوداً في سريّة أُسامة، ولو أقامه مرجعاً للأُمّة لجعله معه في المدينة، وما أخرجه إلى ساحة الجهاد، وهو صلى الله عليه وآله في الساعات الأخيرة من حياته.

وعلى أي حال، فقد بادر الحزب القرشي بسرعة خاطفة إلى مبايعة أبي بكر خوفاً من تطوّر الأحداث، وحملوا الناس بالقوّة على مبايعته، وكان عمر من أشدّ المهاجرين اندفاعاً وحماساً إلى حمل الناس على مبايعة أبي بكر، فقد لعبت درّته شوطاً في الميدان، وسمع الناس يقولون: «قتلتم سعداً».

وصاح عمر بشدّة وعنف قائلاً: «اقتلوه قتله الله، فإنّه صاحب فتنة».

بمثل هذه الأوضاع السياسيّة الساخنة بويع أبو بكر وحمله حزبه يزفّونه إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله زفّاً[٣].

لقد تمّت البيعة لأبي بكر بهذه السرعة، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله مسجّى في فراش الموت لم يغيّبه عن عيون القوم مثواه، فلم يحضروا جنازته، ولا الصلاة عليه، فقد شغله

---

(١) الكامل في التاريخ: ٢/٣٣٠. تاريخ ابن خلدون: ٢/٤٨٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/٨٥ و ٨٦. الكامل في التاريخ: ٢/٢٢٣.

(٣) شرح النهج: ٦/٩، بويع أبو بكر يوم الاثنين ١٢ ربيع الأوّل سنة ١٥ الموافق ٨ يونيو سنة ٦٣٢م.

الملك والسلطان ، وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مشغولاً بتجهيز الجثمان المقدّس ، ولمّا علم ببيعة أبي بكر تمثّل بهذا البيت :

وَأَصْبحَ أَقْـوامٌ يَـقولونَ مـا اشْـتَهوا ويَطغَونَ لَمّا غالَ زَيـداً غَـوائِـلُهْ[١]

لقد أهمل القوم رأي العترة المقدّسة ، ومعها أعلام الإسلام ، كعمّار بـن يـاسر ، وأبي ذرّ ، وسلمان الفارسي ، والمقداد ، وغيرهم .

امتناع الإمام عن البيعة

نقم الإمام على بيعة أبي بكر ، واعتبرها غير شرعيّة ، فهو قطب العـلم والفكـر ونفس رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد بايعه المسلمون بالخلافة في غدير خم ، وما كان يظنّ أنّ القوم يزعجون هذا الأمر عنه ، ويستبدّون به ، وقد انطوت نفسه على حزن عميق وأسى مرير ، وقد حاججهم فلم يستجيبوا له ، وقابلوه بالشدّة والعنف ، فهجموا على داره وابن الخطّاب بيده مشعل من نار يريد إشـعال داره ، وفـي الدار سـيّدة نسـاء العالمين زهراء الرسول صلى الله عليه وآله ، فلم يقم لها وزناً ، ولم يرع مكانتها ، فـإنّا لله وإنّـا إليـه راجعون ، وهو الحاكم بين عباده .

إجراءات صارمة

اقتضت سياسة أبي بكر أن يتّخذ جميع الاجراءات الصـارمة ضـدّ الإمـام أمـير المؤمنين عليه السلام لأنّه يمثّل القوى المعارضة لحكومته ، وهذه بعض إجراءاته :

اتّخذ أبو بكر أكثر الطرق نجاحاً لشلّ حركة الإمام ، وهو الحصار الاقـتصادي ، فإنّ المال هو الأداة الفعّالة التي تعتمد عليه الجبهة المعارضة لقلب نظام الحكـم ،

---

(١) صحيح البخاري : ١٠/٤٤. مسند أحمد بن حنبل : ١/٥٥. تمام المتون : ١٣٧.

وقد قام أبو بكر بمصادرة جميع ما يرد للإمام من المال ، وكان من ذلك :

١ ـ إسقاط الخمس

الخمس مفروض لآل النبيّ ﷺ نصّ عليه القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [(١)].

وأجمع المسلمون على أنّ النبيّ ﷺ كان يختصّ بسهم من الخمس ويخصّ أقاربه بسهم آخر منه ، وكانت هذه سيرته إلى أن اختاره الله إلى الرفيق الأعلى ، ولمّا ولي أبو بكر أسقط سهم النبيّ ﷺ وسهم ذوي القربى ، ومنع بني هاشم من الخمس ، وجعلهم كغيرهم [(٢)].

وقد أرسلت بضعة الرسول وريحانته عليها السلام أن يدفع إليها ما بقي من خمس خيبر ، فأبى أن يدفع إليها شيئاً [(٣)] ، وترك شبح الفقر مخيّماً على عترة رسول الله ﷺ .

٢ ـ الاستيلاء على تركة النبيّ ﷺ

استولى أبو بكر على جميع تركة النبيّ ﷺ ، فلم يبق منها شيئاً ، وحازها إلى بيت المال ، وقد سدّ بذلك على العترة الطاهرة كلّ نافذة من مواردها المعاشيّة ، وفرض عليها حصاراً اقتصاديّاً حتّى لا تستطيع من القيام بأيّة حركة ضدّه .

٣ ـ مصادرة فدك

لمّا فتحت الجيوش الإسلاميّة حصون خيبر قذف الله تعالى الهلع والرعب في

---

(١) الأنفال ٨ : ٤١ .

(٢) و (٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ١/١٧٤ .

قلوب أهالي فدك ، فهرعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونزلوا على حكمه ، وصالحوه على نصف أراضيهم ، فكانت ملكاً خالصاً له لأنّه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب .

ولمّا نزلت على النبيّ صلى الله عليه وآله الآية : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾[١] بادر النبيّ صلى الله عليه وآله إلى بضعته سيّدة نساء العالمين فأنحلها فدكاً ، فوضعت يدها عليها ، وتصرّفت فيها تصرّف الملّاك في أملاكهم ، وبعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله صادرها أبو بكر ، وانتزعها من سيّدة النساء ، والسبب في ذلك لئلّا تقوى شوكة الإمام عليه السلام ، وقد مال إلى ذلك ابن مهنّا العلوي ، قال : « ما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها ـ أي عن فدك ـ إلّا أن لا يقوى عليّ بحاصلها وغلّتها على المنازعة في الخلافة »[٢] .

وانبرت سيّدة النساء عليها السلام إلى أبي بكر مطالبة بفدك ، فما أجابها إلى ذلك ، وطلب منها إقامة البيّنة ، وهو من الغرابة بمكان ، وذلك لما يلي :

أوّلاً : إنّ صاحب اليد لا يطالب بالبيّنة ، فإنّ اليد أمارة على الملكيّة ـ حسب ما قرّر في الفقه ـ ، والبيّنة على المدّعي ، ومع عدمها فلا حقّ له سوى اليمين على صاحب اليد ، وسيّدة النساء سلام الله عليها هي صاحبة اليد ، فهي غير مطالبة بالبيّنة .

ثانياً : إنّ سيّدة النساء عليها السلام قد أجمع المسلمون أنّها سيّدة نساء العالمين ، وهي من أهل البيت ، ونزلت فيهم آية التطهير ، وهي صريحة في عصمتها ، وروت عائشة أنّها سلام الله عليها أصدق الناس لهجة[٣] ، أفلا يكفي ذلك في تصديقها .

وعلى أي حال ، فقد مضت ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر ومعها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والسيّدة اُمّ أيمن ، فشهدا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أنحل سيّدة النساء

---

(١) الإسراء ١٧ : ٢٦.

(٢) أعلام النساء : ٣/٢١٥.

(٣) حلية الأولياء : ٢/٤١. مستدرك الحاكم : ٣/١٦٠.

فدكاً ، فردّ الشهادتين معتذراً أنّ البيّنة لم تتمّ برجل وامرأة ، وهذا لا يخلو من نظر :

١ ـ إلاّ القواعد الفقهيّة صريحة في أنّ الدعوى إذا كانت على مال ، فإنّها تقبل بشاهد ويمين ، ولا مجال لردّ شهادة الإمام .

٢ ـ إنّ أبا بكر ردّ شهادة الإمام ، وقد قال رسول الله ﷺ في حقّه : « **عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ مَعَهُ لَا يَفْتَرِقَانِ** »(١) .

٣ ـ ردّ أبو بكر شهادة أُمّ أيمن ، وقد شهد لها رسول الله ﷺ بأنّها من أهل الجنّة(٢) .

وعلى أي حال ، فقد خرجت بضعة رسول الله ﷺ من محكمة أبي بكر وهي تتعثّر بأذيالها من الألم والأسى على ردّ دعواها .

يقول الإمام شرف الدين : « فليته اتّقى فشل الزهراء في موقفها بكلّ ما لديه من سبل الحكمة ، ولو فعل ذلك لكان أحمد في العقبى ، وأبعد عن مظانّ الندم ، وأنأى عن مواقف اللوم ، وأجمع لشمل الأُمّة ، وأصلح له بالخصوص .

وقد كان في وسعه أن يربأ بوديعة رسول الله ﷺ ووحيدته عن الخيبة ويحفظها عن أن تنقلب عنه ، وهي تتعثّر بأذيالها ، وماذا عليه إذ احتلّ محلّ أبيها لو سلّمها فدكاً من غير محاكمة ، فإنّ للإمام أن يفعل ذلك بولايته العامّة ، وما قيمة فدك في سبيل هذه المصلحة ، ودفع هذه المفسدة »(٣) .

لقد كان باستطاعة أبي بكر أن يصنع الجميل والمعروف مع سيّدة النساء ، ولا يستعمل معها اللفّ والدوران ولا يواجهها بمثل هذه القسوة ، ولكن الأمر

---

(١) الصواعق المحرقة : ٧٥. مستدرك الحاكم : ١٢٤/٣ .

(٢) الإصابة : ٤٣٢/٤.

(٣) النصّ والاجتهاد : ٣٧.

كما حكاه عليّ بن الفارقي أحد أعلام بغداد ، ومن المدرّسين في مدرستها الغربيّة ، وأحد شيوخ ابن أبي الحديد ، فقد سأله : أكانت فاطمة صادقة في دعواها لفدك ؟

- نعم .
- فلِمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً وهي عنده صادقة ؟

قال ابن أبي الحديد : فتبسّم ثمّ قال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وحرمته ، وقلّة دعابته ، وقال : لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة ، وزحزحته عن مقامه ، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء ؛ لأنه يكون قد سجّل على نفسه أنّها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود »[1] .

وعلى أي حال ، فقد ترك أبو بكر سيّدة النساء قد خيّم عليها الحزن والأسى ، وألمّت بها الخطوب والكوارث .

وعلى أي حال ، فقد فتحت حكومة أبي بكر الباب لارهاق العترة النبويّة التي هي عديلة القرآن الكريم ، فقد قامت الحكومات بعده وهي تمعن في ظلم أبناء رسول الله ﷺ ، فلم تمض على انتقاله إلى حظيرة القدس خمسون عاماً ، وإذا برؤوسهم على الرماح يطاف بها في الأقطار والأمصار ، وبنات رسول الله وحرمه سبايا ، وصارت الخلافة تنتقل من ظالم إلى ظالم ، وسنتحدّث في البحوث الآتية عن ذلك .

---

(١) شرح النهج / ابن أبي الحديد : ١/١٩٨ .



المضاعفات المدمرة

لفصل الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام

أدّى فصل الخلافة عن أهل بيت النبوّة ومراكز الوحي إلى كثير من الأزمات المرهقة والفتن السود ، والبلاء العارم بين المسلمين ، فقد انتشرت الأحزاب النفعيّة التي لم تفكّر إلّا في مصالحها الضيّقة ، وكثر الطامعون في الحكم للاستيلاء على ثروات البلاد وخيراتها ، وقد عمّت الثورات الشعبيّة على أنظمة الحكم القائم ، سواء في العصر الأموي أو العبّاسي ، وقد سفك فيها الدماء ، وأُزهقت الأرواح ، والتي منها :

١ - حرب الجمل .

٢ - حرب صفّين .

٣ - حرب النهروان .

٤ - كارثة كربلاء .

٥ - ثورة التوّابين .

٦ - ثورة المختار .

٧ - ثورة مصعب .

٨ - ثورة الشهيد الخالد زيد بن عليّ عليه السلام .

٩ - ثورة الخوارج على الحجّاج .

١٠ - ثورة العبّاسيّين على الأمويّين .

١١ - ثورة الحسنيّين على العبّاسيّين .

١٢ - ثورة الحسين بن عليّ صاحب واقعة فخ .

وقد جرت في هذه الحروب أنهار من دماء المسلمين ، وهي من النتائج لفصل الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام .

انتشار الفتن

وكان من مظاهر صرف الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام انتشار الخوف والارهاب ، والجور والظلم في كثير من مناطق العالم الإسلامي ، وقد صوّر الشعراء الحالة الراهنة التي ألمّت بالناس .

فهذا العبّاس بن الوليد يخاطب الأمويّين :

إنّـي أُعـيذُكُـمُ بـالله مِـنْ فِـتَنٍ ... مِـثْلِ الْـجِبالِ تَسامىٰ ثُـمَّ تَـندفِعُ

إنَّ الْـبَرِيَّةَ قَـدْ مَـلَّتْ سِـياسَتَكُمْ ... فَاستَمسِكُوا بِعَمودِ الدّينِ وَارْتَدِعُوا

لا تُـلحِمُنَّ ذِئـابَ النّـاسِ أَنْـفُسَكُمْ ... إنَّ الذِّئـابَ إذا مـا أُلحِمَتْ رَتَـعُوا

لا تَـبْقُرُنَّ بِـأَيْديكُمْ بُـطونَكُمُ ... فَـثَمَّ لَا حَسـرَةٌ تُـغْنِي وَلَا جَـزَعُ[1]

وصوّر الشاعر بهذه الأبيات المحن الشاقّة التي مني بها الناس أيّام الأمويّين ، وأنّ المجتمع قد ملّ سياستهم القائمة على الظلم والجور ، ودعاهم إلى الاستقامة والتوازن في حكمهم ، فإذا لم يبادروا إلى ذلك فسوف تحرقهم الثورة ولا تدع لهم ظلّاً .

وصوّر الشاعر الشهير الحارث بن عبدالله الجعدي الحياة الاجتماعيّة في عموم البلاد بقوله :

---

(١) تاريخ الطبري : ٥/٥٤٥ . الكامل في التاريخ : ٥/٢٨٤ .

أَبِيتُ أَرْعى النُّجومَ مُرتَفقاً[1] إِذا اسْتَقلَّتْ تَجري أَوائِلُها
مِنْ فِتنةٍ أَصْبَحَتْ مُجَلِّلَةً[2] قَدْ عمَّ أَهلَ الصَّلاةِ شامِلُها
مَنْ بِخراسانَ وَالعِراقِ ومَنْ بِالشامِ كُلٌّ شَجاهُ شاغِلُها[3]
فالناسُ مِنها في لَونِ مَظلِمَةٍ دَهماءَ مُلتَجَّةٍ غَياطِلُها
يُمسي السَّفيهُ الَّذي يُعَنَّفُ بِالجَهلِ سَواءً فيها وعاقِلُها
والناسُ في كُربةٍ يَكادُ لَها تَنبِذُ أَولادَها حَوامِلُها
يَغدونَ مِنها في كُلِّ مُبْهَمَةٍ عَمْياءَ تُمنى لَهُمْ غَوائِلُها
لا يَنظُرُ النّاسُ في عَواقِبِها إِلَّا الَّتي لا يَبينُ قائِلُها
كَرَغوةِ الْبِكرِ أَو كَصَيحَةِ حُبْلى طَرَقَتْ حَولَها قَوابِلُها
فَجاءَ فِينا أَزْرَى بِوِجْهَتِهِ فيها خُطوبٌ حُمْرٌ زَلازِلُها[4]

وجاء هذا الشعر بوصف رائع ودقيق لحالة الناس التي ألمّت بهم ، فقد عمّت الفتن جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وقد تساوى بالبلاء العالم والجاهل ، حتّى كادت الحوامل تنبذ أولادها من جرّاء ما ألمّ بها من الظلم والجور.

وعلى أي حال ، فإنّا نعرض إلى صور مؤلمة من الاستبداد السياسي الذي مني به الناس أيّام الحكم الأموي والعبّاسي ، وما عانوه من سفك الدماء ، والاستهانة بأرواح الناس ،، والتي هي من النتائج المباشرة لصرف الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام ، وفيما يلي ذلك :

---

(١) المرتفق : الواقف الثابت.

(٢) مجلّلة : أي شاملة.

(٣) شجاه : أي حزنه.

(٤) تاريخ الطبري : ٥/٥٨٥.

الحكم الأموي

وكان فيما أجمع عليه الرواة أنّ النبيّ ﷺ أذلّ الأمويّين ، ونظر إلى أسلافهم نظرة ريب وشكّ ، لأنهم القوّة الفاعلة في العداء للإسلام ، فهم الذين قادوا الجيوش ، وأشعلوا نار الحرب الناهضة للإسلام ، ولفّ لوائه ، وإطفاء نوره ، وقد نظر النبيّ ﷺ إلى ابن أبي سفيان راكباً ناقة ، ومعاوية يقودها ، ويزيد بن أبي سفيان يسوقها ، فقال ﷺ : **اللّٰهُمَّ الْعَنِ الرّاكِبَ ، وَالْقائِدَ ، وَالسّائِقَ** .

وكان من احتقار النبيّ ﷺ لهم أنّ امرأة خطبها معاوية ، فنهاها النبيّ ﷺ من الزواج منه ، وقال : **لا تَتَزَوَّجي بِهِ ، فَإِنَّهُ صُعْلوكٌ** .

وحذّر المسلمين منه ، فقال : **إذا رَأَيْتُمْ مُعاوِيَةَ عَلىٰ مِنْبَري فَاقْتُلوهُ** .

قال محمّد بن أبي بكر لمعاوية : أنت اللعين ابن اللعين ، لم تزل أنت وأبوك تبغيان الغوائل لدين الله ، وتجهران على إطفاء نور الله تعالى ، وتجمعان على ذلك الجموع ، وتبذلان فيه المال ، وتحالفان فيه القبائل »[١] .

وقد نفى النبيّ ﷺ الحكم من المدينة إلى الطائف ، وظلّ منفيّاً طيلة حياة النبيّ ﷺ وحكم أبي بكر وعمر ، والأمويّون عموماً هم الشجرة الملعونة في القرآن ، وقد بقوا طيلة حياة النبيّ ﷺ قابعين بالذلّ والمهانة ، قد ابتعد المسلمون عنهم ، ولم يختلطوا بهم .

وبعد وفاة النبيّ ﷺ وتقلّد أبي بكر للحكم أقبل أبو سفيان نحو الإمام يطلب منه القيام بالثورة لإرجاع حقّه ، فأعرض عنه ، وزجره لعلمه بخبث سريرته ، وسوء نيّته ،

---

(١) مروج الذهب : ٥٩/٢. جمهرة الرسائل : ٥٤٢/١.

ولم يلبث أن اتّصل بأبي بكر وأحرز منه الثقة ، فعيّن ولده يزيد والياً على الشام ، وخرج خلفه يشيّعه ويزيد راكب وأبو بكر ماشٍ ، ولم يعيّن أبو بكر أحداً من الأوس والخزرج في هذا المنصب المهمّ ، وعيّن هذا الجاهلي الذي لم يفقه شيئاً من معالم الإسلام ، كما عيّن الكثير من الأمويّين في أجهزة الحكم .

ويرى العلّامة العلائلي أنّ الذي فاز في أيّام حكومة أبي بكر هم الأمويّون ، ففي ذلك اليوم علا نجم الأمويّين .

وفي أيّام عمر احتضن الأمويّين وبالغ في تسديدهم وتأييدهم ، فقد توافرت له الأخبار أنّ معاوية يقترف ما حرّم الله تعالى من إثم ، ويتعمّد فعل المنكرات ، ويستعمل أواني الذهب والفضّة يأكل فيها ويشرب منها ، ولا يرى بأساً في المعاملات الربويّة ، فيعتذر عنه وينفي المسؤوليّة عنه ، ويقول فيه ذاك كسرى العرب ، وهل يباح لكسرى العرب أن يقترف ما حرّم الله .

وبلغ من تسديده وتأييده لمعاوية أنّه كان في كلّ سنة يحاسب عمّاله إلّا معاوية ، فقد أعفاه حتّى أحاط نفسه بالثراء العريض ، واشترى الوجوه والأعيان ، حتّى صار قوّة ضاربة .

وعلى أي حال ، فإنّ عمر كان شديد الميل للأمويّين ، ومتعاطفاً معهم إلى حدّ بعيد ، ولمّا اغتاله أبو لؤلؤة فتل حبل الشورى لفرض عثمان بن عفّان حاكماً على المسلمين ، ولمّا تولّى عثمان جهاز الحكم أسند جهاز دولته لبني اُميّة وآل بني معيط ، ووهبهم إمكانيّات الدولة ، وأقطعهم الأراضي ، ووهب فدكاً لمروان وهي التي صادرها أبو بكر من سيّدة نساء العالمين وضمّها لبيت المال ، وصار الأمويّين في عهد عثمان أقوى اُسرة رأسماليّة في العالم الإسلامي ، فقد انحصرت الأموال فيهم .

وأدّت سياسة عثمان الملتوية إلى أن يهبّ خيار المسلمون والقوّات المسلّحة إلى الاجهاز عليه ، ثمّ بايعوا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رائد العدالة في دنيا الإسلام ،

وهبّ الأمويّون لمعارضة الإمام والاطاحة بحكومته ، وعلى رأسهم الذئب الجاهلي معاوية بن أبي سفيان الذي يتسلّح بالكذب والغدر والخيانة ، ولا يؤمن بالقيم الإسلاميّة ، فقاوم الإمام ، وفتح عليه باب الحرب حتّى أطاح بغدره وحيله ومكره حكومة الإمام وولده الإمام الزكيّ الحسن عليه السلام ، وصفا له الملك والسلطان ، ونعرض بإيجاز إلى معاوية ، وننظر في بعض مجازره وجرائمه :

معاوية بن أبي سفيان

كانت حكومة معاوية من أهمّ الأحداث الجسام في تاريخ الإسلام السياسي ، وهذه نماذج من موبقاته :

سفك الدماء

أقام معاوية دولته على أنهار من دماء المسلمين ، فلم يتورّع من إزهاق الأنفس ، فقد سفك دماء آلاف المسلمين في حربه لوصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وباب مدينة علمه ، فقد زجّ بالسذّج والبسطاء من أهل الشام في محاربة الإمام ، وشعاره في المعركة الطلب بدم عثمان ، واتّخذ ذلك ورقة رابحة في حربه للإمام ، وقد ملأ بيوت المسلمين بالثكل والحزن والحِداد .

إنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان بمعزل تامّ عن الثورة على عثمان ، فلم يساهم فيها بقليل ولا بكثير ، وإنّما شاركت فيها بصورة إيجابيّة عائشة ، فهي التي أفتت بمروقه من الدين وقتله ، وقالت : « اقتلوا نعثلاً فقد كفر » ، كما اشترك قادة حزبها في الإجهاز عليه كطلحة والزبير ، إلّا أنّهم لمّا آلت الخلافة إلى إمام المتّقين ، وسيّد الموحّدين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أخذوا يطالبون بدم عثمان للإطاحة بحكومته .

ولاة معاوية

عهد معاوية إلى السفكة والمجرمين بالإمرة والحكم ، وأوصاهم بالإبادة الشاملة لجميع من يتولّى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ومن بين ولاته :

١ ـ زياد بن أبيه

ولّاه معاوية إمارة الكوفة ، فنشر الرعب والخوف والقتل لكلّ من يتولّى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من الكوفيّين .

ويقول الرواة : « إنّه قطع أيدي ثمانين رجلاً منهم وهو جالس في مكانه على باب الجامع الأعظم متقرّباً لسيّده في إراقة دماء شيعة أهل البيت » .

يقول المدائني : « إنّ زياد بن سميّة كان يتتبّع شيعة عليّ في الكوفة ، وهو بهم عارف ، فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر ، وقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشرّدهم ، فلم يبق منهم معروف »[١] .

خطبته البتراء

سمّيت خطبته بالبتراء لأنّه لم يذكر اسم الله تعالى فيها ولا رسوله ، وابتدأها بقوله : « إنّي لأُقسم بالله لآخذن الوليّ بالوليّ ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم بالسقيم حتّى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول له : انج سعد فقد هلك سعيد ، حرامٌ علَيَّ الطعام والشراب حتّى أُسوّيها ـ أي البصرة ـ بالأرض هدماً وإحراقاً ، إيّاي ودلج الليل ، فإنّي لا أُوتى بمدلج إلّا سفكت دمه ، وايم الله إنّ لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كلّ امرئ منكم

---

(١) راجع : تاريخ الطبري : ١٦٧/٤ . شرح النهج / ابن أبي الحديد : ٢٠٣/١٦ ، وغيرهما ففيها تفصيل لجرائم هذا الارهابي وما اقترفه من آثام .

أن يكون من صرعاي »[١].

وراح هذا الارهابي يقتل على الظنّة والتهمة ، ويهدم الدور ، وينهب الأموال ، ويزهق الأرواح ، تقرّباً لأخيه اللّاشرعي معاوية .

٢ - بسر بن أرطاة

ومن كلاب معاوية السفّاح بسر بن أرطاة ، بعثه معاوية إلى اليمن وأمره أن يقتل كلّ من يتولّى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ولا يدع أي شخص عنده ميول لأهل البيت عليهم السلام ، ونفّذ بسر أوامر سيّده معاوية ، فغار على اليمن وقتل خلقاً كثيراً ، ولم ينجو منه الطفل الصغير ، ولا الشيخ الكبير ، ومن دناءته التي تترفّع عنها الوحوش أنّه عمد إلى ذبح طفلين لعبيدالله بن العبّاس الذي كان والياً على اليمن ، ولمّا انتهى خبرهما إلى أُمّهما ضاقت بها الدنيا ، وقد رثتهما بذوب روحها بهذه الأبيات :

يا مَنْ أَحَسَّ بِابْنَيَّ اللَّذَينِ هُما ... كَالدُّرَّتَينِ تَشَظّى عَنهُما الصَّدَفُ

يا مَنْ أَحَسَّ بِابْنَيَّ اللَّذَينِ هُما ... مُخُّ العِظامِ فَمُخّي اليَومَ مُزْدهَفُ

يا مَنْ أَحَسَّ بِابْنَيَّ اللَّذَينِ هُما ... قَلْبي وَسَمْعي ، فَقَلْبي اليوَمَ مُخْتَطَفُ

مَنْ دلَّ والِهَةً حَرّىٰ مُوَلَّهةً ... عَلىٰ صَبِيَّيْنِ ضَلّا إذْ مَضى السَّلَفُ

نُبِّئْتُ بُسراً وَما صَدَّقتُ ما زَعَموا ... مِنْ الْإفْكِ وَمِنْ قَوْلِهِمْ الَّذي اقْتَرَفوا

أَنْحىٰ عَلىٰ وَدَجَيْ إبْنَيَّ مُرْهَفَةً ... مَشْحوذَةً وَكَذاكَ الإثْمُ يُقْتَرَفُ[٢]

وكان هذا المجرم يروي لسيّده معاوية فتكه بالشيوخ والأطفال ، وممّا رواه له

---

(١) الكامل في التاريخ : ٣/٤٤٧ ـ ٤٥٠ ، وما هنا مقتطفات منها .

(٢) شرح نهج البلاغة : ٢/١٣ .

أنّه قتل في غزوة واحدة ثلاثين ألفاً، وحرق مثلهم في النار، وإلى هذه المذابح يشير يزيد بن المفرّغ بقوله :

إِلىٰ حَيثُ سارَ المَرءُ بُسرٌ بِجَيشِهِ فَـقَتَّلَ بُسـرٌ ما اسْتَطاعَ وَحَـرَّقا (١)

وزحف هذا الوحش إلى المدينة لاحتلالها، فخطب فيها قائلاً : « يا أهل المدينة، لولا ما عهد إليّ معاوية ما تركت بها محتلماً »(٢). وأوقع بها القتل والدمار.

٣ ـ سفيان بن عوف

ومن كلاب معاوية سفيان بن عوف أرسله معاوية لغزو هيت والأنبار، وقد أوقع بنفوس أهليهما قتلاً فظيعاً، ونهب أموالهم، واقترف جميع صور الإثم والمنكر متقرّباً لمعاوية ليجازيه على جرائمه.

وعلى أي حال، فقد أسرف معاوية وجلّادوه في قتل المسلمين، وإبادة الأخيار والصالحين، ممّن يؤمنون بأهل البيت عليهم السلام، حتّى بلغ الحال أنّ الرجل ليقال له زنديق وكافر أحبّ من أن يقال له من أنصار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٤ ـ عتبة بن أبي سفيان

من كلاب معاوية وجلّاديه عتبة بن أبي سفيان، ولّاه معاوية على مصر، وكان جبّاراً سفّاكاً للدماء، وخاطب المصريّين قائلاً : « يا حاملي ألأم أنوف ركبت بين أعين، إنّما قلّمت أظفاري عنكم ليلين مسّي إيّاكم، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم راجعاً عليكم ».

---

(١) الغارات : ٢/٦٤٠.

(٢) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ١/٥٤٥.

وأضاف يقول مهدّداً : « فوالله لأقطعنّ بطون السياط على ظهوركم ، فإن حسمت مستشري دائكم ، وإلّا فالسيف من ورائكم ، فكم من عظة لنا قد صمّت عنها آذانكم ، وزجرة منّا قد مجّتها قلوبكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية »[١].

أرأيتم هذا الاستهتار بكرامة الناس ، والاستهانة بأرواحهم ، وهو سمت بارز لسياسة معاوية وولاته .

وخاطب عتبة المصريّين بقوله : « يا أهل مصر ، إيّاكم أن تكونوا للسيف حصيداً ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أُنس الحقّ بإحياء الفتن ، وإماتة السنن ، فأطأكم والله وطأة لا رمق معها حتّى تنكروا ما كنتم تعرفون »[٢].

حكت هذه الكلمات طيشه وجبروته وتمرّده على القيم والأعراف الاجتماعيّة ، وحقده البالغ على المسلمين .

محق الإسلام

وكان البارز في سياسة معاوية محق الإسلام ، وتعطيل حدوده ، وإقصاء أحكامه .

يقول شاعر الإسلام الأكبر الكميت :

وَعُطِّلَتِ الأَحْكامُ حَتّىٰ كَأَنّنا ... عَلى مِلَّةٍ غَيرِ الَّتي نَتَنَحَّلُ

أَأَهْلُ كِتابٍ نَحنُ فيهِ وَأَنتُمُ ... عَلى الحَقِّ نَقْضي بِالكِتابِ وَنَعدِلُ

لقد استخفّ معاوية كسرى العرب بجميع أحكام الإسلام ، فأباح الربا ، وتطيّب في الإحرام ، وأكل في أواني الذهب ، وصلّى بالناس صلاة الجمعة يوم الأربعاء ،

---

(١) نهاية الأرب : ٦/٧. العقد الفريد : ٢/١٥٩. صبحى الأعشى : ١/٢٥٩.

(٢) العقد الفريد : ٤/١٣٧.

وعطّل الحدود[١].

وأظهر حقده على النبيّ صلى الله عليه وآله، وضاق ذرعاً من الأذان لأنّه يذكر فيه اسم رسول الله صلى الله عليه وآله[٢]، واستخفّ بمدينة النبيّ صلى الله عليه وآله، فقيل له: لو سكنت المدينة التي هي دار الهجرة وبها قبر النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿ **ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْـمُهْتَدِينَ** ﴾[٣]، وسمّاها الأمويّون خبيثة، وقد سمّاها النبيّ صلى الله عليه وآله طيبة[٤].

سبّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

من موبقات معاوية وجرائمه أنّه اتّخذ سبّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام سيّد العترة النبويّة وسيلة لدعم ملكه وسلطانه، فقد أوعز إلى جميع أجهزته بسبّه وانتقاصه، وجعل ذلك جزءً من العقيدة الإسلاميّة، وقد طلب منه بعض أصحابه أن يكفّ عن ذلك، فنهره وقال: «لا والله، حتّى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً»[٥].

ولمّا عهد بولاية الكوفة إلى المغيرة أوصاه بأُمور كان من أهمّها أن لا يتهاون في سبّ الإمام، وسار المغيرة على منهج سيّده، فلم يدع ذمّ الإمام والوقوع فيه[٦].

وكتب إلى عمّاله وولاته نسخة واحدة بعد عام الجماعة: «أن برئت الذمّة من روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته»، فقامت الخطباء في كلّ كورة وعلى

---

(١) العقد الفريد: ٦/٧.

(٢) شرح النهج / ابن أبي الحديد: ٥/١٣٠.

(٣) الأنعام ٦: ٥٦.

(٤) المناقب والمثالب: ٢٢٩.

(٥) شرح النهج / ابن أبي الحديد: ٤/١٠٧.

(٦) شرح النهج / ابن أبي الحديد: ٤/٦٩.

كلّ منبر يلعنون عليّاً وأهل بيته ويتبرّأون منه[١].

واستشفّ الإمام عليه السلام أنّ معاوية سيفرض على المسلمين سبّه، فقال: «**أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ[٢]، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لاَ يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ! أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي؛ فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ؛ وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلَا تَتَبَرَّأُوا مِنِّي؛ فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ**»[٣].

واستمر معاوية وخلفاؤه يلعنون إمام المتّقين وسيّد الوصيّين على المنابر في صلاة الجمعة، وفي سائر المناسبات الدينيّة من الأعياد وغيرها، حتّى كان عهد عمر بن عبدالعزيز الذي أدرك بوعيه فشل هذه الخطّة، وأنّها تجرّ إلى أُسرته الكثير من المضاعفات السيّئة، فألغى رسميّاً سبّ الإمام.

وعلى أي حال، فقد عاد السبّ إلى معاوية وبني أُميّة وسما الإمام إلى أقصى مراتب الشرف والكمال، فها هو رمز الإنسانيّه الكاملة، وعنوان مشرق للإسلام وتجسيد لطاقاته.

يقول السماوي:

وَهـذا عَـلِيٌّ وَالأَهـازيجُ بِـاسْمِهِ ... تَشُقُّ الفَضا النّائي فَهاتوا مُعاوِيا

أَعيدوا ابْنَ هِندٍ إِنْ وَجَدتُمْ رُفاتَهُ ... رُفـاتاً وَإِلّا فَـانْشُروها مَـخازِيا

لقد عاد الأمويّون لصوص المجتمع وخونة الأُمّة، وعنوان لكلّ إثم وفساد.

---

(١) شرح النهج / ابن أبي الحديد: ٤/٥٤.

(٢) **مندحق البطن**: أي عظيم البطن.

(٣) شرح النهج / ابن أبي الحديد: ١١/٤٤.

وضع الأحاديث

من المحن الشاقّة التي امتحن بها المسلمون امتحاناً عسيراً هي الأخبار الموضوعة التي افتعلت بايعاز من معاوية ، وقد آمن بها شريحة من المسلمين على أنّها جزء من عقيدتهم الدينيّة ، فقد دوّنت في الصحاح ، وأشاعها الوعّاظ ورجال الدين .

ومن المؤكّد أنّهم لو علموا وضعها لما دان بعض المسلمين بها ، وما سجّلها علماء الحديث ، وأنّ كوكبة من هذه الأحاديث التي نسبت إلى الرسول صلى الله عليه وآله تتنافى مع قدسيّة الرسول صلى الله عليه وآله كما يتنافى بعضها مع الواقع الإسلامي .

وعلى أي حال ، فقد شكّل معاوية لجاناً لوضع الحديث ، كان منهم :

١ - أبو هريرة الدوسي .

٢ - سمرة بن جندب .

٣ - عمرو بن العاص .

٤ - المغيرة بن شعبة .

وقد تسابق بعض وعّاظ السلاطين إلى افتعال الأحاديث تقرّباً لمعاوية ، ذكرت أسماؤهم في أسانيد الأحاديث الموضوعة ، وهي ذات ألوان مختلفة وصور متعدّدة حسب ما خطّط لها ، وهذه بعضها :

الطائفة الأولى : في فضل الصحابة

وقد وضعت في فضل الصحابة أجمعين أكتعين عدّة روايات منها :

١ - « إذا أراد الله تعالى برجل من اُمّتي خيراً حبّ أصحابي في قلبه »[١] .

---

(١) الصواعق المحرقة : ٥.

٢ ـ «الله الله في أصحابي، لا تتّخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبّهم فبحبّي أحبّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى، ومن آذى الله تعالى يوشك أن يأخذه»[١].

٣ ـ «مثل أصحابي مثل الملح في الطعام، لا يصلح الطعام إلّا بالملح»[٢].

٤ ـ «لا تمسّ النار مسلماً رآني أو رأى من رآني»[٣].

وكثير من أمثال هذه الأحاديث الموضوعة وردت في فضل الصحابة، وهي شاملة بإطلاقها للمنافقين الذين كانوا يبغون للإسلام الغوائل لمحوه وإزالته، أمثال: زعيم بني أُميّة أبي سفيان وابنه معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والحكم، وغيرهم من الضالّين الذين لا يملكون في أعماق نفوسهم من نور الإسلام وهديه شيئاً.

الطائفة الثانية: في فضل الشيخين

من الروايات الموضوعة ما ورد في فضل الشيخين أبو بكر وعمر، وهذه بعضها:

١ ـ «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»[٤].

٢ ـ روى الصحابي عمرو بن العاص، قال: «سألت النبيّ ﷺ: أيّ الناس أحبّ إليك؟

قال: عائشة.

قلت: من الرجال؟

قال: أبوها.

(١ ـ ٣) الصواعق المحرقة: ٥.

(٤) فقه عمر: ١/٦٠.

قلت : ثمّ مَن ؟ قال عمر : فعدّ رجالاً »[١] .

وكثير من أمثال هذه الروايات نصّت على فضل الشيخين ، وسموّ مكانتهما ، وأنّهما أفضل المسلمين ، وأمارة الوضع شاهدة على افتعالها ، ولا نصيب لها من الصحّة ؛ لأنّهما ـ لا للغضّ من شأنهما ـ وإنّما لم تكن لهما أيّة خدمة أوديت للإسلام في زمان النبيّ صلى الله عليه وآله ، والتاريخ شاهد وحاكم على ذلك ، ولو كانت لهما المنزلة المرموقة عند النبيّ صلى الله عليه وآله لما أمّر عليهما أُسامة ، وهو شابّ في مقتبل العمر .

الطائفة الثالثة : في فضل أبي بكر

وهذه بعض الأخبار التي زعم أنّها وردت في أبي بكر خاصّة :

١ ـ « لو وضع إيمان أبي بكر في كفّة وإيمان الأُمّة في كفّة ، لرجحت كفّة أبي بكر »[٢] .

٢ ـ « لو كنت متّخذاً خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلاً ، ولكنّه أخي وصاحبي ، ولقد اتّخذ الله تعالى صاحبكم خليلاً »[٣] .

ومعنى هذا الحديث أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يتّخذ أحداً خليفة ، وأنّه لو أراد أن يتّخذ خليلاً لاتّخذ أبا بكر ، وأنّ الله تعالى اتّخذه خليلاً له .

الطائفة الرابعة في فضل عمر خاصّة

ووضعت أحاديث كثيرة في فضل عمر ، كان منها :

---

(١) صحيح مسلم : ٥/٢٤٧ .

(٢) يقول صاحب كتاب (أزمة الخلافة والإمامة) أسعد وحيد القاسم : « هو من أكثر ما اشتهر عند أهل السنّة شأن فضائل أبي بكر ، ولكنّنا لم نتهدِ إلى مصدره » .

(٣) صحيح مسلم : ٥/٢٤٥ .

١ - «لو كان بعدي نبيّ لكان عمر»[١].

٢ - «لو لم أُبعث فيكم لبُعث عمر»[٢].

٣ - «ما أبطأ عنّي جبرئيل إلّا خشيت أنّه ذهب إلى عمر»[٣].

٤ - «إنّ الله جعل الحقّ على لسان عمر وقلبه»[٤].

٥ - «كان في الأُمم قبلكم محدّثون، فإن يكن في أُمّتي منهم، فإنّه عمر»[٥].

وقد اتّسعت دائرة وضع الأحاديث في ذكر فضائل عمر، وميّز بعضها على جميع الخلق.

الطائفة الخامسة: في فضل عثمان

ووضعت الأحاديث الكثيرة في فضل عثمان بن عفّان، ونقتصر على هذا الحديث في فضله: «إنّ الملائكة لتستحي من عثمان». ولا نعلم وجهاً لحياء الملائكة من عثمان، فهل يقترف إثماً فتستحي الملائكة منه أو بالعكس.

الطائفة السادسة: في فضل معاوية

وافتعل الوضّاعون أحاديثاً كثيرة في هذا الذئب الجاهلي، منها:

١ - «معاوية بن أبي سفيان أعلم أُمّتي وأجودها»[٦].

٢ - «صاحب سرّي معاوية بن أبي سفيان»[٧].

(١ - ٣) فقه عمر: ١/٥٧.

(٤) المصدر المتقدّم: ٥٦.

(٥) صحيح مسلم: ٥/٢٥٨.

(٦) شرح النهج / ابن أبي الحديد: ٤/٦٤.

(٧) البداية والنهاية: ٨/١٢١. تاريخ مدينة دمشق: ٥٩/٨٨.

٣ ـ « اللّهمّ علّمه الكتاب ، وقه العذاب ، وأخلده في الجنّة »[(١)].

٤ ـ « إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقبلوه ، فإنّه أمين هذه الأُمّة »[(٢)].

إلى غير ذلك من الأخبار المزيّفة التي أشادت بمعاوية دعماً لملكه ورغباته النفسيّة في محق الإسلام .

الطائفة السابعة : في الحطّ من قدسيّة النبيّ صلى الله عليه وآله

من الأخبار المزيّفة التي افتعلت للحطّ من قدسيّة النبيّ صلى الله عليه وآله ما رواه أنس بن سيرين ، قال : « لقينا أنس بن مالك حين قدم الشام ، رأيته يصلّي على حمار ووجهه إلى يسار القبلة ، فقلت له : رأيتك تصلّي إلى غير القبلة ؟ !

قال : لولا أنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يفعله لم أفعله »[(٣)].

وروت عائشة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله مكث كذا وكذا يخيّل إليه أنّه يأتي أهله ، ولم يأت أهله ، فقال ذات يوم : يا عائشة ، أتاني رجلان أحدهما عند رجلي ، والآخر عند رأسي ، فقال الذي عند رجلي للذي عند رأسي : ما بال الرجل ؟

قال : مطبوب ـ يعني مضطرب الفكر ـ .

قال : ومن طبه ؟

قال : لبيد بن عاصم » .

ومن الروايات المنافية لكرامة النبيّ صلى الله عليه وآله وقدسيّته ما رواه أبو هريرة : « أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : أنا خير من يونس بن متي ، فإنّه كذب » .

ومن مفتعلات أبي هريرة : « أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له

---

(١) و (٢) تطهير الجنان : ٢٢٦.

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١/٣٥٩.

ضراط حتّى لا يسمع الأذان ، فإذا انقضى أقبل »[١].

ومن موضوعات أبي هريرة ، قال : « أُقيمت الصلاة ، وعدّلت الصفوف قياماً ، فخرج إلينا رسول الله ﷺ ، فلمّا قام من مصلّاه ذكر أنّه جنب ، فقال لنا : مكانكم.

ثمّ رجع فاغتسل ، ثمّ خرج إلينا ورأسه يقطر ، فصلّينا معه »[٢].

وكثير من أمثال هذه الأحاديث افتعلت للحطّ من شأن النبيّ ﷺ .

الطائفة الثامنة : في الحطّ من كرامة الإمام عليه السلام

من الأخبار التي وضعت للحطّ من قيمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ما رواه أبو هريرة لأهل العراق في الكوفة ، فقد قال لهم : « يا أهل العراق ، أتزعمون أنّي أكذب على رسول الله ﷺ ، وأُحرق نفسي بالنار ؟ لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ لكلّ نبيّ حرماً ، وإنّ حرمي بالمدينة ما بين عير إلى ثور ، فمن أحدث فيهما حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وأشهد بالله تعالى أنّ عليّاً أحدث فيهما ».

ولمّا بلغ معاوية أكرمه وولّاه إمارة المدينة[٣].

وكثير من هذه الموضوعات التي رواها أبو هريرة وأمثاله من خدّام معاوية رويت للحطّ من كرامة إمام المتّقين وسيّد المسلمين.

التاسعة : الحطّ من كرامة الأنبياء عليهم السلام

من المفتريات التي افتعلت للحطّ من كرامة الأنبياء ما رواه أبو هريرة : « أنّ النبيّ ﷺ قال : قال سليمان بن داود لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة بكر يأتين

---

(١) صحيح البخاري : ١/٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الغسل : ١/١٦٨.

(٣) صحيح مسلم ـ صلاة المسافر : ٣/٣٥٣.

بفرسان يقاتلون في سبيل الله تعالى .

فقال له صاحبه : قل إن شاء الله تعالى ، فلم يقل ذلك ، فطاف عليهنّ جميعاً ، فلم تحمل منهنّ إلّا امرأة واحدة ، فجاءت بشقّ رجل . وأيم الله الذي نفس محمّد بيده ، لو قال : إن شاء الله لحملت كلّ واحدة منهنّ بغلام يجاهد في سبيل الله تعالى »[١] .

العاشرة : الحطّ من قداسة الله

من الأخبار الموضوعة التي افتعلت لتشويه الخالق العظيم ما رواه أبو هريرة : « يقال لجهنّم هل امتلأت ، فتقول : هل من مزيد ، فيضع الربّ تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول : قط قط ـ اكتفيت ـ »[٢] .

ومن الموضوعات : « أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : خلق الله آدم على صورته ، طوله ستّون ذراعاً »[٣] .

هذه بعض الأخبار التي افتعلتها اللجان التي أقامها معاوية ، وهي بعض مثالبه وموبقاته التي باعدت بينه وبين الله ، ولم نعرض للتعليق عليها نظراً لوضاعتها .

وقد عرضنا بصورة شاملة لموبقاته وجرائمه في كتابنا (حياة الإمام الحسن عليه السلام) و (حياة الإمام الحسين عليه السلام) وإعادتها لا يخلو من سأم وملل .

يزيد بن معاوية

شبيه أبيه في إجرامه ، ووريث جدّه أبي سفيان في موبقاته ، أسند إليه أبوه معاوية الملك وسلّطه على رقاب المسلمين يمعن في إذلالهم وإرغامهم على الذلّ

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان : ١٩٩/٤ .

(٢) صحيح البخاري : ٤٨/٦ .

(٣) صحيح البخاري : ١٦٠/٨ .

والعبوديّة ، وكان فيما أجمع عليه المؤرّخون قد خلد إلى اللهو والمجون وشرب الخمور ، وقد اقترف أفظع الجرائم والموبقات ، وكان من أقساها :

١ ـ إبادة العترة الطاهرة

سلك يزيد مسلك أبيه معاوية في العداء لآل البيت والنقمة عليهم ، والتنكّر للإسلام ، وكان أهمّ ما عنى به أخذه لثأر أُسرته الذين حصدتهم سيوف الإسلام ، وحينما آل إليه الملك المغتصب وجّه مكره وانتقامه نحو حفيد الرسول ﷺ الإمام الحسين عليه‌السلام ، فطلب منه البيعة على يد عامله على المدينة ، فرفض الإمام رسميّاً بيعة هذا الفاسق الفاجر الذي لم يدع جريمة ولا منكراً إلّا اقترفه ، فاستهان الإمام به ، لأنّ طبيعة الإمام مجافية للظلم والبغي والجور والفساد أُسوة بجدّه وأبيه .

وأعلن الإمام عليه‌السلام ثورته الكبرى التي أعزّ الله تعالى بها الإسلام ، وجعلها عبرة لأُولي الألباب ، وأذلّ بها الطغاة والجبّارين ، وليس في دنيا الإسلام وغيره ثورة رفعت راية العدل والحقّ ، وكتب لها الخلود على امتداد التاريخ غير ثورة أبي الأحرار وسيّد الشهداء .

تدول الدول ، وتفنى الحضارات أو تدوم وثورة أبي الشهداء وفخر الإسلام الإمام الحسين عليه‌السلام أحقّ بالبقاء ، وأجدر بالخلود من كلّ كائن حيّ .

فقد أمدّت الأحرار بمقاومة الظلم ومناجزة الباطل ، فلم تمض إلّا سنين يسيرة وإذا بالرايات تخفق ، والمجاهدون يهتفون بسقوط الحكم الأموي ، فكانت ثورة التوّابين ، وثورة المختار ، ثمّ تعاقبت الثورات حتّى أطاحت بالحكم الأموي ، وقضت على معالم زهوه .

وعلى أي حال ، فقد عمد الجيش الأموي في كربلاء بوحشيّة قاسية إلى إبادة العترة الطاهرة التي حملت مشاعل النور لأُمم العالم وشعوب الأرض ، ونادت بفجر جديد يدمّر الطغاة واللصوص ، وينعم الفقراء فيه والمحرومون .

لقد أحاطت بسيّد شباب أهل الجنّة موجات رهيبة من المحن والخطوب لم تجر على أي مصلح في الأرض ، وقد قابلها الإمام العظيم بالصبر المذهل ، والرضا بما قسم الله تعالى ، فلم ينهار ، ولم يجزع أمام تلك الرزايا التي تعصف بالصبر ، وتميد من هولها الجبال ، وبقي صامداً حتّى استشهد دفاعاً عن دين الله تعالى ، ووفاء لمبادئه وقيمه التي هي من صميم الإسلام.

لقد عمد الوغد الدنس يزيد إلى إبادة عترة رسول الله صلى الله عليه وآله إرضاءً لجاهليّته ، وتوطيداً لعرشه الذي لم يلبث أن تحوّل إلى ركام تلاحقه اللعنة والخزي.

٢ ـ واقعة الحرّة

ثمّة جريمة أُخرى من جرائم يزيد بن معاوية لا تقلّ في فظاعتها عن مأساة كربلاء ، وهي واقعة الحرّة ، فقد ثار المدنيّون على يزيد بعد أن رأوا فسقه وفجوره ، وإبادته لعترة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأعلنوا رفض بيعته وطردوا حاكم المدينة ، وتولّوا القيام بإدارة شؤونها ، ولمّا انتهت أنباؤهم إلى يزيد عهد إلى المجرم الممسوخ مسلم بن عقبة ، وسمّاه المسلمون بمسرف ، أن يحتل المدينة ويبيحها لجنده ثلاثة أيّام ، وينشر القتل في الأنصار ، ويشيع الخوف بين المدنيّين ولا يستثني أحداً منهم ، ويأخذ البيعة منهم ليزيد على أن يكون عبيداً له يعرضهم في الأسواق للبيع ، وكان عدد جيشه اثني عشر ألفاً.

وزحف القائد المجرم بالجيش إلى المدينة ، وعجز عن الوصول إليها ، إلّا أنّ مروان بن الحكم أعانه على فتحها ، وأرشده إلى الطريق الذي يلج فيه ، وفعلاً تمّ ذلك ودخل الجيش مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وراح يحصد الرؤوس من غير فرق بين الطفل والكبير ، ونهب الجيش الأموال ، وعاث فساداً في أعراض المسلمين[1] ،

(١) تاريخ الإسلام / الذهبي : ٢/٢٥٢. الكامل في التاريخ : ٣/٤٧. تاريخ الخلفاء : ٢٠٩.

وأخذ البيعة من أهلها على أنّهم خول ليزيد يفعل في أموالهم وذراريهم ما يشاء ، ومن أبى ضُربت عنقه(١).

وجرت في المدينة ألوان من الرزايا تذوب منها النفوس ، وهذه الواقعة شبيهة بكارثة كربلاء ، فلم يرع هذا الخبيث حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله في عاصمته.

صور اُخرى من جرائم الأمويّين

وهذه صور اُخرى من جرائم الأمويّين وفضائحهم التي ابتلي بها المسلمون وامتحنوا امتحاناً عسيراً ، وهي ناجمة من دون شكّ من مؤتمر السقيفة والشورى التي عمد بعض أعضائها إلى إقصاء أهل البيت عن مركز الحكم ذاهباً إلى أنّه لا تجتمع النبوّة والخلافة في بيت واحد ، وأنّ ذلك يبدو واضحاً بأدنى تأمّل في وثائق التاريخ ، بالنظر إلى بنوده بعمق.

وعلى أي حال ، فهذه صور وألوان من السياسة الأمويّة التي عانى منها المسلمون أشقّ ألوان المحن والخطوب ، وهي :

سرقة أموال المسلمين

أمّا الظاهرة البارزة في سياسة الأمويّين فهي نهب أموال الناس ، فقد عمد ولاتهم إلى اصطفاء أقوات الناس حتّى أنّهم لم يتركوا أحداً عنده مال إلّا اختلسوه ، ولنستمع إلى عقبة بن هبيرة الأسدي وهو يحدّثنا بشعره عن نهب أموال الرعيّة بقوله مخاطباً معاوية :

مُعاوِيَ إنَّنا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ(٢) فَلَسْنا بِالجِبالِ وَلَا الحَديدِ

---

(١) تاريخ الطبري : ٥/١٠٧. الأخبار الطوال : ٦٥.

(٢) السجح : السهولة واللين.

فَـهَبْنا أُمَّـةً ذَهَـبَتْ ضِياعاً   يَـزيدُ أَمـيرُها وَأَبـو يَـزيدِ

أَكَـلْتُمْ أَرضَـنا فَـجرَدْتُموها   فَهَلْ مِنْ قائِمٍ أَوْ مِنْ حَصيدِ

ذَروا جَورَ الخِلافَةِ وَاسْتَقيموا   وَتَـأميرُ الأَراذِلِ وَالعَـبيدِ[1]

أرأيتم ما عاناه المسلمون من الظلم والفقر والحرمان ، وذهب الأرض بأيدي الأمويّين ينفقونه على قصورهم وشهواتهم .

وكان من مظالم هذه السياسة السوداء أنّ والي مصر شكا إلى عاهل الشام سليمان بن عبدالملك ما يعانيه المصريّون من ثقل الضرائب قائلاً له :

« يا أمير المؤمنين ، إنّي ما جئتك حتّى أنهكت الرعيّة وجهدت ، فإن رأيت أن ترفق بها وتخفّف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها ، فافعل ، فإنّه يستدرك ذلك في العام المقبل » .

وهذا منطق العدل والحقّ ، ولكنّ الطاغية لم يع ذلك ، وأجابه بما انطوت عليه نفسه الشريرة قائلاً : « هبلتك أُمّك ، احلب الدرّ ، فإذا انقطع فاحلب الدم والنجا »[2] .

وهل هناك أفحش وأقسى من هذا الظلم ، فقد حكم على الشعب المصري بالموت والدمار ، وكان من ظلم ولاتهم أنّ عبيدالله بن الحبحاب صاحب الخراج على مصر أراد أن يتقرّب إلى هشام بن عبدالملك فكتب إليه : أنّ أرض مصر تحتمل الزيادة ، فأمره أن يزيد في كلّ دينار قيراطاً[3] .

وقد صوّر النمري الشاعر الكبير الحالة الاجتماعيّة بقصيدته التي ألقاها على عبدالملك بن مروان . يقول النمري :

---

(١) خزانة الأدب : ٥/٢٢٥.

(٢) الوزراء والملوك : ٢٥١.

(٣) تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام : ٤٢.

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمنِ إِنّا مَعْشَرٌ ... حُنَفاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصيلا
إِنَّ السُّعاةَ عَصَوكَ يَومَ أَمَرْتَهُمْ ... وَأَتوا دَواهِيَ لو عَلِمتَ وَغُولا [١]
أَخَذوا العَرِيفَ فَقَطَّعوا حَيزُومَهُ ... بِالأَصْبَحِيَّةِ قائِماً مَغْلولا [٢]
حَتّى إِذا لَمْ يَتْرُكوا لِعِظامِهِ ... لَحْماً وَلا لِفُؤادِهِ مَعْقُولا [٣]
جاؤوا بِصَكِّهِمُ وَأَحْدَبَ أَسْأَرَتْ ... مِنْهُ السِّياطُ يَراعَةً إِجْفيلا [٤]
أَخَذُوا حُمُولَتَهُ فَأَصْبَحَ قاعِداً ... لا يَسْتَطِيعُ عَنِ الدِّيارِ حَوِيلا
يَدْعُو أَمِيرَ الْمُؤمنينَ وَدُونَهُ ... خِرْقٌ تَجُرُّ بِهِ الرِّياحُ ذُيُولا [٥]
كَهُداهِدٍ كَسَرَ الرُّماةُ جَناحَهُ ... يَدعو بِقارِعَةِ الطَّريقِ هَدِيلا
أَخَلِيفَةَ الرَّحْمنِ إِنَّ عَشِيرَتي ... أَمسى سَوامُهُمُ عُرِينَ فُلولا [٦]
قَومٌ عَلَى الإِسلامِ لَمّا يَتْرُكوا ... ما عونَهُمْ وَيُضَيِّعوا التَّهْليلا [٧]
قَطَعوا اليَمامَةَ يُطْرَدون كَأَنَّهُمْ ... قَوْمٌ أَصابوا ظالِمينَ قَتِيلا
شَهْرَي رَبِيعٍ ما تَذُوقُ لُبُونَهُمْ ... إِلّا حُمُوضاً وَخْمَةً وَذَبِيلا [٨]

---

(١) **الدواهي** : المكر والاحتيال . **الغلول** : الهلكة .

(٢) **الأصبحيّة** : جمع أصبح السياط ، كما أنّ الحيزوم وسط الظهر .

(٣) **المعقول** : الإدراك .

(٤) **الصّك** : كتاب البيعة . **أسأرت** : أي بقيت في الإناء بقيّة . **يراعة** : قصبة ، شبّه بها قلب العرين في ضعفه . **الإجفيل** : الخائف .

(٥) **الخرق** : الجماعات .

(٦) **عُرين** : الجماعات .

(٧) **الماعون** : الزكاة .

(٨) **الحموض** : المرّ المالح من النبات . **ذبيل** : اليابس .

وَأَتــاهُمُ يَــحيىٰ فَشَــدَّ عَـلَيهِمُ ... عَــقداً يَـراهُ المُسْـلِمُونَ ثَـقيلا[١]

كُـتُباً تَـرَكْـنَ غَـنِيَّهُمْ ذا عَـيلَةٍ ... بَـعْدَ الْـغِنىٰ وَفَـقيرَهُم مَـهْزولا

فَـتَرَكْتُ قَوْمي يَـقْسِمُونَ أُمورَهُمْ ... إِلَيْكَ أَمْ يَــتَرَبَّصُونَ قَـليلا[٢]

وصوّر هذا الشعر الجور الهائل والظلم الفظيع الذي منيت به أُسرة هذا الشاعر من ولاة الأمويّين الذين لم يعرفوا الرحمة والرأفة، ومن المؤكّد أنّ سيرتهم مع الناس تحكي سياستهم الملتوية التي طبعت على الجور والطغيان.

واستمرّ الظلم والجور حتّى في أيّام عمر بن عبدالعزيز. يقول له كعب الأشعري:

إِنْ كُنتَ تَحفَظُ ما يَليكَ فَإِنَّما ... عُمّالُ أَرضِكَ بِـالبِلادِ ذِئـابُ

لَنْ يَسْتَجيبوا لِلَّذي تَدْعو لَـهُ ... حَتّىٰ تُجلَّدَ بِـالسُّيوفِ رِقـابُ

بِأَكُفِّ مُنْصَلِتينَ أَهـلِ بَـصائِرٍ ... في وَقْعِهِنَّ مَزاجِرٌ وَعِقابُ[٣]

وكان عمر يخطب فقطع رجل خطابه وقال:

إِنَّ الَّـذينَ بَـعَثتَ فـي أَقْـطارِها ... نَبَذوا كِتابَكَ وَاسْتُحِلَّ الْـمَحْرَمُ

طِلسُ الثِّيابِ عَلىٰ منابِرِ أَرْضِـنا ... كُـلٌّ يَـجورُ وَكُلُّهُمْ يَـتَظَلَّمُ[٤]

وَأَرَدْتَ أَنْ يَـلِيَ الأَمـانَةُ مِـنْهُمُ ... عَدْلٌ وَهَيهاتَ الأَمينُ المُسْلِمُ[٥]

لقد انتشر الظلم، وعمّ الجور، وخيّم على الناس الفقر الذي ينهش في عظامهم.

---

(١) **يحيى**: هو أحد السعاة الظالمين.

(٢) طبقات فحول الشعراء: ٤٣٩ ـ ٤٤١. جمهرة أشعار العرب: ٣٣٢.

(٣) البيان والتبيين: ٣/٣٥٨.

(٤) **طلس الثياب**: هي الثياب الوسخة.

(٥) البيان والتبيان: ٣/٣٥٩.

يقول فان فلوتن : « وبدل أن يتّخذ ـ أي خلفاء الأمويّين ـ التدابير لمحاسبة الولاة ومنعهم من الظلم نجدهم يقاسمونهم في فوائدهم من الأموال التي جمعوها بتلك الطرق المفضوحة ، وهذا معناه رضى الخلفاء بسوء تصرّف العمّال مع أهل البلاد بالإضافة إلى أنّه دليل على أنّ بعضهم كان يهمّه مصالح الخزينة المركزيّة بالدرجة الأولى »[١].

ومهما يكن الأمر ، فإنّ الحياة الاقتصاديّة كانت سيّئة للغاية ، فقد شاع البؤس والحرمان في حين أنّ الأمويّين وعملاءهم كانوا يرزحون في النعم وفي خيرات البلاد .

الضرائب الثقيلة

وفرض الأمويّون على الناس ضرائباً إضافيّة أثقلت الناس وحوّلت الحياة إلى بؤس وشقاء ، ومن بين هذه الضرائب :

١ ـ الرسوم على الصناعات والحرف[٢].

٢ ـ الرسوم على الزواج وعلى من يكتب عرضاً[٣].

٣ ـ الرسوم على أجور البيوت[٤].

٤ ـ الضريبة على من أسلم[٥]، والسبب في ذلك شلّ الحركة الإسلاميّة ومنع انتشار الإسلام .

---

(١) السيادة العربيّة : ٢٨.

(٢) تاريخ الحركات في الإسلام : ٤٢.

(٣) تاريخ الطبري : ٨/١٢٩.

(٤) الوزراء والكتّاب : ٢٤.

(٥) التمدّن الإسلامي : ٢/٢١.

٥ ـ ضريبة النيروز ، وأوّل من سنّها معاوية بن أبي سفيان ، وبلغت عشرة ملايين درهم[١].

إنّ الضرائب لم تكن محدودة ، وإنّما أمرها بيد الولاة والجباة ، فهم الذين يفرضونها ويقدّرونها حسب رغباتهم وميولهم ، وتحدّث بعض المستشرقين عن شدّة وطأتها بقوله : « إنّها كانت أشدّ وطأة من الخراج والجزية لأنها لم تكن محدودة ولا مستندة إلى قاعدة معقولة ، بل كان مقدارها يتوقّف على رغبة العمّال »[٢].

ومن مظالم هذه الضرائب التي لم تحد ولم يعيّن لها مقداراً أنّ شخصاً عليه الخراج سأل عمرو بن العاص أن يخبره بمقدار ما عليه من الجزية ، فقال له : لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ـ ذهباً وفضّة ـ ما أخبرتك ما عليك ، أنتم خزانة لنا ، إن كثر علينا كثرنا عليكم ، وإن خفّف عنّا خفّفنا عنكم »[٣].

أرأيتم هذا الظلم الذي صبّه الأمويّون على الناس ؟

يقول معاوية : « الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما آخذ من مال الله فهو لي ، وما تركته كان جائزاً لي »[٤].

المال للمسلمين ، ومعاوية خليفة الشيطان لا خليفة الرحمن .

ويقول وزيره ابن العاص : « إنّما السواد بستان لقريش » .

تبّاً لهم على هذه السياسة السوداء التي تحمل الدمار والبؤس إلى الناس .

---

(١) الحركات الفكريّة في الإسلام : ٤٢. تاريخ التمدّن الإسلامي : ٢/٢٢.

(٢) الحركات الفكريّة في الإسلام : ٤٢.

(٣) تاريخ التمدّن الإسلامي : ٧٩ و ٨٠.

(٤) حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام : ١/٣٠١.

احتقار الشعوب

وشيء مؤلم جدّاً ، وهو احتقار الأمويّين للشعوب ، فقد نظروا إليها باستخفاف واحتقار.

يقول الوليد بن يزيد الأموي :

فَدَعْ عَنْكَ ادِّكـارَكَ آلَ سُـعْدىٰ ... فَنَحنُ الأَكـثَرونَ حَـصىً وَمـالا

وَنَـحنُ المـالِكونَ النّـاسَ قَسْراً ... نَســومُهُمُ المَـذَلَّةَ وَالنَّكـالا

وَنورِدُهُمْ حِياضَ الْـخَسْفِ ذُلّاً ... وَمـا نـأْلوهُمُ إِلّا خَـبالا

وهذه الاستهانة بالناس واحتقارهم تنمّ عن نفس قد تجرّدت من جميع ألوان الشرف والكرامة.

وهذا مثل آخر لاحتقار الناس أدلى به الطاغية عبدالملك بن مروان في المدينة المنوّرة على القاطنين فيها ، قال : « ألا وإنّي لا أداوي أمر هذه الأُمّة إلّا بالسيف حتّى تستقيم قناتكم ، وإنّكم تحفظون أعمال المهاجرين الأوّلين ، ولا تعملون مثل عملهم ، وإنّكم تأمروننا بتقوى الله تعالى ، وتنسون ذلك من أنفسكم ، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلّا ضربت عنقه »[١].

وهذا الخطاب حافل بالجور والطغيان والاعتداء على الأُمّة ، وهو غير بعيد عن سيرة عبدالملك الذي كان الحجّاج عامله سيّئة من سيّئاته ، والحجّاج أعنف ارهابي شاهده التاريخ في جميع أدواره.

ظلم الموالي

وكان البارز في السياسة الأمويّة ظلم الموالي وحرمانهم من جميع الحقوق

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه‌السلام : ١/٣٠٧.

المدنيّة ، فقد عاملهم الأمويّون معاملة الحيوان السائم لاكرامة لهم ، ولا رحمة مع دخولهم في حظيرة الإسلام ، مع أنّ فيهم كوكبة من الأعلام وقادة الفكر ، كما أنّ شطراً كبيراً منهم قد ساهموا في بناء الدولة الإسلاميّة .

وقد روى المؤرّخون أنّ الذي فتح عليهم باب الظلم معاوية بن أبي سفيان كسرى العرب ، فهو الذي انتهك حرمتهم ، ورام سفك دمائهم بغير حقّ ، فقد دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب الهلالي ، وقال لهما : إنّي رأيت هذه الحمر ـ أي الموالي من الفرس ـ قد كثرت ، وأراها قد قطعت على السلف ، وكأنّي أنظر وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطراً منهم لإقامة السوق وعمارة الطرق ، فما ترون ؟

فأيّده سمرة ، وعارضه الأحنف ، وأقنعه بالترك[١] .

وسار على هذه الخطّة الفاجرة ملوك الأمويّين ، فجهدوا على ظلم الموالي واحتقارهم وحرمانهم من العطاء ، فقد جاء أحد الخراسانيّين إلى عمر بن عبدالعزيز طالباً منه رفع الظلامة عن الموالي والمساواة بينهم وبين العرب قائلاً :

يا أمير المؤمنين ، عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمّة يؤدّون الخراج[٢] .

وأدّت هذه السياسة الحمقاء إلى إشاعة العداء بين العرب والموالي ، وانضمامهم إلى الثورات المناهضة للحكومات العربيّة .

يقول الجاحظ في كتابه (العرب والموالي) : « إنّ الحجّاج بن يوسف لمّا خرج عليه عبدالرحمن بن الأشعث وحاربه ، ولقي ما لقي من قرّاء أهل العراق ، كان أكثر من قاتله الموالي من أهل البصرة ، فجمعهم بعد إطفائه تلك الثورة ، وقال لهم :

---

(١) العقد الفريد : ٢/٢٧٠.

(٢) تاريخ الطبري : ٨/١٣٤. الكامل في التاريخ : ٥/١٩.

إنّما أنتم علوج وعجم وقرّاؤكم أوْلى بكم، ثمّ فرّقهم حيث شاء في البلاد النائية، ونقش على يد كلّ رجل منهم اسم البلدة التي وجّهه إليها[١].

وانتشر العداء كأشدّه بين العرب والموالي، فكان العرب ينادونهم بأسمائهم وألقابهم ولا يكنّونهم لمافي الكنية من التكريم، كما لم يسمحوا لهم بالسير في الصفّ أمامهم أو معهم إلّا ورائهم، كما لا يجيزون لأحد منهم أن يصلّي على جنازة عربي، وإذا أقبل العربي من السوق ومعه متاعه فرأى مولى دفعه إليه وليس له أن يمتنع من حمله[٢]، إلى غير ذلك من الفوارق العنصريّة التي حرّمها الإسلام تحريماً شديداً.

اضطهاد الذمّيّين

تبنّى الإسلام بصورة إيجابيّة صيانة الناس وكرامتهم على اختلاف أديانهم وقوميّاتهم. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المثل الأعلى للفكر الإسلامي: «**فَإِنَّهُمْ** ـأي النّاس ـ **صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ**»[٣].

فأهل الأديان السماويّة يتمتّعون في ظلال الإسلام بكامل حريّاتهم في عقائدهم، ولكنّ السياسة الأمويّة الخرقاء عاملت الذمّيّين معاملة قاسية وشاذّة عن شريعة الإسلام.

فقد روى المؤرّخون: «أنّ أسامة بن زيد التنوخي، القائم بأمر الخراج من قِبل يزيد بن عبدالملك قد أوقع بالذمّيّين وأرهقهم، وأخذ أموالهم، ووسم أيديهم»[٤].

---

(١) العقد الفريد: ٢: ٢٧١.

(٢) ضحى الإسلام: ١: ١٨.

(٣) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(٤) خطط المقريزي: ٣٩٥/٤.

كما فرض عبدالعزيز بن مروان الجزية على الرهبان ، وهي أوّل جزية أُخذت منهم[١] .

إنّ جور الأمويّين لم يقتصر على فئة دون فئة ، وإنّما شمل الناس جميعاً ممّا أشاع الحقد والكراهية بين المسلمين وغيرهم .

إنّ السياسة الأمويّة بجميع مكوّناتها الداخليّة والخارجيّة قد شذّت عن الخطّ الإسلامي ، وباينت جميع مقرّراته وأهدافه .

اضطهاد الشيعة

أمّا السياسة الأمويّة التي خطّطها معاوية ووضع برامجها ، قد استهدفت تصفية الشيعة وإنزال أقسى العقوبات بهم ، وذلك للقضاء على أهل البيت ، وإزالة أرصدتهم الروحيّة والفكريّة من العالم الإسلامي ، ومن بين هذه البرامج :

القتل الجماعي

وقام الجلّادون من ولاة معاوية بالتصفية الجماعيّة للشيعة ، فقد أعدم الارهابي المجرم بسر بن أرطاة ثلاثين ألفاً عدا من أحرقهم بالنار[٢] .

وقتل الجلّاد الأثيم سمرة بن جندب ثمانية آلاف من أهل البصرة[٣] .

أمّا زياد بن أبيه الباغي الأثيم ، فقد اقترف أفظع الجرائم ، فقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون ، وأنزل بالشيعة من صنوف العذاب ما لا يوصف لقسوته ومرارته .

أمّا في عهد الطاغية المجرم الحجّاج الثقفي أخلده الله تعالى في نار جهنّم ،

---

(١) خطط المقريزي : ٣٩٥/٤.

(٢) شرح النهج : ١٧/٢.

(٣) تاريخ الطبري : ٦٤/٤. الكامل في التاريخ : ٢٢٩/٣.

فقد أعدم عشرات الآلاف صبراً من شيعة أهل البيت عليهم السلام ، وصبّ عليهم ألواناً من العذاب الأليم .

إبادة القوى الواعية

عمد معاوية إلى إبادة أعلام الإسلام الذين تغذّوا بالولاء لأهل البيت عليهم السلام ، وعرفوا قيمهم ، كان منهم :

حجر بن عدي

أمّا حجر بن عدي ، فهو من خيار الصحابة في فضله وورعه وتقواه ، ومن المجاهدين الذين أعلنوا ولاءهم العارم لإمام المتّقين وسيّد الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد أنكر على ولاة معاوية سبّهم للإمام أمير المؤمنين عليه السلام على منابر المسلمين ، وقد اُلقي عليه القبض ، ونفّذوا فيه حكم الإعدام مع جمهرة من إخوانه المؤمنين ، وقد عرضنا لترجمته وما عاناه من الاضطهاد من الأمويّين في كتابنا (حياة الإمام الحسن عليه السلام) .

رشيد الهجري

تعرّض هذا العالم لكثير من المحن والبلاء من المجرم زياد بن أبيه ، وبعد إلقاء القبض عليه أمر بقطع يديه ورجليه ، ثمّ أمر بقطع لسانه ، فنفّذ فيه ذلك .

عمرو بن الحمق

أعدمه معاوية واحتزّ رأسه ، وأمر أن يُطاف به في الشام ، وهو أوّل رأس طيف به في الإسلام ، ثمّ أمر بأن يلقى به في حجر زوجته التي كانت في سجنه ، فاُلقي في حجرها وكانت غافلة ، فذهلت وكادت أن تموت .

أوفى بن حصن

ألقى القبض عليه الارهابي زياد بن أبيه ، وأعدمه لولائه للإمام عليه السلام .

جويرية بن مسهر

ألقى عليه القبض الطاغية زياد ، وأمر بقطع يديه ورجليه ، ثمّ صلبه على جذع قصير .

عبدالله الحضرمي وجماعته

أمر الطاغية زياد بإعدامهم ، وهم من خيار المجتمع ، ومن أعلام الإسلام .

هؤلاء بعض الذين أعدمهم معاوية وليس لهم ذنب سوى الولاء للإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

عدم قبول شهادة الشيعي

أصدر الطاغية الفاجر معاوية أمراً إلى القضاة وسائر المحاكم الرسميّة عدم قبول شهادة الشيعي[(١)] بأي جهة كانت شهادته . ومن الجدير بالذكر أنّ محمّد بن مسلم العالم والفقيه الكبير شهد في واقعة فردّ القاضي شهادته وقال له : لا تقبل شهادتك لأنّك من الشيعة ، فبكى محمّد .

فقال له القاضي : لِمَ تبكي ؟

فأجابه : لأنّك ظلمت الشيعة بنسبتي إليهم ، وهذه الطائفة لا ينتمي إليها إلّا الأنبياء وأوصياء الأنبياء .

فبهر القاضي ، وقال : هكذا فلتكن الرجال »[(٢)].

هدم دور الشيعة

وأمر الطاغية الفاجر ابن هند بهدم دور الشيعة ، فقام عبيدة بهدم دار كلّ من

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٢٧٨/٢.

(٢) شرح النهج : ١٥/٢.

والى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

هذه بعض الإجراءات القاسية التي اتّخذها الطاغية معاوية وزبانيته ضدّ شيعة أهل البيت عليهم السلام الذين يمثّلون الإسلام بجميع أرصدته ومكوّناته .

خلاعة الأمويّين ومجونهم

وأمعن ملوك الأمويّين بالخلاعة والمجون ، وتهالكوا على الشهوات وعلى كلّ ما حرّم الله تعالى ، وقد انتشر التسيّب والتحلّل في أيّامهم ، وشاع استعمال الخمر والميسر ، وأُنفقت أموال الدولة على المغنّين والعابثين ، وجلبت لقصورهم جميع آلات اللهو والطرب ، وهؤلاء بعض ملوكهم :

١ - يزيد بن عبدالملك

انقطع يزيد بن عبدالملك إلى الخمر والقيان ، وكان يسمّى خليع بني أُميّة ، شغف بجاريتين إحداهما حبابة ، والثانية سلامة ، وقطع أيّام ملكه في أحضانهما ، غنّته حبّابة يوماً بقولها :

وَبَينَ التّراقِي وَاللَّهاةِ حَرارَةٌ ما تَطْمَئِنُّ وَما تَسوغُ فَتَبرُدا

فطرب حتّى فقد صوابه ، وأخذ يطير ، فقالت ساخرة منه : لنا يا أمير المؤمنين فيك حاجة ؟

وراح يقول : والله لأطيرنّ .

وسخرت منه وقالت له : على مَن تدع هذه الأُمّة ؟

قال : عليك .

ثمّ انعطف يقبّل يدها وهي تعبث به وتسخر من الأُمّة التي جعلته حاكماً عليها .

ومن مجونه أنّه خرج يتنزّه في بعض نواحي الأردن ومعه جاريته حبابة ،

فأخذ يتعاطى معها كؤوس الخمر ، فلمّا ثمل رماها بحبّة عنب فدخلت فمها ، فشرقت منها ثمّ ماتت ، ففقد رشده على موت هذه المغنية فتركها ثلاثة أيّام لم يدفنها حتّى أنتنت وهو يشمّها ، ويلثم جسدها ويبكي عليها أمرّ البكاء ، فكلّمه بعض خواصه في دفنها ، فأذن ، ورجع إلى قصره كئيباً حزيناً ، فسمع جارية تقول :

كَفىٰ حَزَناً بِالهائِمِ الصَّبِّ أَنْ يَرىٰ　　　مَنازِلَ مَنْ يَهْوىٰ مُعَطَّلَةً قَفْرىٰ

فأخذ يبكي أمرّ البكاء ، وقد مزّق الحزن قلبه ، ومكث في قصره سبعة أيّام لا يظهر للناس حداداً وحزناً على هذه الفاجرة ، فأشار عليه أخوه مسلمة بالخروج إلى الناس لئلّا يشاهدون منه هذه المنكرة فيزهدون فيه ، فاستجاب له وخرج إلى الناس[١] .

أمثل هذا الماجن الخليع يكون إماماً للمسلمين وقائداً لمسيرتهم ، وتعامل الذرّيّة الطاهرة التي أذهب الله تعالى عنها الرجس بالقتل والتنكيل . نعم ، هذا ما أرادته قريش التي أبت أن تجتمع النبوّة والخلافة في بيت واحد .

٢ ـ الوليد بن يزيد

وهذا ماجن آخر من ملوك الأمويّين ، وهو الوليد بن يزيد الذي أخبر عنه النبيّ صلى الله عليه وآله ، وقال : « **لَيكونَنَّ في هٰذِهِ الأُمَّةِ رَجُلٌ يُقالُ لَهُ الْوَليدُ ، هُوَ شَرٌّ عَلىٰ هٰذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ فِرْعَوْنَ** » .

وأيّد الأوزاعي أنّه هو الوليد بن يزيد[٢] .

وتمادى هذا الخليع الماجن في الدعارة ، فهو أوّل من حمل المغنّين من البلدان ،

---

(١) الكامل في التاريخ : ٥/١٢١ .

(٢) أمالي المرتضى : ١/٧٩ .

وجالس الملهين ، وتعاطى شرب الخمر والملاهي والعزف ، وقد انتشر الفساد في عصره وتعاطى الناس شرب الخمر ، وكان مغرماً بها ، وقد وصفها بقوله :

وَصَفْراءَ في الْكَأْسِ كَالزَّعفَرانِ ... سَباها لَنا التَّجْرُ مِنْ عَسْقَلانِ

تُريكَ الْقَذاةَ وَعَرضَ الْإِناءِ ... سَترٌ لَها دونَ مَسِّ البَنانِ

لَها حَبَبٌ كُلَّما صُفِّقَتْ ... تَراها كَلَمعَةِ بَرقٍ يَماني[١]

بلغ من مجونه وخلاعته وفسقه أنّه أراد أن يبني فوق الكعبة قبّة يشرب فيها الخمر ويشرف منها على الطواف[٢] ، ولكنّ الله تعالى قصم ظهره ، فثار عليه يزيد بن الوليد مع جماعة فقتلوه واحتزّوا رأسه ونصبوه بدمشق[٣] .

ومن خلاعة هذا الفاسق أنّ **ابن عائشة القرشي** غنّاه بقوله :

إِنّي رَأَيتُ صَبيحَةَ النَّحرِ ... حُوراً نَفَينَ عَزيمَةَ الصَّبرِ

مِثلَ الكَواكِبِ في مَطالِعِها ... عِندَ العِشاءِ أَطَفْنَ بِالبَدْرِ

وَخَرَجتُ أَبْغي الأَجرَ مُحْتَسِباً ... فَرَجَعْتُ مَقوداً مِنَ الوِزْرِ

فطرب حتّى فقد صوابه ، والتفت إلى ابن عائشة فقال له : أحسنت أعد بحقّ عبدشمس ، فأعادها عليه .

فقال له : أحسنت والله بحقّ اُميّة أعد ، فأعادها عليه ، وأخذ يتخطّى آباءه الذين هم من عناصر الرذيلة ويقسم عليه بهم ليعيدها عليه ، فأعادها عليه مراراً وهو ثمل لا يعقل قد أفسدت الخمر عقله ، ثمّ انكبّ على ابن عائشة وهو يقبّل أطرافه وأعضائه عضواً عضواً حتّى انتهى إلى عورته ، وبعد صراع طويل استطاع الخليفة

---

(١) مروج الذهب : ٣/٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) و (٣) تاريخ اليعقوبي : ٣/٧٣.

تقبيل عورة ابن عائشة ، ثمّ إنّه نزع ثيابه فألقاها عليه وبقى مجرّداً بادي العورة ، حتّى أتوه بثياب فلبسها ، ثمّ منحه ألف دينار ، وحمله على بغلته ، وطلب منه أن يركبها على بساطه ، ثمّ ودّعه قائلاً : تركتني على أحرّ من الجمر[(١)].

هؤلاء حكّام بني اُميّة الذين سلّطتهم قريش على رقاب المسلمين ، ورحم الله **المعرّي** إذ قال :

أَلَيْسَ قُرَيشُكُمْ قَتَلَتْ حُسَيْناً　　　وَكانَ عَلىٰ خِلافَتِكُمْ يَزيدُ

وقبل أن نطوي الحديث عن ملوك بني مروان نذكر ما جاء من خطبة أبي حمزة أوّلاً ، وثانياً ما جاء في دعاء سديف .

كلمات أبي حمزة في خطبته:

« ألا ترون إلى خلافة الله وإمامة المسلمين كيف أصبحت حتّى تداولها بنو مروان ، فأكلوا مال الله أكلاً ، وتلعّبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبيداً ، يورّث الأكبر منهم ذلك الأصغر ، لقد ملكوا الأمر ، وتسلّطوا فيه تسلّط ربوبيّة ، بطشهم بطش الجبابرة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظنّ ، ويعطّلون الحدود بالشفاعات ، ويؤمّنون الخونة ، ويعصون ذوي الأمانة ، ويتناولون الصدقة من غير فرضها ، ويضعونها في غير موضعها »[(٢)].

دعاء سديف

وكان من دعاء سديف على بني اُميّة هذا الدعاء الذي ذكر فيه ما عاناه المسلمون من الجور والظلم في العهد الأموي ، وهذا نصّه :

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٣/٧٣. مروج الذهب : ٣/٢١٥.

(٢) شرح النهج / ابن أبي الحديد : ٥/١١٧ ـ ١١٩.

« اللّهمّ قد صار فيئنا دولة بعد القسمة ، وإمارتنا غلبة بعد المشورة ، وعهدنا ميراثاً بعد الاختيار للأُمّة ، واشتريت الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والأرملة ، وحكم في أبشار المسلمين أهل الذمّة ، وتولّى القيام بأمرهم كلّ فاسق محلّه ، فلا ذائد يذود عن هلكة ، ولا مشفق ينظر إليهم بعين الرحمة ، ولا رادع يردع من أوى إليهم بمظلمة ، ولا ذو شفقة يشبع الكبد الحرّى من السغب ، فهم أهل ضرع وضيعة ، وحلفاء كآبة وذلّة ، قد استحصد زرع الباطل ، وبلغ نهايته ، واستجمع طريده ، واستوسق وضرب بجرانه .

اللّهمّ فأَتِحْ له يداً من الحقّ حاصدة تجتثّ سنامه ، وتهشم سوقه ، وتبدّد شمله ، وتفرّق كلمته ليظهر الحقّ في أحسن صورته ، وأتمّ نوره ، وأعظم بركته . اللّهمّ وقد عرفنا من أنفسنا خلالاً لا تقعد بنا عن استجابة الدعوة ، وأنت المتفضّل على الخلق أجمعين ، والمتولّي الإحسان إلى السائلين ، فآت لنا من أمرنا حسب كرمك وجودك وامتنانك ، فإنّك تقضي ما تشاء وتفعل ما تريد »[١] .

وأنت ترى في هذا الدعاء ما ألمّ بالمسلمين من الظلم وانتهاك الحقوق والحرمات .

وبهذا نطوي الحديث عن حكّام بني أُميّة الذين سعوا في الأرض فساداً ، وأرغموا المسلمين على الذلّ والعبوديّة .

---

(١) طبقات الشعراء : ٣٧ و ٣٨.

الحكم العبّاسي

أمّا حكم بني العبّاس فهو أسوء من حكم بني اُميّة ، فقد مني المسلمون بحكم ظالم مستبد لا ظلّ فيه للعدل ، ولا شبح فيه للحقّ ، فأشاع العبّاسيّون الخوف والارهاب ، وسلبوا الاُمّة جميع مقوّماتها الاقتصاديّة حتّى تمنّى الناس رجوع الحكم الأموي على ما فيه من قسوة وعذاب .

يقول أحد مخضرمي الدولتين :

يا لَيْتَ جَوْرُ بَني مَروانَ دامَ لَنا وَلَيتَ عَدْلُ بَني العبّاسِ في النّارِ

وقال شاعر آخر :

لَا يَنْقَضي الجَورُ وَعَلى الأُمَّةِ والٍ مِنْ آلِ عَبّاسِ

لقد قام الحكم العبّاسي على سفك الدماء ، وهتك الحرمات ، فقد تولّى قيادة الثورة أبو مسلم الخراساني ، وهو كالحجّاج في سفكه للدماء بغير حقّ ، فقد أعدم ستمائة ألف إنسان مسلم صبراً لدعم الحكم العبّاسي ، وقد عهد له بذلك السفّاح ، حسبما أدلى به أبو مسلم في رسالته التي بعثها للمنصور الدوانيقي ، فقد جاء فيها : « وأمرني ـ أي السفّاح ـ أن اُجرّد السيف ، وأرفع المرحمة ، ولا أقبل المعذرة ، ففعلت توطيداً لسلطانكم حتّى عرفكم من كان يجهلكم وأطاعكم من كان عدوّكم ، وأظهركم الله تعالى بعد الخفاء والذلّ والحقارة »[١] .

لقد اجتثّ العبّاسيّون في بداية حكمهم جميع العناصر المناهضة لهم بغير رأفة ، وفي طليعتهم الأمويّون ، فقد تتبّعوهم تحت كلّ حجر ومدر ، وأنزلوا بهم الإعدام ،

---

(١) البداية والنهاية : ١٠/٦٤.

وممّا يثير الدهشة موقف الإمام الصادق عليه السلام سيّد العلويّين ، وإمام المسلمين ، فقد كتب للسفّاح يلومه على ذلك قائلاً له : **إِنَّكَ أَخَذْتَ الْحُكْمَ مِنْهُمْ ، فَلَيْسَ لَهُمْ أَيُّ سُلْطانٍ أَوْ نُفوذٍ ، فَعَلامَ تَقْتُلُ الشَّيْخَ الْكَبيرَ وَالنِّساءَ مِنْهُمْ ؟**

فبهر السفّاح من ذلك ، وقال : واعجباه يقتلون آباءهم ، ويسبون نساءهم ، ويحرقون جثمان زيد ، ومع ذلك يتشفّع بهم ، وقد خفي على السفّاح نبل وشرف نفوسهم ، وأنّهم يقابلون المسيء لهم بالإحسان والبرّ ، ولم يعرفوا النقمة على أعدائهم ، والتشفّي منهم ، ولذا اختارهم الله عزّ اسمه فجعلهم قادة لعباده ، وأدلّاء على مرضاته ، ومن أمثلة برّهم بمن جنى عليهم موقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع قاتله الرجس الخبيث عبدالرحمن بن ملجم أخلده الله في نار جهنّم ، فقد أوصى الإمام ولده الزكيّ الإمام الحسن عليه السلام أن يقدّم له أطيب الطعام .

ومن المؤكّد أنّه لو لم يمت الإمام لعفا عنه ، هذه سيرة أهل البيت عليهم السلام ، وهذه طباعهم ، فقد زكّاهم الله تعالى وطهّرهم من كلّ إثم ورجس .

ومن الجدير بالذكر أنّ الأمويّين قد اعترفوا بسموّ منزلة أئمّة الهدى عليهم السلام ، وأنّهم يقابلون من أساء إليهم بالبرّ والإحسان ، فهذا مروان آخر ملوك الأمويّين لمّا أحاط به الجيش العبّاسي ، ورأى ضخامته ، وأيقن بالخطر ، قال لمن حوله : ألا تعرفني من صاحب جيشهم ؟

- هو عبدالله بن عليّ بن العبّاس بن عبدالمطّلب .

وفزع مروان وراح يقول بنبرات تمثّل خوفه قائلاً : « ويحك ! أمن ولد بني العبّاس ؟

- نعم .

وأخذ يبدي أساه وحزنه قائلاً : والله لوددت أنّ عليّ بن أبي طالب مكانه في هذا الصفّ .

لقد تمنّى مروان أن يكون الفاتح هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ليصفح ويعفو عنهم ، ولم يفهم الرجل مراد مروان ، ودار في خلده أنّه اتّهم الإمام بالجبن حتّى يمكن التغلّب عليه ، فقال له : أتقول هذا لعليّ مع شجاعته ؟

فردّ عليه مروان قائلاً : ويحك ! إنّ عليّاً مع شجاعته صاحب دين ، وإنّ الدين غير الملك .

وإنّا نروي عن قديمنا أنّه لا شيء لعليّ ولا لولده في هذا [١] .

وعلى أي حال ، فقد أسرف السفّاح في سفك الدماء ، وزاد على الحكم الأموي في نشر الرعب ، وإشاعة الظلم والجور بين الناس ، ولكن لم تطل أيّام حكمه ، فقد طواه الموت ليلاقي الله تعالى بما أسرف في سفك الدماء من أجل الملك والسلطان ، ولننظر إلى خليفته :

المنصور الدوانيقي

ولم تكن للمنصور أيّة سابقة كريمة ، أو مأثرة طيّبة ، حتّى يستحقّ الخلافة والقيام بشؤون المسلمين ، فقد كان فيما أجمع عليه المؤرّخون قد تسربل بالبخل وخسّة الطبع ، والغدر والمكر ، وقد ساس المسلمين سياسة لم يألفوها إلّا في عهد الحجّاج ، فقد أشاع الخوف ، ونشر الفقر ، وسلب الناس مقوّماتهم الاقتصاديّة .

وقال السيّد الشريف محمّد ذوالنفس الزكيّة في حقّه وحقّ العبّاسيّين : « لقد كنّا نقمنا على بني اُميّة ما نقمنا ، فما بنو العبّاس إلّا أقلّ خوفاً لله تعالى منهم ، وأنّ الحجّة على بني العبّاس لأوجب منها عليهم ، ولقد كانت للقوم فواضل ليست لأبي جعفر » [٢] .

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام : ٣٣٦/١ ، نقلاً عن شرح النهج : ١٣٤/٧.

(٢) الأغاني : ١٠٦/١٠.

وقد أفرط في سفك الدماء، فقتل على الظنّة والتهمة، وتنكّر لجميع الناس، حتّى لأُسرته، فأباد أعلامها، ويعزى ذلك إلى طيشه وقلّة ورعه، وقد وصفه السيّد مير علي بقوله: «كان المنصور خدّاعاً لا يتردّد البتّة في سفك الدماء، وتعزى قسوته إلى حقده البالغ حدّ الإفراط في حين كان خلفه لا يفتك بأحد إلّا بعد كثير من التروّي والإمعان، وعلى الجملة كان أبو جعفر سادراً في بطشه، مستهتراً في فتكه، وتعتبر معاملته لأولاد عليّ صفحة من أسوء صفحات التاريخ العبّاسي.

ويقول السيوطي: «كان المنصور أوّل من أحدث ثغرة الخلاف بين العبّاسيّين والعلويّين بعد أن كانا كتلة واحدة»[(١)]

ووصفه ابن هبيرة وهو معاصر له بقوله: «ما رأيت رجلاً في حرب أو سلم أمكر، ولا أنكر، ولا أشدّ تيقّظاً من المنصور، حتّى حاصرني تسعة شهور ومعي فرسان العرب، فجهدنا كلّ الجهد على أن ننال من عسكره شيئاً، فما قدرنا لشدّة ضبطه لعسكره»[(٢)].

وكان من أقسى ما قام به من الظلم والجور بطشه بالسادة العلويّين، فقد صبّ عليهم جام غضبه، ونكّل بهم أفظع التنكيل، ولم يرع فيهم قربهم من رسول الله ﷺ، وأواصر الرحم التي تجمعه وإيّاهم، ونعرض بصورة موجزة إلى بعض مظاهر شخصيّته:

البخل

أمّا الظاهرة السيّئة التي تردّى بها فهي البخل الذي هو المنبع الوحيد لجميع الرذائل والموبقات، لقد كانت هذه النزعة الشريرة من أبرز صفاته النفسيّة، وقد لقّب

---

(١) مختصر تاريخ العرب: ١٨٤.

(٢) العصر العبّاسي: ٦٨.

بالدوانيقي لبخله.

قال ابن الأثير: «إنّما سمّي المنصور بالدوانيقي لبخله؛ وذلك لمّا حفر الخندق بالكوفة فقسّط على كلّ واحد منهم دانقاً، وصرفه على الحفر، والدانق سدس الدرهم، وفي سنة ١٥٥ هـ عمل المنصور للكوفة والبصرة سوراً وخندقاً، وأمر لمن عمل بالسور والخندق خمسة دراهم، فلمّا فرغوا أمر بجمعهم، وأخذ من كلّ واحد أربعين درهماً، وفي ذلك يقول الشاعر:

يـا لِقَومي مـا لَقينا ... مِـنْ أَميرِ الْمُؤْمِنينا

قَسَّـمَ الخَـمْسةَ فِـينا ... وَجَبانا الأَرْبَـعِينا»[١]

ولمّا فرغ هذا البخيل من بناء بغداد حاسب أُمراء جيشه، فألزمهم بما بقي عندهم حتّى استوفى من بعضهم ما اقتضاه الحساب خمسة عشر درهماً[٢].

وكان يحاسب العمّال ولو بقدر الدانق والحبّة[٣].

وقد بخل حتّى على نفسه، فكان يرقع قميصه بيده، وقال الإمام الصادق عليه السلام فيه: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذي ابْتَلاهُ بِفَقْرِ نَفْسِهِ في مُلْكِهِ**»[٤].

ورأته جارية وعليه قميص مرقّع، فسخرت منه وقالت له: أخليفة وثوب مرقّع؟

فضحك وقال لها: أما سمعت قول الشاعر **ابن هرمة**:

قَدْ يُدرِكُ الشَّرفَ الْفَتى وَرِداؤُهُ ... خَلِقٌ وَجَيْبُ قَميصِهِ مَرقُوعُ[٥]

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٩٨/٦. البداية والنهاية: ١٢١/١٠.

(٢) الفخري: ١١٨.

(٣) المجد: ١٦١.

(٤) الفخري: ١١٥.

(٥) تاريخ الخلفاء: ٢٦٧.

إنّه لم يدرك الشرف ، إنّما انتهى إلى قرار سحيق من الخسّة واللؤم ، فقد ملئت بيوت الأموال بالذهب والفضّة ، وخلّف من المال ما لا يحصى ولم ينفق شيئاً منها على الرعيّة ، فأي شرف لهذا اللئيم .

مع الفقيه ابن السمّان

ومن بخله وشحّة نفسه أنّ الفقيه أزهر بن السمّان كان صديقاً له قبل أن يلي الخلافة ، فلمّا صارت إليه قصده ، فقال له المنصور : ما حاجتك ؟

- عليَّ دين أربعة آلاف درهم ، وداري مستهدمة ، وابني يريد البناء بأهله .

فأمر له بمبلغ من المال ونهاه عن المجيء إليه قائلاً : لا تأتنا طالب حاجة .

- افعل .

ومضت أشهر ، فعاد إليه ابن السمّان ، فجعل ينظر إليه المنصور بغضب وغيظ قائلاً : ما جاء بك ؟

- لم أجئ طالب حاجة ، ولكن مسلّماً .

لا أظنّك أتيتنا لما أتيتنا له في المرّة الأُولى ، لا تأتنا طالب حاجة ولا مسلّماً ، وأمر له بصلة .

وخرج ابن السمّان ، ولكنّه لم يلبث أن عاد إليه ، فصاح به المنصور : ما جاء بك ؟

- لم آت طالب حاجة ولا مسلّماً ، ولكن دعاء سمعته منك ، وأحببت أن آخذه منك .

وراح المنصور قائلاً بغضب : لا تأخذه ، فإنّه غير مستجاب لأنّي قد دعوت الله أن يريحني من خلقتك فلم يفعل ، ثمّ صرفه ولم يعطه شيئاً [١] .

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٥٥ ، وذكرنا عرضاً مفصّلاً ونوادر كثيرة من بخله في حياة الإمام موسى بن جعفر عليه‌السلام : ١/٣٥٩ ـ ٣٦٩ .

أمثل هذا البخيل يكون خليفة على المسلمين وقائداً لمسيرتهم ، ولكن هذا وأمثاله من الحكّام الظالمين من مكاسب السقيفة والشورى .

الاستبداد

وظاهرة أُخرى من صفات المنصور ، وهي الاستبداد ، فلم يشر أحداً فيما يعمله حتّى في أخطر الأُمور ، فقد روى المؤرّخون أنّه أحضر ابن أخيه عيسى بن موسى ، وأمره بقتال محمّد بن عبدالله ، فطلب منه مشاورة عمومته ، فزجره قائلاً : أين قول **إبراهيم بن هرمة** :

تَزور امْرَءاً لا يمخِضُ القَومَ سِرَّهُ ... ولا يَنْتَجي الأَدْنَين فيما يُحاوِلُ

إِذا ما أَتَى شَيْئاً مَضَى كَالَّذي أَتى ... وَإِنْ قالَ إِنّي فاعِلٌ فَهْوَ فاعِلُ

ثمّ قال له : امض أيّها الرجل ، فوالله ما يراد غيري وغيرك ، وما هو إلّا أن تشخص أو أشخص أنا [١].

بمثل هذا الاستبداد والاعتزاز برأيه كان يتحكّم في رقاب المسلمين ، فيعدم ويسجن حسب رغباته وميوله ، وكان دوماً يتمثّل بقول **الهيثم بن عديّ** :

إِنَّ قَناتي لَنَبعٌ لا يُؤَيِّسُها ... غَمْزُ الثِّقافِ وَلا دُهنٌ ولا نارُ

مَتى أُجِرْ خائِناً تَأْمَنْ مَسارِحُهُ ... وَإِنْ أُخِفْ آمِناً تَقْلَقْ بِهِ الدّارُ

سِيروا إِلَيَّ وَغُضُّوا بَعضَ أَعيُنِكُمْ ... إِنّي لِكُلِّ امرئٍ مِنْ جارِهِ جارُ [٢]

بمثل هذا الطيش والغرور والاستبداد كان يتحكّم في رقاب المسلمين ، وقد نشر

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام : ١/٣٧٠ .

(٢) تاريخ الطبري : ٦/٣٣٨ .

الرعب والخوف والذعر بين الناس.

الفتك والغدر

من صفات الدوانيقي، ومن عوامل استمتاعه النفسي الفتك والغدر، وقد تمادى في ذلك إلى حدّ لم يعرف له نظير، فقد فتك بجماعة من عيون دولته، وبناة سلطانه، كان منهم:

أبو مسلم الخراساني

مؤسّس الدولة العبّاسيّة، وباني مجدها، وغارس بذرتها، ولولاه لم يقم لبني العبّاس مجد، فكان جزاؤه أنّه دعاه لمقابلته ثمّ غدر وفتك به.

عبدالله بن عليّ

عمّ المنصور، أعطاه عهداً أن لا يغدر به بعدما ثار عليه، فلم يفِ بأمانه وعهده وقتله.

محمّد بن أبي العبّاس

اغتاله بالسمّ على يد طبيب له نصراني، فقد عهد إليه بسمّ من لا يجب أن يتجاهر بقتله.

مع العلويّين

أمّا محنة العلويّين فهي من أقسى المحن وأفجعها، فقد صبّ عليهم جميع ألوان العذاب، وقابلهم بالقتل والعنف، فأباد شيوخهم وشبابهم، ولم يرحم أحداً منهم، وكان ما حلّ بهم في عهده أضعاف ما قاسوه في العهد الأموي، حتّى قيل:

تَـاللهِ مـا فَـعَلَتْ أُمَـيَّةُ فِـيهِمُ ... مِعْشارَ ما فَعَلَتْ بَنو الْعَبّاسِ

ويقول شاعر العلويّين **دعبل الخزاعي**:

وَلَـيسَ حَـيٌّ مِـنَ الأَحـياءِ نَـعْلَمُهُ ... مِنْ ذي يَمانٍ ومِنْ بَكْرٍ ومِنْ مُضَرِ
إِلّا وهُـم شُـركاءٌ فـي دِمـائِهِمُ ... كَـما تَشـارَكَ أَيْسـارٌ عـلى جَزَرِ
قَــتْلٌ وَأَسْــرٌ وتَـحرِيقٌ ومَـنْهَبَةٌ ... فِـعلُ الغُـزاةِ بِـأَرْضِ الرومِ والخَـزَرِ
أَرى أُمــيَّةَ مَــعذورينَ إِنْ قَـتَلُوا ... وَلا أَرى لِبَني العبّاسِ مِنْ عُـذُرِ[1]

لقد قابل هذا الرجس الخبيث السادة العلويّين بجميع ألوان القساوة والتنكيل، وصبّ عليهم أقسى صور العذاب، وكان من بين ما اقترفه معهم:

التجسّس على العلويّين

أنفق المنصور لياليه ساهراً في اتّخاذ الوسائل لاجتثاث العلويّين وتصفيتهم، فهو يعلم أنّه ليس أهلاً للخلافة، لا هو ولا أسرته التي كانت منعمة في ظلّ الحكم الأموي، يتلقّون هداياهم وألطافهم ورواتبهم، ولم يبذلوا أي شيء لا من الأنفس ولا من الأموال لإنقاذ الأمّة من جور الأمويّين وبطشهم، وإنّما الذي قام به السادة العلويّون، وعلى رأسهم أبي الأحرار سيّد الشهداء عليه السلام، وحفيده الشهيد الخالد زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام، والكوكبة المشرقة من شيعتهم، كالتوّابين والمختار، ولم يكن لبني العبّاس أي دور يذكر في خدمة الإسلام، والمنصور بالذات كان مدّاحاً يسير في القبائل يمدح أهل البيت عليهم السلام ويتصدّق عليه الناس، وهو وأخوه السفّاح قد بايعا ذا النفس الزكيّة، ولم يكن لهما أي أمل في الوصول إلى الحكم.

وعلى أي حال، فقد بعث المنصور عيناً له ليتعرّف على خبر محمّد وأخيه إبراهيم، وبعث معه بمال وألطاف، فدخل على عبدالله بن الحسن، فسأله عن ولده محمّد، فكتم خبره، إلّا أنه أخذ يلحّ عليه في ذلك، ويظهر المزيد من الولاء الكاذب له، حتّى توصّل إليه، وأحسّ محمّد بالشرّ، فأشار عليه بعض أصحابه بقتله،

---

(١) ديوان دعبل: ١٠٥.

فأبى وانهزم الخبيث حتّى وافى المنصور وأخبره بالأمر.

ثمّ بعث المنصور عيناً آخر وزوّده بالمال، وكتاب مزوّر على لسان بعض شيعته، فانخدع عبدالله، وأخبره بما انطوت عليه نيّتهم من إعلان الثورة على المنصور، وعيّن وقتاً خاصّاً لها، فولّى وأخذ يجدّ في السير حتّى وافى المنصور، فأخبره فاضطرب وعزم على القضاء على العلويّين واجتثاثهم بلا هوادة ولا رحمة.

القبض على العلويّين

وعزم الدوانيقي على التنكيل بالسادة العلويّين، وإنزال أقسى العقوبة بهم، فسافر إلى الحجّ، وبعد الانتهاء منه قفل راجعاً إلى المدينة، وأخذ معه عقبة بن مسلم، وكان عيناً على العلويّين، وهو الذي وافاه بأنبائهم، وعهد إليه أنّه إذا التقى به بنو الحسن وفيهم عبدالله فيقوم بتكريمه، ورفع منزلته، فإذا قدّم له الطعام وفرغ من تناوله، فإنّه يشير إليه فعليه أن يكون بين يدي عبدالله فيلحظه حتّى يعرفه، ثمّ ينصرف عنه.

ولمّا حضر عبدالله قابله المنصور بالتكريم، وأجلسه إلى جنبه، وقدّم له الطعام، فتناول منه، ثمّ أشار إلى عقبة، فقام ونفّذ ما أوصاه به المنصور، فارتاع عبدالله وعرف ما دبّر له، فقال للمنصور: أقلني أقالك الله.

فصاح به الخبيث الدنس: لا أقالني الله إن أقلتك، وأمر أن يكبّل بالحديد، ويزجّ في السجن، فكبّل مع جماعة من العلويّين وحُبس في بيت مروان، وألقيت تحته ثلاث من حقائب الإبل محشوّة بالتبن.

ورام بعض المدنيّين أن يرفعوا عنه السجن، فيخبر المنصور بولديه محمّد وإبراهيم، فامتنع من إجابتهم، وأصرّ أن يبقى في ظلمات السجون.

حملهم إلى العراق

ومكث العلويّون في سجن الطاغية ثلاث سنين ، وهم يعانون أقسى ألوان البلاء والخطوب ، ثمّ سافر الطاغية إلى الحجّ ، وبعد انتهاء مراسيمه جعل طريقه على الربذة ، فأقام فيها ، واستقبله رباح واليه على المدينة ، فردّه إليها ، وأمره بإشخاص السادة العلويّين إليه ، فحملهم إليه وهم مكبّلون بالحديد ، ورباح يوسعهم شتماً وقذفاً ، وسارت القافلة حتّى بعدت عن المدينة بثلاثة أميال ، فأنزلوا عن رواحلهم ، وجيء لهم بحدّادين فألقوا كلّ رجل منهم في كبل وغلّ ، وقد ضاقت حلقتا القيد في رجلي عبدالله ، فجعل يتأوّه من الألم ، فأقسم عليه أخوه عليّ بن الحسن أن يحوّلها ، فحوّلت له .

ولما انتهت القافلة إلى الربذة أنزل العلويّين عن رواحلهم وهم مكبّلون بالحديد تصهرهم الشمس بحالة من الذلّ والهوان ، وأمر الطاغية الفاجر بإدخال السيّد الشريف محمّد بن عبدالله عليه .

فلمّا مثل أمامه قابله المنصور بالسبّ والشتم والكلام القذر الذي لا يصدر إلّا مَن لا يعرف الكرامة ، ثمّ أمر الباغي بتجريده من ثيابه ، فجرّد منها ، حتّى بدت عورته ، وأمر عبيده بضربه مائة وخمسين سوطاً ، وقد أشرف على الموت ، والمنصور يضحك قد غمرته الأفراح باعتدائه على ذرّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله والتنكيل بهم ، وأصاب أحد السياط وجه العلويّ فقال له : اكشف عن وجهي ، فإنّ له حرمة من رسول الله صلى الله عليه وآله .

فصاح المنصور بالشرطي : الرأس ، الرأس .

فضربه على وجهه ثلاثين سوطاً ، ثمّ دعا بساجور[١] من خشب فشدّ في عنقه ،

---

(١) **الساجور** : خشبة تعلّق بعنق الكلب .

وشدّت به يداه، وأُخرج ملبّباً، وحمل إلى أصحابه كأنّه زنجي قد غيّرت السياط لونه، وأسالت دمه، وأصاب سوط منها إحدى عينيه فسالت، ووثب رجل إليه فقال له: ألا ألوثك بردائي، فجزاه خيراً، فألقى عليه الثوب[١].

وطلب محمّد ماءً وهو بتلك الحالة، فلم يسقه أحد سوى رجل من خراسان بادر وسقاه الماء، ولم يلبثوا قليلاً حتّى اجتاز عليهم المنصور، فراح عبدالله يذكّره بما أسداه جدّهم رسول الله ﷺ على جدّهم العبّاس حينما جيء به أسيراً، قائلاً: ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر[٢].

فأشاح الوغد النذل بوجهه عنه، وأمر بحمل العلويّين إلى العراق لاعتقالهم.

في الهاشميّة

وأخذت قافلة السادة العلويّين تجدّ في السير حتّى انتهت إلى الهاشميّة، فأمر المنصور بزجّهم في سجن لا يعرف فيه الليل من النهار، فأودعوا فيه، وكانوا لا يعرفون فيه وقت الصلاة لظلمته، فجزّأوا القرآن الكريم خمسة أجزاء، فكانوا يصلّون الصلاة على فراغ كلّ واحد منهم لحزبه[٣].

وأمر المنصور بإحضار محمّد بن إبراهيم، وكان آية في جماله وبهاء وجهه، وكان الناس يذهبون إلى النظر لحسنه، ولمّا حضر عنده قال له بسخرية: أنت المسمّى بالديباج الأصفر؟

- نعم.

- أما والله لأقتلنّك قتلة ما قتلتها أحداً من أهل بيتك.

---

(١) تاريخ الطبري: ١٧٩/٦.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ٣٩٧/١.

(٣) مروج الذهب: ٢٢٥/٣.

ثمّ أمر باسطوانة مبنيّة ، فأُفرغ ما فيها وأُدخل فيها ، وبنيت عليه وهو حيّ[١] .

هكذا اقترف الباغي الأثيم الجرائم مع ذرّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدفنهم وهم أحياء .

وطلب شيخ العلويّين عبدالله بن الحسن ماءً فانبرى بعضهم إلى المنصور وأخبره بعطش السيّد ، فسمح له بذلك ، فبينما هو يشرب إذ وثب إليه الرجس الخبيث أبو الأزهر فضرب الإناء برجله بشدّة ، فسقطت ثناياه في الإناء »[٢] .

وبقى العلويّون في سجن المنصور وهم يعانون الأهوال والرزايا ، فكانوا يتوضّأون في موضعهم حتّى اشتدّت عليهم الرائحة ، واحتال بعض المؤمنين فأدخل لهم شيئاً من الغالية ، فكانوا يدفعون بشمّها الروائح الكريهة ، ولكنّها لم تجدِ شيئاً حتّى تورّمت أقدامهم ، وسرى الورم إلى قلوبهم ، فمات أكثرهم ، وأمر الطاغية بهدم السجن على مَن بقي منهم ، فهدّم عليهم ، فماتوا وفيهم عبدالله بن الحسن[٣] .

ففي سبيل الله ما عانته ذرّيّة النبيّ صلى الله عليه وآله من المحن والمصائب من هؤلاء الطغمة الحاكمة التي هي امتداد لمؤتمر السقيفة والشورى ، ومن نتائجهما من دون شكّ .

وعلى أي حال ، فقد خيّم الحزن على المسلمين بهذه المأساة المروّعة ، وقد ترك بصمات الأسى في قلوب أولياء آل محمّد وشيعتهم ، فهذا **أبو فراس الحمداني** بعد أحقاب من السنين يذكر بمزيد من اللوعة ما حلّ بالسادة العلويّين من فادح الرزء . يقول :

بِئسَ الجَزاءُ جَزَيتُمْ في بَنِي حَسَنٍ	أَباهُمُ العَلَمَ الهادِي وَأُمَّهُمُ
لا بيعةٌ ردَعَتْكُمْ عَنْ دِمائِهِمُ	ولا يَمِينٌ ولا قُربىٰ ولا ذِمَمُ

---

(١) تاريخ الطبري : ٣٩٨/٦.

(٢) تاريخ الطبري : ٣٨٩/٦.

(٣) مروج الذهب : ٢٢٥/٣.

هَلّا صَفَحْتُمْ عَنِ الأَسْرىٰ بِلا سَبَبٍ — لِلصافِحينَ بِبَدْرٍ عن أَسِيرِكُمُ
هَلّا كَفَفْتُمْ عَنِ الدِّيباجِ سَوطَكُمُ — وَعَنْ بَناتِ رَسُولِ اللهِ شَتمَكُمُ
ما نُزِّهَتْ لِرَسولِ اللهِ مُهْجَتُهُ — عَنِ السِّياطِ فَهَلّا نُزِّهَ الحَرَمُ
ما نالَ مِنهُمْ بَنو حَرْبٍ وإنْ عَظُمَتْ — تِلكَ الجَرائِرُ إلّا دونَ نَيْلِكُمُ
كم غَدْرةٍ لَكُمُ في الدِّينِ واضِحَةٍ — وكَمْ دَمٍ لِرَسولِ اللهِ عِنْدَكُمُ
أَنْتُمْ لَهُ شِيعةٌ فِيما تَرَوْنَ وفي — أَظفارِكُم مِنْ بَنيهِ الطّاهِرِينَ دَمُ
هَيهاتَ لا قُرِّبَتْ قُربىٰ ولا رَحِمٌ — يَوماً إذا أَقْصَتِ الأَخلاقُ والشِّيَمُ
كانَتْ مَوَدّةُ سَلْمانٍ لَهُ رَحِماً — ولَمْ يَكُنْ بينَ نُوحٍ وابْنِهِ رَحِمُ[١]

أي جزاء جازى المنصور رسول الله ﷺ، فقد أباد عترته، ومثّل فيهم أقسى ما يكون التمثيل، وأنزل بهم أمرّ العقاب وأقساه.

مصادرة أموال العلويّين

ولمّا اعتقل الطاغية الذرّيّة الطاهرة وأودعهم في ظلمات السجون، أصدر أوامره بمصادرة جميع أموالهم المنقولة وغير المنقولة، وبيع رقيقهم[٢]، ونفّذ عملاؤه ذلك.

كما صادر أموال الإمام الصادق عليه السلام، وبعد هلاكه أرجعها المهدي إليه[٣].

وضع السادة في الاسطوانات

وبعد ما قضى المنصور على ثورة الزكيّين محمّد وإبراهيم استشرى شرّه،

---

(١) موسوعة الغدير: ٣/٢٣٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/٨١.

(٣) حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: ٢/٤٠٠.

فجعل يطلب السادة ، فمن ظفر به جعله في اسطوانة مجوّفة ، وبنى عليه ، وظفر بغلام من ولد الحسن ، وكان جميل الصورة ، فسلّمه إلى البنّاء وأمر أن يجعله في جوف اسطوانة ويبني عليه ، ووكّل من ثقاته من ينفّذ ذلك ، فأخذه البنّاء وجعله في اسطوانة إلّا أنّه رقّ عليه ، فترك له في الاسطوانة منفذاً يدخل منه الهواء ، وقال له : لا بأس عليك ، فاصبر فإنّي سأُخرجك في جوف الليل .

وفي الهزيع الأخير من الليل أخرجه وأوصاه بالخفاء لئلّا يفهم المنصور فينال منه عقوبة الإعدام ، وقال له : إنّما أخرجتك خفت أن يكون جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله خصمي .

وطلب منه الغلام أن يعرّف أُمّه خبره ، وهرب الغلام ولا يُعلم في أي أرض أقام فيها ، ومضى البنّاء إلى دار العلويّ فسمع دويّاً من البكاء ، فأخبر أُمّ العلويّ بخبره وانصرف عنها [١] .

استرحام العلويّين

وأخذ العلويّون يسترحمون هذا الممسوخ الذي لم يولد في الأرض مثله في جرائمه وموبقاته ، فلم تحرّكه العواطف الإنسانيّة ، فيصفح عن أحد ظفر به ، وبينما هو يسير في موكبه في بيت الله بادرت إليه **ابنة عبدالله بن الحسن** تسترحمه قائلة :

ارحَمْ صِغارَ بَني يَزيدٍ إنَّهُمْ ... يُتِموا لِفَقدِكَ لا لِفقدِ يَزيدِ

وارحَمْ كَبيراً سِنُّهُ مُتَهَدِّماً ... في السِّجنِ بَينَ سَلاسِلٍ وَقُيودِ

ولَئِنْ أَخَذْتَ بِجُرمِنا وجَزَيْتَنا ... لَنُقتَلَنَّ بِهِ بِكُلِّ صَعِيدِ

إنْ جُدْتَ بِالرَّحِمِ الْقَرِيبَةِ بينَنا ... ما جَدُّكُمْ مِنْ جَدِّنا بِبَعيدِ

---

(١) بحار الأنوار : ٣٠٦/٤٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام : ١١١/١.

فلم يتحرّك ضميره العفن من هذا الاستعطاف الرقيق ، فقال لها : « اذكرتنيه يابنت عبدالله »[١].

ثمّ أمر به فأُهدر في المطبق ، ولفظ فيه أنفاسه .

خزانة رؤوس العلويّين

أمّا حديث خزانة رؤوس العلويّين فهو ممّا يبعث على الأسى الحزن ، فقد ملأ إحدى خزائنه برؤوس السادة المكرّمين شيوخاً وشباباً وأطفالاً ، وأوصى ريطة زوجة ولده المهدي أن لا يفتحها ولده ولا يطّلع عليها إلّا بعد هلاكه .

وقد ذكر هذه الحادثة الطبري في تاريخه ، وهذا نصّها مع التصرّف :

لمّا عزم المنصور على الحجّ دعا ريطة بنت العبّاس امرأة المهدي ، وكان المهدي بالريّ ، فأوصاها بما أراد ، ودفع إليها مفاتيح الخزائن ، وتقدّم إليها وأحلفها ووكّد الأيمان أن لا تفتح تلك الخزائن ، ولا يطّلع عليها المهدي ولا هي ، إلّا أن يصحّ عندها موته ، فإذا صحّ ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما أحد حتّى يفتحاه.

فلمّا قدم المهدي دفعت إليه المفاتيح وأخبرته بما قال المنصور ، فلمّا هلك وانتهى موته إلى المهدي وولي الخلافة فتح باب الخزينة ومعه ريطة ، فإذا زجّ كبير فيه جماعة من الطالبيّين ، وفي آذانهم رقاع بأسمائهم وأنسابهم وفيهم أطفال وشباب وشيوخ ، فلمّا رأى المهدي ذلك فزع وأمر بدفنهم ، وعمل فوقهم دكّاناً[٢].

---

(١) جاء في تذكرة الخواصّ : ٢٣٠ : « أنّ قول فاطمة بنت عبدالله : وارحم صغار بني يزيد ، إنّما وقع من فلتات لسانها ، إذ لم يكن لعبدالله بن الحسن ابن اسمه يزيد ، ولا يعرف في آل أبي طالب من اسمه يزيد ، إلّا يزيد بن معاوية بن عبدالله بن جعفر ، وقد أنكر عليه بنو هاشم وهجروه لأجل ما سمّي به ».

(٢) تاريخ الطبري : ٤/٣٢٠.

لقد احتفظ المنصور بهذه الخزانة ليقدّمها هديّة لجدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويعدّها ذخراً يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ادّخرها ليوم الفصل ، يوم يعضّ الظالم على يديه .

لقد انطوت حياة المنصور وملؤها صفحات سود ملطّخة بدماء الأزكياء من ذرّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالويل له على ما اقترفه من الظلم والجور والاستبداد .

المهدي العبّاسي

ومثل آخر من رؤساء حكومة العبّاسيّين هو المهدي ، وهو امتداد للخطّ القرشي الذي جهد على إبعاد أهل البيت عليهم السلام عن المسرح السياسي للأُمّة .

وحينما تسلّم المهدي قيادة الأُمّة خلد إلى اللهو والفجور وإشاعة المجون ، وسلّم شؤون الدولة إلى رئيس وزرائه يعقوب بن داود ، وفيه يقول الشاعر :

بَنو أُمَيَّةَ هُبّوا طالَ نَومُكُمُ ... إنَّ الخَليفَةَ يَعقوبُ بْنُ داوودِ
ضاعَتْ خِلافَتُكُمْ يا قَومِ فَالتَمِسوا ... خَليفَةَ اللهِ بَينَ النّايِ وَالعودِ[1]

ويعتبر المهدي المؤسّس الأوّل للّهو في دولة بني العبّاس .

يقول الجاحظ : «إنّه احتجب بادئ بدء عن المغنّين ، ثمّ قال : إنّما اللذّة في مشاهدة السرور وفي الدنوّ ممّن سرّني ، فأنا من وراء فما خيرها ولذّتها»[2] .

وبلغه حسن صوت إبراهيم الموصلي وجوده غنائه ، فقرّبه إليه وأعلى من شأنه[3] .

واتّهم المهدي بالفسق والفجور والزنا بذات المحارم ، وفي ذلك يقول بشّار بن

---

(١) تاريخ أبي الفداء : ٢/١٠ .

(٢) التاج في أخلاق الملوك : ٣٥ .

(٣) الأغاني : ٥/٥ .

برد العقيلي :

خَـــليفَةٌ يَـــزْني بِـــعَمّاتِهِ ... يَـــلعَبُ بِـــالدَّفِّ وَبِـالصَّوْلَجانِ

أَبْـــدَلَنا اللهُ بِـــــهِ غَـــيرَهُ ... وَدَسَّ مُوسَىٰ في حَرِ الخَيزَرانِ (١)

وكان مولعاً بشرب الخمر ، فنهاه عن ذلك وزيره يعقوب بن داود قائلاً له : أبعد الصلاة في المسجد تفعل هذا ؟

فلم يعن به ، وسمع بذلك بعض الشعراء الماجنين فحبّذ له الاستمرار في شربها وعدم الاعتناء بقول يعقوب بن داود ، قائلاً :

فَدَعْ عَنكَ يَعقوبَ بْنَ داوودَ جانِباً ... وَأَقْبِلْ عَلىٰ صَهباءَ طَيِّبَةِ النَّشْـرِ (٢)

إنّ خواصّ بني العبّاس إنّما قاموا بالثورة ضدّ الأمويّين من أجل التشيّع والولاء لأهل البيت عليهم السلام ، إلّا أنّ العبّاسيّين اختلسوا الحكم منهم ، فأخذوا في دعم حكومة الشيخين .

وعلى أي حال ، فقد اُترعت نفس المهدي بالبغض والعداء لأهل البيت عليهم السلام ، وقد شاع ذلك في جميع الأوساط ، ممّا دعا بعض المرتزقة من الشعراء أن يتقرّبوا إليه وينالوا عطاياه وجوائزه بانتقاص أهل البيت عليهم السلام ، وكان منهم بشّار بن برد ، المعروف بالزندقة والإلحاد ، فقد أنشد قصيدته التي يقول فيها :

يابْنَ الَّذي وَرِثَ النَّبِيَّ مُـحَمَّداً ... دونَ الأَقارِبِ مِنْ ذَوي الأَرْحامِ

الوَحْيُ بَينَ بَني البَناتِ وَبَينَكُمْ ... قَطْعُ الخِصامِ فَلاتَ حينَ خِصامِ

ما لِـلنِّساءِ مَـعَ الرِّجـالِ فَـريضَةٌ ... نَزَلَتْ بِـذلِكَ سـورَةُ الأَنْـعامِ (٣)

---

(١) شذرات الذهب : ١ / ٢٦٥ .

(٢) الفخري : ١٦٧ .

(٣) ليس في سورة الأنعام ما يشير إلى هذا المعنى ، بل ليس فيها أي حكم من أحكام الميراث .

أَنّىٰ يَكونُ وَلَيْسَ ذاكَ بِكائِنٍ ... لِبَني البَناتِ وِراثَةُ الأَعْمامِ

فأجازه المهدي بسبعين ألف درهم تشجيعاً له ولغيره على انتقاص أهل البيت عليهم السلام (١).

ووفد عليه **مروان بن أبي حفصة** فأنشده قصيدته التي فيها :

هَلْ تَطْمِسونَ مِنَ السَّماءِ نُجومَها ... بِأَكُفِّكُمْ أَوْ تَسْتُرونَ هِلالَها

أَوْ تَدفَعونَ مَقالَةً عَنْ رَبِّكُمْ ... جِبرِيلُ بَلَّغَها النَّبِيَّ فَقالَها

شَهِدَتْ مِنَ الأَنْفالِ آخِرُ آيَةٍ ... بِتُراثِهِمْ فَأَرَدْتُمْ إِبْطالَها

فاستحسن المهدي هذا الشعر ، وزحف عن مصلّاه حتّى صار على البساط ، فقال له : كم بيت قصيدتك ؟

- مائة بيت .

فأمر له بمائة ألف درهم ، وقال له : إنّها لأوّل مرّة أعطيها شاعر في خلافة بني العبّاس (٢).

ومن بغضه للعلويّين أنّه وشي بوزيره ، وأقرب وزرائه إليه يعقوب بن داود أنّه شيعي فأراد اختباره ، فعهد إليه بإعدام شابّ علويّ ، فرقّ له ، وخاف من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قام بإعدامه ، فأطلق سراحه ، وقد جعل عليه عيناً ، فأخبره بذلك ، فأمر بإلقاء القبض على العلويّ ، وأحضر يعقوب ، فقال له : ما فعلت بالعلويّ ؟

فقال : قتلته .

ثمّ كرّر عليه القول ، فأقسم أنّه نفّذ فيه الإعدام ، فأمر المهدي بإحضار العلويّ ، فأسقط ما في يد يعقوب ، فأراد قتله ، إلّا أنّه عدل عن ذلك ، وأمر بسجنه مؤبّداً

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام : ١/٤٤٥.

(٢) تاريخ بغداد : ٣/١٤٢.

في المطبق ، وهو سجن مظلم بناه المنصور ، وصادر جميع أمواله ، ومكث في سجنه حتّى آل الأمر إلى الرشيد ، فتوسط في إطلاق سراحه يحيى بن خالد البرمكي ، فعفا عنه ، فخرج من السجن هزيل الجسم ، مكفوف البصر ، قد تردّى ثياب الذلّ والهوان(١).

هذه بعض مواقف المهدي مع العلويّين ، ولكنّه أقلّ قسوة من أبيه المنصور.

اعتقاله للإمام الكاظم عليه‌السلام

ولمّا شاع ذكر الإمام الكاظم عليه‌السلام في جميع الآفاق ، وتحدّثت الأندية عن سموّ مكانته ، وعظيم شأنه ، وسعة علومه ، حقد عليه المهدي ، فكتب إلى عامله على المدينة باعتقال الإمام وإرساله فوراً إلى بغداد ، وقام الوالي بتنفيذ ذلك ، وسافر الإمام مع حفنة من الشرطة والحرس حتّى انتهى إلى زبالة ، فاستقبله أبو خالد بكآبة وحزن ، فنظر إليه الإمام برفق وقال له : **ما لي أَراكَ مُنْقَبِضاً ؟**

- كيف لا أنقبض وأنت سائر إلى هذا الطاغية ، ولا آمن عليك.

وهدّأ الإمام روعته ، وأنّه لا ضير عليه في سفره ، وضرب له موعداً يلقاه في رجوعه إلى المدينة.

ولمّا انتهى الإمام إلى بغداد أمر باعتقاله وإيداعه في السجن ، ولمّا نام المهدي رأى في منامه الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام متأثّراً حزيناً ، وهو يقول له : **يا مُحَمَّدُ ، ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾**(٢).

فقام المهدي من نومه ، واستدعى الربيع ، وأمره بإحضار الإمام موسى ، فلمّا

---

(١) الوزراء والكتّاب : ١١٩ ـ ١٢١. الفخري : ١٦٣. وجاء في الفرج بعد الشدّة : ١٤١/١ أنّه مكث في الحبس ١٥ عاماً.

(٢) محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله ٤٧ : ٢٢.

أقبل قام إليه فعانقه وأجلسه إلى جانبه ، وقال له : يا أبا الحسن ، إنّي رأيت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب يقرأ علَيَّ الآية ، أفتؤمنني أن لا تخرج علَيَّ أو على أحد من ولدي ؟

فقال له الإمام : **وَاللهِ ما فَعَلْتُ ذلِكَ ، وَلَا هُوَ مِنْ شَأْني** .

فقال المهدي : صدقت ، وأمر الربيع بإعطائه ثلاثة آلاف دينار ، وجهّزه الربيع وسرّحه في الليل ، فما أصبح الصبح إلّا وهو في الطريق (١) .

وسارت القافلة تطوي البيداء حتّى انتهت إلى زبالة ، في اليوم الذي عيّنه الإمام لأبي خالد ، وكان يترقّب قدومه بفارغ الصبر ، واستقبل الإمام بسرور بالغ ، وأخذ يلثم يديه متبرّكاً بذلك .

فقال له الإمام : **إنَّ لَهُمْ إلَيَّ عَوْدَةً لا أَتَخَلَّصُ مِنْها** (٢) .

أشار الإمام إلى اعتقال هارون له وزجّه في سجونه حتّى لفظ الإمام أنفاسه الأخيرة مسموماً في السجن على يد الطاغية السندي بن شاهك ، وبهذا ينتهي بنا الحديث عن المهدي العبّاسي الذي هو أحد ملوك بني العبّاس الذين عاثوا في الأرض فساداً ، وهم امتداد للخطّ القرشي الذي أبى أن تجتمع النبوّة والخلافة في بيت واحد .

موسى الهادي

استقبل المسلمون حكومة موسى الهادي بكثير من القلق والوجوم ، وذلك لما عُرف به من الغرور والتمادي في الإثم والفجور ، وقد أسرف في سفك دماء السادة العلويّين ، وأنزل بهم العقاب الصارم بلا رحمة ورأفة .

---

(١) تاريخ بغداد : ١٣/٣٠ و ٣١. وفيات الأعيان : ٤/٤٩٣.

(٢) نور الأبصار : ١٣٦. بحار الأنوار : ٤٨/٢٢٩، الحديث ٣٢.

لقد تولّى موسى الهادي الخلافة وهو في ريعان الشباب ، فاستعلى على الرعيّة ، فكان فيما يقول المؤرّخون : إذا مشى مشت الشرطة بين يديه بالسيوف المشهورة والأعمدة والقسي الموتورة[١] ، ليظهر بذلك أُبهة المُلك والسلطان .

وقد تهالك على شرب الخمر ، فكان أوّل حاكم عبّاسي أُغري بالخمر[٢] ، وتبعه على ذلك الرشيد[٣] وسائر ملوك بني العبّاس .

وكان سيء الخلق شرساً. يقول الجاحظ : «كان الهادي شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الإغضاء ، سيء الظنّ ، قلّ من توقّاه ، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال»[٤] .

عداؤه للعلويّين

كان موسى الهادي كسلفه في عدائه السافر للسادة العلويّين ، فقد تنكّر لهم وأمعن في ظلمهم وإرهاقهم ، وقطع ما أجراه لهم المهدي من الأرزاق والأُعطية ، وكتب إلى جميع الآفاق في الإمعان في ظلمهم ، وحملهم إلى بغداد[٥] .

لقد قاسى العلويّون في الفترة القصيرة من حكمه أقسى ألوان الخوف والارهاب ، فقد أمعن في ظلمهم وإرغامهم على الذلّ ، وهذا ما دفعهم إلى إعلان الثورة عليه ، وأهمّ ما عانوه من هذا الطاغية :

---

(١) حضارة الإسلام في دار السلام : ٨٤.

(٢) الوزراء والملوك: ١٤٤.

(٣) تاريخ الطبري : ٤٨٩/٦. الأغاني : ٢١٦/٥.

(٤) التاج في أخلاق الملوك : ٣٥.

(٥) تاريخ اليعقوبي : ١٣٦/٣.

كارثة فخّ

وضارعت مأساة فخ كارثة كربلاء في آلامها وشجونها ، وقد تحدّث الإمام محمّد الجواد عليه السلام عن فجائعها بقوله : **لَمْ يَكُنْ لَنا بَعْدَ الطَّفِّ مَصْرَعٌ أَعْظَمُ مِنْ فَخٍّ**[١].

لقد اقترف العبّاسيّون في هذه الواقعة عين ما اقترفه الأمويّون من الجرائم والموبقات في مأساة كربلاء ، فرفعوا رؤوس السادة العلويّين على أطراف الرماح ومعها الأسرى من العلويّين يُطاف بهم في الأقطار والأمصار ، وتركوا جثثهم الزواكي في العراء لم يواروها ، كما فعل الأمويّون بالإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأنصاره .

أمّا زعيم الثورة فهو السيّد الجليل الحسين بن عليّ بن الحسن ابن الإمام الحسن عليه السلام ، وأُمّه العلويّة الزكيّة زينب بنت عبدالله بن الحسن ابن الإمام أمير المؤمنين ، قتل المنصور أباها وأخاها وزوجها وعمومتها ، وكانت تلبس المسوح ولا تجعل بين جسدها وبينها شعاراً حتّى لحقت بالله عزّ وجلّ ، وكانت تبكي أمرّ البكاء على أهلها حتّى يخشى عليها ، ولا تذكر المنصور بسوء تحرّجاً منه ، وكانت تقول : يا فاطر السماوات والأرض ، يا عالم الغيب والشهادة ، الحاكم بين عباده ، احكم بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الحاكمين[٢].

السبب في ثورته

ويعود السبب في ثورته إلى ما عاناه من الظلم ، فقد استعمل موسى الهادي والياً على المدينة عمر بن عبدالعزيز حفيد عمر بن الخطّاب ، وكان فظّاً غليظاً ، لا عهد له بالشرف والنبل ، وقد عُرف بالعداء العارم للإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ولأبنائه ، وقد ألزمهم بالمثول أمامه في كلّ يوم وفرض عليهم الرقابة الشخصيّة ، وجعل

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام : ١/٤٥٩.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام : ١/٤٦٠.

كلّ واحد منهم يكفل صاحبه بالحضور عنده ، وقبضت الشرطة على مجموعة من السادة فأمر بضربهم والتشهير بهم .

كما ولّى عليهم شخصاً من الأنصار ، فعرضهم يوم الجمعة ولم يأذن بالانصراف لهم ، وقد عانوا المذلّة والهوان ، فلم يجد الحسين وإخوانه بدّاً من الثورة على هذا الحاكم الظالم ، فجمع الناس وألقى عليهم خطاباً جاء فيه : « أيّها الناس ، أنا ابن رسول الله ﷺ ، وفي حرم رسول الله ﷺ ، أدعوكم إلى سنّة رسول الله ﷺ .

أيّها الناس ، أتطلبون آثار رسول الله ﷺ في الحجر والعود وتضيّعون بضعة منه »[١] .

وانبرت الجماهير تبايعه على كتاب الله تعالى وسنّة رسوله .

وقيل : إنّه قال لمن بايعه : « أُبايعكم على كتاب الله تعالى ، وسنّة رسول الله ، وعلى أن يُطاع الله عزّ اسمه ولا يعصى ، وأدعوكم للرضا من آل محمّد ، وعلى أن نعمل فيكم بكتاب الله تعالى ، وسنّة نبيّه ﷺ ، والعدل في الرعيّة ، والقسم بالسويّة ، وعلى أن تقيموا معنا ، وتجاهدوا عدوّنا ، فإن نحن وفينا لكم وفيتم لنا ، وإن نحن لم نف لكم فلا بيعة لنا عليكم »[٢] .

وحكى هذا الخطاب ما ينشده الحسين في ثورته من تحقيق العدالة الاجتماعيّة ، ورفع مستوى الحياة ، وتطبيق أحكام القرآن وسنّة الرسول ﷺ .

وبعد ما بايعه الناس خرج قاصداً الى مكّة وقد احتفّ به أهل بيته وأصحابه البالغ عددهم ثلاثمائة رجل واستخلف دينار الخزاعي حاكماً على المدينة ، حتّى انتهى إلى « فخّ » ، فعسكر فيها ، ولحقته جيوش العبّاسيّين بقيادة العبّاس بن محمّد ، وموسى بن عيسى ، والتحم الجيشان يوم التروية وقت صلاة الصبح ، فحملت

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ٤٨٤.

(٢) تاريخ الطبري : ٧/٢٥.

جيوش البغي على تلك الكوكبة المشرقة التي ثارت بوجه المنكر والبغي ، وإنقاذ المجتمع من الطغمة الفاسدة التي عاثت في الأرض فساداً .

وبعد صراع رهيب بين المعسكرين أصاب سهم غادر الحسين رماه به حمّاد التركي ، فاستشهد كما استشهد أكثر أصحابه ، واحتزّت رؤوسهم .

وعمد الجيش العبّاسي إلى دفن جثث من قتل منهم ، وتركوا الحسين وأصحابه مجزّرين كالأضاحي في صعيد فخّ ،كما ترك الأمويّون جثمان أبي الأحرار وأصحابه وأهل بيته في صعيد كربلاء لم يواروهم ، وأبرد برؤوس السادة العلويّين أوّلاً إلى موسى بن عيسى ، وكان الإمام موسى بن جعفر حاضراً ، فاندفع يؤبّنهم بحرارة وألم قائلاً :

إنّا للهِ وَإنّا إلَيْهِ راجِعونَ ، مَضىٰ وَاللهِ مُسْلِماً صالِحاً ، صَوّاماً قَوّاماً ، آمِراً بِالْمَعْروفِ ، ناهِياً عَنِ الْمُنْكَرِ ، ما كانَ في أَهْلِ بَيْتِهِ مِثْلُهُ[١] .

لقد كان قتل الحسين من الأحداث الجسام ، فقد انتهكت في قتله حرمة النبيّ صلى الله عليه وآله التي هي أوْلى بالرعاية وأحقّ بالاحترام من كلّ شيء .

وصول الأسرى إلى الهادي

ووصلت رؤوس السادة المعظّمين ومعهم أصحابهم الممجّدين إلى الطاغية الهادي ، ومعها الأسرى ، وقد قيّدوا بالحبال والسلاسل ، ووضع في أيديهم وأرجلهم الحديد ، وهم بحالة من الذلّ والهوان تتصدّع من هولها الجبال ، فأمر الطاغية المجرم بقتلهم ، فقتلوا صبراً وصلبوا على باب السجن[٢] .

وكان من الأسرى رجل أنهكته العلّة ، فقال للهادي يستعطفه : أنا مولاك يا أمير المؤمنين .

---

(١) و (٢) تاريخ الطبري : ٢٩/٧.

فصاح به الهادي : مولاي يخرج عليَّ ، وكان مع موسى سكّين ، فقال له : والله لأقطعنّك بهذا السكّين مفصلاً مفصلاً ، ومكث الرجل فغلبت عليه العلّة ومات حتف أنفه(١) .

ووضعت رؤوس السادة بين يدي الطاغية ، فجعل يترنّم بهذه الأبيات :

بَني عَمِّنا لا تَنطِقوا الشِّعْرَ بَعدَما ... دَفَنتُمْ بِصَحراءِ الغَميمِ القَوافِيا

فَلَسْنا كَمَن كُنتُمْ تَظُنّونَ فِعلَهُ ... فَيَقْبَلُ قِيلاً أَوْ يُحَكِّمُ قاضِيا

وَلكِنَّ حَدَّ السَّيف فيكُمْ مُسَلَّطٌ ... فَنَرضىٰ إِذا ما أَصْبَحَ السَّيْفُ راضِيا

فَإِنْ قُلتُمْ إِنّا ظُلِمْنا فَلَمْ نَكُنْ ... ظَلَمنا وَلكنّا أَسَأْنا التَّقاضِيا(٢)

ودلّ هذا الشعر على غروره وطيشه وتجرّده من كلّ نزعة إنسانيّة ، فقد حكت روحه الشريرة الانتقاميّة التي لم تألف الرحمة ولا الرأفة .

تهديده للإمام موسى عليه السلام

ولمّا اجتثّ موسى الهادي السادة العلويّين أخذ يتهدّد سيّد المسلمين وإمام الموحّدين موسى بن جعفر عليهما السلام ويقول : « والله ما خرج الحسين إلّا عن أمره ، ولا اتّبع إلّا محبّته لأنّه صاحب الوصيّة في أهل هذاالبيت ، قتلني الله إن أبقيت عليه» .

وأضاف يقول في تهديده : « افّ لولا ما سمعته من المهدي فيما أخبر به المنصور ماكان به جعفر ـ يعني الإمام الصادق عليه السلام ـ من الفضل المبرز عن أهله في دينه وعمله وفضله ، وما بلغني من السفّاح فيه من تعريضه وتفضيله ، لنبشت قبره وأحرقته بالنار إحراقاً » .

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ٤٥٣ .

(٢) مناقب آل أبي طالب : ٣٠٦/٤ .

وكان في مجلسه القاضي أبو يوسف ، فانبرى إليه يسكّن غضبه قائلاً : نساؤه طوالق ، وعتق جميع ما يملك من الرقيق ، وتصدّق بجميع ما يملك من المال ، وحبس دوابّه ، وعليه المشي إلى بيت الله الحرام إن كان مذهب موسى بن جعفر الخروج ، ولا يذهب إليه ، ولا مذهب أحد من ولده ، ولا ينبغي أن يكون هذا منهم .

ولم يزل يلطّف به حتّى سكن غضبه[١] .

وهذا من المواقف النبيلة التي يشكر عليها أبو يوسف .

استهزاء الإمام بتهديده

وانتهى تهديد الهادي إلى الإمام عليه السلام ، فسارع أهل بيته وأصحابه إليه ، وأشاروا عليه أن يختفي ليسلم من شرّ هذا الطاغية ، فلم يعن به الإمام ، وتمثّل بقول كعب بن مالك :

زَعَمَتْ سَخينَةُ[٢] أَنْ سَتَغلِبُ رَبَّها   وَلَيَغْلِبَنَّ مَغالِبُ الْغُلّابِ

كما تمثّل ببيت آخر :

زَعَمَ الفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتِلُ مِرْبَعاً   أَبْشِرْ بِطولِ سَلامَةٍ يا مِرْبَعُ[٣]

وحكى ذلك سخريّة الإمام بتهديد الطاغية له ، وأنّه لا يناله بشرّ ومكروه .

فزع الإمام إلى الله تعالى

وفزع الإمام إلى الله تعالى حينما هدّده الطاغية ، فدعا الله عزّ اسمه بالدعاء

---

(١) بحار الأنوار : ١٥١/٤٨ .

(٢) سخينة : طعام يتّخذ من الدقيق كانت قريش تُعيّر به حتّى صار لقباً لها .

(٣) مناقب آل أبي طالب : ٣٠٧/٤ . أمالي الطوسي : ٤٢١ ، الحديث ٩٤٤ .

المعروف بدعاء الجوشن الصغير وهو من أجلّ أدعية أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وبعد الفراغ منه التفت إلى أهل بيته وأصحابه قائلاً : **لِيُفَرِّجَ رَوْعُكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَأْتي أَوَّلُ كتابٍ مِنَ الْعِراقِ إِلَّا بِمَوْتِ مُوسَى الْهادي**.

وبهر أصحاب الإمام قائلين : ما ذاك أصلحك الله ؟

فأكّد الإمام هلاك هذا الطاغية قائلاً : **وَحُرْمَةُ صاحِبِ هٰذَا الْقَبْرِ** ـ وأشار إلى قبر النبيّ صلى الله عليه وآله ـ **قَدْ ماتَ مُوسَى الْهادي مِنْ يَوْمِهِ هٰذا ، وَاللهِ ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾**[١].

وتفرّق القوم ينتظرون ورود البريد من العراق ، فما كان بأسرع من أن وافاهم النبأ بهلاك الطاغية ، ونظم بعض أهل البيت هذه الكرامة التي جرت للإمام بقوله :

وَسارِيَةٍ[٢] لَمْ تَسْرِ في الأَرْضِ تبتَغي ... مَحِلّاً وَلَمْ يَقْطَعْ لَها البُعْدَ قاطِعُ

سَرَتْ حَيثُ لَمْ تَحدِ الرِّكابُ وَلَمْ تُنِخْ ... مَحِلّاً وَلَمْ يَقصُرْ لَها البُعدَ مانِعُ

تَفَتَّحُ أَبوابُ السَّماءِ وَدونَها ... إِذا قَرَعَ الأَبْوابَ مِنْهُنَّ قارِعُ

إِذا وَرَدَتْ لَمْ يَرْدُدِ اللهُ وَفْدَها ... عَلىٰ أَهْلِها وَاللهُ راءٍ وَسامِعُ

وَإِنّي لَأَرْجو اللهَ حَتّىٰ كَأَنَّني ... أَرىٰ بِجَميلِ الظَّنِّ ما هُوَ صانِعُ[٣]

وعلى أي حال ، فقد كان موسى الهادي عنصراً من عناصر الشرّ والبغي ، وكان حكمه من أسوء ما عاناه المسلمون من الظلم والجور.

---

(١) الذاريات ٥١ : ٢٣.

(٢) وسارية : أخذت من السير بالليل ، والمراد ربّ دعوة لم تجر في الأرض بل صعدت إلى السماء ، فلم يقطعها بعد المسافة فصعدت إلى الله تعالى واستجاب الدعاء.

(٣) مناقب آل أبي طالب : ٣٠٧/٤ ، وليس فيه البيتان الأوّلان.

هلاك الطاغية

وعجّل الله تعالى بروح هذا الطاغية إلى جهنّم ، وقد اختلف المؤرّخون في سبب وفاته ، فقيل : إنّها تستند إلى قرحة كانت في جوفه فهلك منها [١].

وصرّحت معظم المصادر أنّ أُمّه الخيزران غضبت عليه لأنّه قطع نفوذها لقصّة مشهورة ، وأنّها خافت على ولدها هارون الذي كان أحبّ إليها من الحياة [٢].

فأوعزت إلى جواريها بخنقه ، فبادرت الجواري إلى الإجهاز عليه وهو نائم [٣].

ومهما يكن الأمر ، فقد انطوت بهلاكه صفحة من الظلم والجور ، وكانت خلافته قصيرة الأمد سنة وبضعة أشهر [٤].

ولكنّها كانت مجهدة وثقيلة على المسلمين ، فقد رأوا رؤوس أبناء النبيّ صلى الله عليه وآله ترفع على الرماح ، يطاف بها في الأقطار والأمصار ، وأسراهم يقتلون ويصلبون ، ولم ترع فيهم حرمة النبيّ صلى الله عليه وآله التي هي أحقّ بالرعاية من كلّ شيء .

وبهذا نطوي الحديث عن بعض ملوك العبّاسيّين الذين حوّلوا بلاد المسلمين إلى واحة موحشة من الطغيان والجور والاستبداد ، ونعرض فيما يلي إلى لهو العبّاسيّين ومجونهم ، وإنفاقهم الأموال التي اختلسوها من بيت المال على شهواتهم في حين أنّ البؤس قد شاع في أيّام حكمهم ، وفيما يلي ذلك :

لهو العبّاسيّين ومجونهم

وتحوّلت قصور بني العبّاس إلى مسارح للّهو والمجون ، فلم يؤثر عن معظم

---

(١) تاريخ الطبري : ٣٣/٧.

(٢) تاريخ الطبري : ٣٦/٧.

(٣) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : ٤٨٣/١.

(٤) الوزراء والملوك : ١٧٥. تاريخ اليعقوبي : ١٣٨/٣.

ملوكهم إلى الابتعاد عمّا حرّم الله عزّ اسمه من المنكر والإثم ، فقد خلدوا إلى اللذّة والفساد والرقص والغناء .

وكان أوّل من فتح هذا الباب هو المهدي ، فقد أشاع الميوعة والتحلّل بين الناس ، وقد انتشر في عهده شعر بشّار في الغزل بالنساء ، وحفظ الكثيرون من شعره ، وقد ضجّ الأخيار والغيارى من غزله ومجونه وأدبه المكشوف ، فشكوه إلى المهدي ليمنعه من ذلك ، وإليه يشير بشّار بقوله :

قَدْ عِشْتَ بَيْنَ الرَّيحانِ وَالرَّوحِ وَالـ ... زَّهـرِ فـي ظِـلِّ مَـجلِسٍ حَسَـنِ
وَقَـدْ مَلَأْتَ البِلادَ ما بَينَ فَغْـ ... فـورَ إلى القَـيروانِ فَـاليَمَنِ[1]
بِشِعرٍ تُـصَلّي لَـهُ العَواتِـقُ وَالثَّـ ... ـبُ صَـلاةَ الغُـواةِ لِـلْوَثَنِ
ثُـمَّ نَـهاني المَـهدِيُّ فَـانْصَرَفَتْ ... نَـفْسي صَـنيعَ المُـوَفَّقِ اللَّـقِنِ

لقد نهاه المهدي في بادئ الأمر ، إلّا أنّه أطلق له العنان ، فراح المهدي يقيم في قصوره الغناء والرقص حتّى ظنّ الناس به الظنون ، وفي ذلك يشير بشّار بن برد العقيلي في هجائه له :

خَـليفَةٌ يَـزْني بِـعَمّاتِهِ ... يَـلعَبُ بِـالدَّفِّ وَبِـالصَّوْلَجانِ
أَبْـدَلَنا اللهُ بِـهِ غَـيرَهُ ... وَدَسَّ مُوسَىٰ في حَرِ الخَيزَرانِ[2]

ومن مجونهم ما رواه أحمد بن صدقة ، قال : « دخلت على المأمون في يوم السعانين[3] ، وبين يديه عشرون وصيفة روميّات مزنّرات ، قد تزيّن بالديباج الرومي ، وعلّقن في أعناقهن صلبان الذهب ، وفي أيديهنّ الخوص والزيتون ،

---

(١) فغفور : من ملوك الصين .

(٢) شذرات الذهب : ١/٢٦٥ .

(٣) **يوم السعانين** : من أعياد النصارى .

فقال المأمون: يا أحمد، قل في هؤلاء أبياتاً وغنّي فيها، فأنشده:

ظِباءٌ كَالدَّنانيرِ ... مِلاحٌ في المَقاصيرِ
جَلاهُنَّ السَّعانينُ ... عَلَينا في الزَّنانيرِ
وَقَدْ زَرَّفن أَصْداغاً ... كَأَذْنابِ الزَّرازيرِ
وَأَقْبَلْنَ بِأَوْساطٍ ... كَأَوْساطِ الزَّنابيرِ

فغنّاه بها فلم يزل يشرب وترقص الجواري بين يديه أنواع الرقص[١].

وقد وصف القاضي التنوخي عليّ بن محمّد قاضي البصرة خليفة زمانه العبّاسي ـ يعني المأمون ـ بقوله:

وإذا كان الخليفة قد نشأ نشأة لهو وطرب، فكيف بغيره من الوزراء والكتّاب والولاة والعمّال، بل قد سرى اللهو والانغماس في الملذّات إلى بعض المحدّثين، فقد ذكر الخطيب البغدادي عن المحدّث محمّد بن أنّه ليس بمحلّ لأن يؤخذ عنه العلم لأنّه كان من المتهتّكين بشرب الخمر ويجاهر بالفجور، وكان أبو نواس يزوره في الكوفة في بيت خمار يقال له جابر[٢].

وقد ظهر الطرب والغناء بصورة مكشوفة في أيام الرشيد، فقد صبّ الأموال الطائلة الهائلة إلى المغنّين والعابثين، فقد غنّاه إبراهيم الموصلي صوتاً من مختارات صوته، فطرب طرباً ما عليه من مزيد، واستفاده عامّة ليله وقال: ما رأيت صوتاً يجمع السخاء والطرب، وجودة الصنعة مثل هذا الصوت؟

---

(١) الأغاني: ٩/١٣٨.

(٢) الأوراق: ٦١.

فقال له إبراهيم : لو وهب لك إنسان مائتي ألف درهم أكنت أُسرّ بها أو بهذا الصوت ؟

قال الرشيد : والله لأنا أُسرّ بهذا الصوت منّي بألفي ألف .

قال إبراهيم : لِمَ لا تهب لي مائتي ألف ؟

فأمر له الرشيد بالوقت بمائتي ألف درهم(١) .

وخرج الرشيد مع إسحاق الموصلي للتنزّه إلى الحيرة ، فنظر إسحاق إلى بستان أعجبه ، فسأل عن صاحبها ، فأخبروه عنه ، وسأل عن البستان ، فقالوا : إنّها عرضت للبيع ، وسامها صاحبها بأربعة عشر ألف دينار ، وسأل عن اسم الضيعة فقيل له « شماري » ، فنظم ذلك بيتين من الشعر :

جِنانُ شماري لَيسَ مِثلَكِ مَنظَرٌ ... لَدى رَمِدٍ أَعْيا عَلَيهِ طَبيبُ

تُرابُكِ كافورٌ وَنورُكِ زُهرَةٌ ... لَها أَرَجٌ بَعدَ الهُدوءِ يَطيبُ

وغنّى الرشيد بهما ، فقال له : أين شماري ؟

فأخبره بذلك ، فأعطاه ثمنها(٢) .

والرشيد هو الذي جعل المغنّين طبقات ، فالطبقة الأُولى تضمّ إبراهيم الموصلي ، وابن جامع وزلزل ، وكان زلزل يضرب والموصلي وابن جامع يغنّيان .

الطبقة الثانية : تضمّ إسحاق وسليم بن سلام ، وعمرو الغزال .

الطبقة الثالثة : تضمّ أصحاب المعازف والطنابير(٣) .

وقد أمر المغنّين أن يختاروا له مائة صوت ، فاختاروها له ، ثمّ أمرهم أن يختاروا

---

(١) التاج في أخلاق الملوك : ٤١ .

(٢) الأغاني : ٥/١٧٤ .

(٣) التاج في أخلاق الملوك : ٤٠ ـ ٤٢ .

منها عشرة فاختاروها ، وثمّ أمر باختيار ثلاثة منها ففعلوا [١].

وقد عاهد إبراهيم الموصلي موسى الهادي أن لا يغنّي لأحد من بعده ، فلمّا توفّي انقطع إبراهيم عن الغناء وفاءً بالوعد ، ولكنّ الرشيد أمره أن يخيس بعهده ، فلم يستجب له ، فرماه بالسجن ، فاستجاب وغنّاه في مجلسه [٢].

ومن ولعه بالغناء أنه هام بحبّ ثلاث مغنّيات ، وقال فيهنّ :

مَلَكَ الثّلاثُ الآنِساتِ عِناني ... وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبي بِكُلِّ مَكانِ

ما لي تُطاوِعُني البَرِيَّةُ كُلُّها ... وَأُطيعُهُنَّ وَهُنَّ في عِصْيانِ

ما ذاكَ إِلّا أَنَّ سُلطانَ الهَوىٰ ... وَبِهِ قَوينَ أَعَزُّ مِنْ سُلطانِ [٣]

وكان من تسيّب الأخلاق ، وقلّة الوازع الديني أنّ إبراهيم بن سعد الزهيري ، وهو من علماء بغداد سأله الرشيد عن الغناء فأفتى بجوازه تقرّباً للرشيد ، وقد قصده بعض أصحاب الحديث ليسمع منه الحديث ، فرآه يغنّي ، فقال له : لقد كنت حريصاً على أن أسمع منك الحديث ، أمّا الآن فلا سمعت منك حديثاً واحداً .

فقال له الزهري بعنف : إذاً لا أفقد شخصك ، وعليَّ إن حدّثت حديثاً في بغداد لأُغنّي قبله ، ونقل حديثه إلى الرشيد ، فدعا به فسأله عن حديث المخزوميّة التي قطعها النبيّ صلى الله عليه وآله في سرقة الحلي ، فدعا إبراهيم بعود ، فقال الرشيد : أعود المجمر ؟

قال : لا ، ولكن عود الطرب ، فتبسّم الرشيد ، وعرف الأمر .

فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، لعلّه بلغك حديث السفيه الذي آذاني بالأمس ، وألجأني أن أحلف ؟

---

(١) الأغاني : ١/٧.

(٢) الأغاني : ٥/١٦٢.

(٣) فوات الوفيات : ٢/٣٩١.

قال الرشيد : نعم ، ودعا بعود فغنّاه إبراهيم .

يا أُمّ طلحة ، إنّ البين قد أظلم ، قلّ الثواء لئن كان الرحيل غداً ، وانبرى الرشيد قائلاً : مَن كان من فقهائكم يكره السماع ؟

- من ربطه الله .

وراح الرشيد يسأله : هل بلغك عن مالك بن أنس شيء ؟

لا والله إلّا أنّ أبي أخبرني أنّهم اجتمعوا في مدعاة كان في بني يربوع ، وهم يومئذٍ جلّة ، ومالك يومئذٍ أقلّهم في فقهه ، وقدره ، ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنّون ويلعبون ، ومع مالك دفّ مربّع وهو يغنيهم :

سُلَيْمى أَجمَعَتْ بَيْنا ... فَأَيْنَ لِقاؤُها أَيْنا

وَقَدْ قالَتْ لأَتْرابٍ ... لَها زُهْرٍ تَلاقَيْنا

تَعالَيْنا فَقَدْ طابَ ... لَنا العَيْشُ تَعالَيْنا (١)

حكت هذه البادرة مدى الاستهتار بالقيم الإسلاميّة حتّى مع حملة الحديث توصّلاً لهارون وطمعاً في صلاته وهداياه .

وعلى أي حال ، فإنّ الغناء قد شاع في أروقة الحكم وفي قصور الخلفاء ، فقد طلب هارون من أُخته عليّة أن تغنّيه ، فأقسمت له أنّها ستعمل شعراً ، وتصنع لحناً فيه ، فقالت من وقتها :

تَفْديك أُختُكَ قَدْ حَبَوْتَ بِنِعْمَةٍ ... لَسْنا نَعُدُّ لَها الزَّمانَ عَديلا

إِلّا الخُلودُ وَذاكَ قُرْبُكَ سَيِّدي ... لا زالَ قُربُكَ وَالبَقاءُ طَويلا

وَحَمِدْتُ رَبّي في إجابَةِ دَعوَتي ... فَرَأَيتُ حَمْدي عِنْدَ ذاكَ قَليلا

---

(١) تاريخ بغداد : ٦/٨٤.

وصنعت فيه لحناً من وقتها في مقام خفيف الرمل فطرب الرشيد عليه[١].

وكانت عليّة في طليعة المغنّيات في بغداد ، وقد شجّعها على ذلك إقبال أُسرتها عليه وعلى سائر ألوان الطرب والمجون ، وقد عيّر أبو فراس الحمداني الأُسرة العبّاسيّة بها بقوله :

مِنْكُمْ عُلَيَّةُ أَمْ مِنهُمْ ، وَكانَ لَكُمْ   شَيخُ المُغَنّينَ إِبراهيمُ أَمْ لَهُمُ

وعلى أي حال ، فقد شاع الغناء في العصر العبّاسي ، وعدّ حاجة من حاجات الناس الضروريّة ، فكان المغنّون والمغنّيات في الأماكن العامّة وفي الشوارع وفي بيوت الأغنياء والفقراء وشغف الناس به ، وبلغ من رواجه وإقبال العامّة عليه أنّه إذا غنّى المغنّي على الجسر اجتمع عليه جمهور حاشد من الناس ، حتّى يخاف من سقوط الجسر بهم[٢].

وحتّى كان بعضهم ينطح العمود برأسه من حسن الغناء[٣].

وانطبعت هذه الروح في نفس الأمين ، فكان مغرماً بالغناء ، فحينما كانت حجارة المنجنيق تتساقط عليه كانت إحدى الجواري تغنّيه[٤].

وبدل أن يتّجه الناس صوب العلم وتنمية الفكر اتّجهوا إلى الدعارة والمجون.

انتشار شرب الخمر

وانتشر شرب الخمر في أيّام الحكم العبّاسي ، وكان شيئاً مألوفاً عندهم لم يحفلوا بتحريم الله تعالى له ، وتشديده في عقاب شاربه وبائعه وغارسه.

---

(١) سيّدات البلاط العبّاسي : ٢٨.

(٢) الأغاني : ١٨/١٢٧.

(٣) ضحى الإسلام : ١/٩١.

(٤) التاج في أخلاق الملوك : ١٥٣.

وكان إهداء قناني الخمر عند العبّاسيّين من الأُمور السائدة ، وكان ممّا رواه المؤرّخون عن عبدالله بن أحمد بن حمدون النديم عن أبيه ، قال : « غزونا مع المأمون والمعتصم بلد الروم ، فأهدى إلينا محمّد بن عبدالملك شراباً عتيقاً ، وكتب معه هذه الأبيات :

ما إنْ تَرىٰ مِثْلي فَتىً	أَنْدى يَداً وَأَعمَّ جودا
أَسْفي الصَّديقَ بِبَلْدَةٍ	لَمْ يَروِ فيها الْماءَ عودا
صَفراءَ صافِيَةً كَأَ	نَّ عَلىٰ جَوانِبِها العُقودا
فَإِنِ اسْتَقَلَّ بِشُكْرِها	أَوْجَهْتُ بِالشُّكْرِ المَزيدا
خُذْها إِلَيْكَ كَأَنَّما	كَسَبَتْ زُجاجَتُها فَريدا
فَاجْعَلْ عَلَيكَ بِأَنْ تَقو	مَ بِشُكْرِها أَبَداً عُهودا (١)

وكان هارون يدعو خواصّ جواريه إذا أراد الشراب (٢) .

وكان يهدي لبعض أصحابه كؤوس الخمر مملوءة (٣) .

وعلى هذا الخطّ سار العبّاسيّون ، فكان الأمين لا ينقطع عن الشراب ، ووصفه وزيره الفضل بن الربيع بقوله : « قد ألهاه ـ يعني الأمين ـ كأسه وشغله قدحه ، فهو يجري في لهوه ، والأيّام تسرع في هلاكه ، وكان يشرب بأقداح من بلّور مرصّعة بالجوهر » (٤) ، وأمّا المأمون فقد أدمن على الشراب إلى أن توفّي (٥) .

---

(١) التحف والهدايا : ٢٤ و ٢٥ .

(٢) التاج في أخلاق الملوك : ٣٧ .

(٣) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه‌السلام : ٢/٦٨ .

(٤) تاريخ الطبري : ١٠/٢١٥ .

(٥) التاج في أخلاق الملوك : ١٥٣ .

ولمّا رأى الناس ملوك العبّاسيّين قد أقبلوا على شرب الخمر ، فكذلك شاع عندهم ، وتناولها الشعراء بالوصف الرائع حتّى قدّسها أبو نواس بقوله :

اثْنِ عَلى الخَمْرِ بِـآلآئِها   وَسَمِّها أَحْسَنَ أَسْمائِها

علّق الدكتور طه حسين على هذا البيت بقوله : « أليس الشطر الأوّل منه تسبيحاً للخمر ؟ أليس الشطر الثاني منه تقديساً للخمر ؟ أليس في هذا البيت على سهولته وبراءته من ألفاظ المجون ؟ أليس فيه الاستهزاء بالدين والسخرية منه ، أليس يذكّرك القرآن ؟ أليس يذكّرك قول الله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾[1] .

وجاهر أبو نواس بحرمتها وشرابها ، فقال :

فِإنْ قالوا حَرامٌ قُلْ حَرامٌ   وَلٰكنَّ اللَّذاذَةَ في الحَرامِ

وقال :

أَلا فَاسْقِني خَمْراً وَقُلْ لي هِيَ الخَمْرُ   وَلَا تَسْقِني سِرّاً إِذا أَمْكَنَ الْجَهْرُ

ولم يندفع أبو نواس إلى الجهر بشربها ووصفها بأحسن الأوصاف ، إلّا أنّه رأى العبّاسيّين تمادوا في شربها ، وتخلّوا عن المبادئ الإسلاميّة التي حرّمتها ، فقد جاء تحريمها صريحاً في القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[2] .

ولكنّ ملوك بني العبّاس لم يحفلوا بتحريم القرآن لها ، فعمدوا إلى شربها علناً في وضح النهار وفي غلس الليل .

ومن المؤسف أنّ يعدّ هؤلاء الملوك من أئمّة المسلمين ومن كبار قادتهم .

وقد سقنا ذلك لايضاح موقف شيعة أئمّة أهل البيت عليهم السلام من هؤلاء الملوك ،

---

(١) الأعراف ٧: ١٨٠.

(٢) المائدة ٥: ١٨٠.

وأنّهم لا يمثّلون الإسلام ولا علاقة لهم به بحال من الأحوال.

التلاعب باقتصاد المسلمين

وتلاعب العبّاسيّون باقتصاد المسلمين، ولم يعد للاقتصاد أي ظلّ، وهذا عرض موجوز لنفقاتهم وبذخهم، وما عاناه المسلمون من الضيق والحرمان.

الهبات والعطايا

غنّى إبراهيم بن المهدي العبّاسي محمّد الأمين صوتاً فأعطاه ثلاثمائة ألف ألف درهم، فاستكثرها إبراهيم، وقال له: يا سيّدي، لو أمرت بعشرين ألف ألف درهم.

فقال له الأمين: هل هي إلّا خراج بعض الكور[١].

ولمّا ولي المهدي العبّاسي الملك وزّع محتويات إحدى خزانات بيت المال بين مواليه وخدمه[٢].

ودخل أشجع الأسلمي على هارون، وكان ثقيلاً عليه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تأذن لي في إنشادك، فإن لم أظفر منك ببغيتي في هذا اليوم فلن أظفر بها.

قال الرشيد: وكيف ذاك؟

قال الأشجع: إنّي مدحتك بشعر لا أطمع من نفسي ولا من غيري بأجود منه، فإن أنا لم أحزك في هذا اليوم فقد حرمت منك ذلك إلى آخر الدهر.

فقال الرشيد: هات إذن نسمع.

وقرأ أشجع قصيدته إلى أن بلغ إلى قوله:

---

(١) الإسلام والحضارة العربيّة: ٢/٢٣١.

(٢) تاريخ بغداد: ٥/٣٩٣.

وَعَلىٰ عَدُوِّكَ يابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ ... رَصْدانِ ضَوءُ الصُّبْحِ وَالإِظْلامُ
فَـإِذا تَـنَبَّهَ رُعـتَهُ وَإِذا هَـدىٰ ... سَلَّتْ عَلَيهِ سُيوفَكَ الأَحْلامُ

واستحسن الرشيد هذا الشعر ، وقال له : هذا والله المدح الجيّد ، والمعنى الصحيح لا ما علّلت به مسامعي هذا اليوم ، ثمّ أنشده أشجع قصيدته التي يقول فيها :

مَلِكٌ أَبوهُ وَأُمُّهُ مِنْ نَبْعَةٍ ... مِنْها سِراجُ الأُمَّةِ الوَهّاجُ
شَرِبا بِمَكَّةَ في ذرا بطائحها ... ماءَ النُّبُوَّةِ لَيْسَ فيهِ مِزاجُ

وكاد الرشيد يطير فرحاً وسروراً بهذا المدح ، وقال لأشجع : لقد دخلت إليَّ وأنت أثقل الناس على قلبي ، وإنّك لتخرج من عندي وأنت أحبّ الناس إليَّ .

فقال أشجع : ما الذي أكسبتني هذه المنزلة ؟

فقال الرشيد : الغنى ، فاسأل ما بدا لك .

قال : ألف ألف درهم .

قال : ادفعوها إليه ، فدفعت »[1] .

وهكذا تلاعبوا بأموال المسلمين فأنفقوها على شهواتهم ورغباتهم ولياليهم الحمراء التي ما ذكروا الله تعالى فيها ، وإنّما أحيوها بالرقص والغناء .

الجواري

وأسرف ملوك العبّاسيّين باقتناء الجواري ، فالمتوكّل الذي اضطهد العلماء والمفكّرين ، وهدم قبر سيّد شباب أهل الجنّة الامام الحسين عليه السلام ، وأجرى عليه الماء كان يملك آلافاً من الجواري ، وقد ملأ بهنّ قصوره ، وله معهنّ من صنوف الخلاعة

---

(١) طبقات الشعراء : ٢٥٢ .

والتهتّك ما لا يوصف لفحشه وخساسته ، وقد بالغ الرشيد في اقتناء الجواري حتّى بلغ عددهنّ ألفي جارية على اختلاف أجناسهنّ ، فمنهنّ الروميّات ، والسنديّات ، والفارسيّات(١) .

وقد اشترى جارية من الموصلي بستّة وثلاثين ألف دينار(٢) .

وتحدّث البعض عن جارية حسناء تسمّى « خنث » وتلقّب بذات الخال ، وقد افتتن الشعراء بجمالها ، فاشتراها الرشيد بستّين ألف دينار وأدخلها في قصره(٣) .

وكان لا يترك جارية حسناء إلّا اشتراها مهما كانت قيمتها ، التي لا تقلّ عن عشرات الآلاف من الدراهم أو الدنانير(٤) .

وإذا استعرضنا وزراءه لرأينا العجب في اقتنائهم للجواري على اختلاف أنواعهنّ ، وغلوّ أثمانهنّ ، أمّا كلفة الجواري وعظم نفقاتهنّ من الحلي وغيره فقد كانت من بيت مال المسلمين الذي تسلّطوا عليه ، فأنفقوه على شهواتهم من دون أن ينفق منه على وسائل التعليم ومكافحة الفقر وتطوير البلاد .

الإسراف في مهر الزواج

وأسرف العبّاسيّون إلى حدّ غريب في الإنفاق على زواجهم ، فقد بذلوا الأموال الهائلة في زواجهم ، كان منهم المأمون حينما تزوّج ببوران ، فقد أمهرها ألف ألف دينار ، وشرط عليه أبوها الحسن بن سهل أن يبني بها في قريته الواقعة « بفم الصلح » ، فأجابه إلى ذلك ، وسافر إليه ، وصحب معه عدّة فرق من الجيش

---

(١) هارون الرشيد : ٨٥.

(٢) الأغاني : ٥/٧.

(٣) الأغاني : ٥/٨٥.

(٤) هارون الرشيد : ١/٢٦٤.

نثر عليهم ألف ألف دينار ، وبالإضافة إلى الجيش الذي كان معه ، فقد كان معه ثلاثون ألفاً من الغلمان الصغار والخدم الصغار والكبار ، وسبعة آلاف جارية ، أمّا عدد الجيش الذين كانوا معه فهم أربعمائة ألف فارس ، وثلاثمائة ألف راجل .

وكان الحسن بن سهل يذبح لضيوفه ثلاثين ألف رأس من الغنم وأربعمائة بقرة ، وأربعمائة جمل ، غير الدجاج ، وسمّى الناس هذه الدعوة بدعوة الإسلام ، ولكن هذا ليس من الإسلام في شيء ، فقد احتاط في أموال المسلمين وحرّم إنفاق أي شيء منها في غير صالحهم .

وحينما بنى المأمون بزوجته نثر من سطح دار الحسن بنادقاً من عنبر فاستخفّ بها الناس ، ونادى شخص من السطح كلّ من وقعت بيده بندقة فليكسرها ، فكسرها الناس فإذا فيها رقاع في بعضها حوالة بألف دينار ، وفي أُخرى خمسمائة دينار إلى أن تصل إلى المائة دينار ، وفي بعض الرقاع فرس ، وفي بعضها عشرة أثواب من الديباج ، وفي بعضها خمسة ثياب ، وفي بعضها غلام ، وفي بعضها جارية ، وكلّ من حصل على رقعة مضى بها إلى الديوان واستلم ما فيها [(١)] .

كما أنفق على قادة الجيش فقط خمسين ألف ألف درهم [(٢)] .

ولمّا كانت ليلة الزفاف أُجلست بوران على حصير منسوج من الذهب ، ودخل عليها المأمون وعمّاته ، وجمهرة من العبّاسيّات ، فنثر الحسن بن سهل على المأمون وزوجته ثلاثمائة لؤلوة ، وزن كلّ واحدة مثقال ، وما مدّ أحد يده لالتقاطها ، وأمرهم المأمون بأخذها فالتقطتها العبّاسيّات .

وقال المأمون : قاتل الله أبانؤاس كأنّه حضر مجلسنا حيث قال في وصف الخمرة :

---

(١) تاريخ الطبري : ١٤٩/٧ . الكامل في التاريخ : ٢٠٦/٤ .

(٢) تزيين الأسواق / الأنطاكي : ١١٧/٣ .

كَأَنَّ صُغرىٰ وَكُبرىٰ مِنْ فَواقِعِها حَصْباءُ دُرٍّ عَلىٰ أَرضٍ مِنَ الذَّهَبِ[١]

لقد أُنفقت هذه الأموال الهائلة على زواج المأمون ، وقد نهبت من بيت مال المسلمين.

ومن إنفاق العبّاسيّين على زواجهم ما صنعه الرشيد في زواجه بالستّ زبيدة ، فقد صنع وليمة لم يسبق مثلها في الإسلام ، وكان ممّا أنفقه أنّه أهدى للحاضرين زواجه أُوان من الذهب مملوءة بالفضّة ، وأوان من الفضّة مملوءة بالذهب ، ونوافج المسك ، وقطع العنبر[٢].

وهذا هو الإسراف والتبذير اللذين حرّمهما الإسلام.

مع الوزراء

ولم تقتصر الأموال الهائلة عند ملوك العبّاسيّين ، وإنّما توفّرت عند وزرائهم ، فكان لجعفر قصر غرم على بنائه عشرين مليون درهم[٣].

وذكر الدميري أنّ جعفر حاز ضياع الدنيا لنفسه ، فكان الرشيد لا يمرّ بضيعة ولا بستان إلّا قيل له : هذا لجعفر[٤].

وكانت لأُمّ جعفر مائة وصيفة ، لباس كلّ واحدة وحليّها خلاف لباس الأُخرى وحليّها[٥].

وقد أنفق البرامكة الأموال لكسب قلوب الناس ، واصطناع المكارم ، فقد طلب

---

(١) وفيات الأعيان : ٢٨٨/١.

(٢) الإسلام والحضارة العربيّة : ٢٣١/٢.

(٣) تاريخ الطبري : ٨٢/٧.

(٤) حياة الحيوان : ١٧٢/٢ ، وهذا هو السبب في اجتثاث هارون له.

(٥) الوزراء والملوك : ١٨.

شخص من الفضل بن يحيى أربعة آلاف درهم ، فوهبه ستّة عشر ألف درهم[١] .

وذكر الخطيب البغدادي أنّ صلات يحيى لمن تعرّض له في الطريق مائتا درهم ، وعرض له شاعر فأنشده :

يا سَمِيَّ الحَصورِ أُتيحَتْ ⁂ لَكَ مِنْ فَضْلِ رَبِّنا جَنَّتانِ

كُلُّ مَنْ مَرَّ في الطَّريقِ عَلَيكُمْ ⁂ فَلَهُ مِنْ نَوالِكُمْ مِئَتانِ

مائَتا دِرهَمٍ لِمِثْلي قَليلٌ ⁂ هِيَ مِنْكُمْ لِلْقابِسِ العَجْلانِ

فاستحسن يحيى شعره ، وأمر له بعشرين ألف درهم[٢] .

ومدح أبو ثمامة الفضل بن يحيى بهذه الأبيات :

لِلْفَضلِ يَومَ الطّالَقانِ وَقَبلَهُ ⁂ يَومٌ أَناخَ بِهِ عَلىٰ خاقانِ

ما مِثلُ يَومَيهِ اللَّذَيْنِ تَوالَيا ⁂ في غَزْوَتَيْنِ تَوالَتا يَوْمانِ

سَدَّ الثُّغورَ وَرَدَّ إِلْفَةَ هاشِمٍ ⁂ بَعدَ الشَّتاتِ فَشعبها متدان

عَصَمَتْ حُكومَتُهُ جَماعَةَ هاشِمٍ ⁂ مِنْ أَنْ يُجَرَّدَ بَيْنَها سفيانِ

تِلكَ الحُكومَةُ لَا الَّتي عَنْ لَبْسِها ⁂ عَظُمَ النَّبا وَتَفَرَّقَ الحَكَمانِ

فأعطاه الفضل مائة ألف درهم وخلع عليه[٣] .

ودخل على الفضل شاعر فبشّر الفضل بمولود له ، فقال الشاعر :

وَيَفرَحُ بِالمَوْلودِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ ⁂ بُغاةُ النَّدىٰ وَالرُّمحُ وَالسَّيفُ وَالنَّصْلُ

وَتَنْبَسِطُ الآمالُ فيهِ لِفَضْلِهِ ⁂ وَلا سِيَّما إِنْ كانَ مِنْ وَلَدِ الفَضْلِ

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : ٢/٥٠ .

(٢) تاريخ بغداد : ١٤ : ١٢٩ ـ ١٣٠ . وفيات الأعيان : ٢ : ٤٤ .

(٣) عصر المأمون : ١/١٤١ .

فأمر له بمائة ألف درهم ، ثمّ صنع له لحناً فأمر له بمائة ألف درهم أُخرى[١] .

وضرب جعفر لنفسه دنانير ذهبيّة كبيرة ليهبها للناس وكتب على وجهها :

وَأَصْفَرُ مِنْ ضَربِ دارِ المُلوكِ ... يَلوحُ عَلىٰ وَجْهِهِ جَعفَرُ
يَزيدُ عَلىٰ مائَةٍ واحِداً ... إذا نالَهُ مُعْسِرٌ يَيْسَرُ[٢]

وأغدق البرامكة الملايين من الأموال على الشعراء فمدحوهم بأجمل المدح وأثنوا عليهم أجمل الثناء ، وقد راج سوق الشعر والأدب ، وإلى ذلك يشير الشاعر بقوله :

ما لَقِينا مِنْ جودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيىٰ ... تَرَكَ النّاسَ كُلَّهُمْ شُعَراء

وعلى أي حال ، فإنّ الأموال الهائلة التي وهبها البرامكة للشعراء كانت من بيت مال المسلمين ، فإنّهم قبل تولّيهم للوزارة لم تكن عندهم ثروة ماليّة ، فقد كان خالد بن برمك والياً على طبرستان والريّ ودنباوند فحاسبه المنصور ، وأدانه بثلاثة آلاف ألف درهم ، وهدّده بالقتل ، ولم يستطع خالد تسديدها فاستعان بأصحابه فأمدّوه ببعضها وأمدّته الخيزران بقسم كبير منها ، وتوسّط له المهدي عند أبيه فعفا عن الباقي[٣] .

ولمّا أُسندت لخالد وأبنائه الوزارة صارت واردات الدولة بأيديهم ، وملكوا من الثراء العريض ما لا يحصى لكثرته ، فقد ملكوا القرى والبساتين والمستغلّات ما لا عدّ له ، ولا يعرف له ثمن ، وأصبح لهم في كلّ زاوية قرية عامرة لهم ، وعلى كلّ جدول بستان مثمر ، وفي كلّ مدينة أو قصبة لهم ملك ثمين . وبلغ ريعهم السنوي

---

(١) المستطرف : ٢٢٨/١ .

(٢) الوزراء والملوك : ٢٤١ .

(٣) الكامل في التاريخ : ٨/٦ .

مئات الملايين من الدنانير[١].

ومن المؤكّد أنّ هذا الثراء الفاحش كان ناشئاً من استئثارهم بأموال المسلمين ونهبهم لإمكانيّاتهم الاقتصاديّة مستغلّين نفوذهم السياسي في الدولة.

نساء العبّاسيّين

أمّا نساء العبّاسيّين فقد أسرفن في اقتناء أغلى أنواع الأثاث، فقد اصطفت زبيدة بساطاً من الديباج جمع صورة كلّ حيوان من جميع الأجناس، وصورة كلّ طائر من الذهب، وأعينها من اليواقيت والجواهر، أنفقت على صنعه مليون دينار[٢].

واشترت سبحة من ياقوت روماني كالبنادق اشترتها بخمسين ألف دينار[٣]، كما اتّخذت الخفاف المرصّعة بالجوهر تلبسها في خصرها[٤].

ومن إسرافها أنّها أرسلت خلف زوجها، فلمّا جاء غنّى لهما ابن جامع المغنّي من وراء ستار بهذه الأبيات:

ما رَعَدَتْ رَعدَةٌ وَلَا بَرِقَتْ لكِنَّها أنشَأَتْ لَنا خَلَقَه

الْماءُ يَجْري عَلى نِظامٍ لَهُ لَوْ يَجِدُ الماءُ مَخْرَقاً خَرَقَه

بِتْنا وَباتَتْ عَلىٰ نَمارِقِها حَتّىٰ بَدا الصُّبحُ عَينُهُ أَرِقَه

فأمرت زبيدة خادمها أن يدفع لابن جامع عن كلّ بيت مائة ألف درهم، فقال الرشيد: غلبتنا بنت أبي الفضل، وسبقتنا إلى كرم ضيفنا وجليسنا، وبعث لها مقابل

---

(١) الإمامة والسياسة: ٢/٣٢١.

(٢) حضارة الإسلام: ٩٥، نقلاً عن المستطرف: ٩٦.

(٣) بين الخلفاء والخلعاء: ٥٤.

(٤) بين الخلفاء والخلعاء: ٥٥.

ما أعطت من الدراهم دنانير[١].

ومن إسرافها وبذخها أنّ الرشيد كان يستطيب المكث في الرقّة، فقالت للشعراء: من يصف منكم مدينة السلام بأبيات يشوّق إليها أمير المؤمنين أغنيته؟

فقال في ذلك جماعة منهم النمري. قال:

ماذا بِبَغدادَ مِنْ طيبٍ أَفانينِ وَمِنْ عَجائِبَ للدُّنيا وَللدِّينِ
إِذا الصَّبا نَفَحَتْ وَاللَّيلُ مُعْتَكِرٌ فَحَرَّشَتْ بَينَ أَغْصانِ الرَّياحينِ

فاستحسنها الرشيد وقفل راجعاً إلى بغداد، فوهبت زبيدة للنمري جوهرة، ثمّ بعثت من اشتراها منه بثلاثمائة ألف درهم[٢].

واتّخذت ثوباً من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار[٣].

ومن إسرافها أنّها مرضت فعالجها الطبيب بختيشوع ثلاث مرّات، فأعطته في كلّ مرّة مائة ألف دينار[٤].

وكانت الخيزران أُمّ الرشيد تملك من الثراء ما يعادل نصف خراج المملكة العبّاسيّة، وقد أحصى جرجي زيدان ثروتها بقوله: «إنّ ثروة أكبر مموّلي العالم لا توازي ثروة الخيزران.

أمّا أُمّ محمّد ابن الواثق، فكانت ثروتها تساوي ثروة الخيزران، وكانت أُمّ المقتدر يشترى لها ثياب ديبقيّة يسمّونها ثياب النعال لأنّها كانت صفاقاً تقطع على مقدار النعال المحذوة وتطلى بالمسك والعنبر المذاب، وتجمد وتجعل بين كلّ طبقتين

---

(١) الأغاني: ٦/٧٧.
(٢) طبقات الشعراء: ٢٤٦.
(٣) الأغاني: ٦/٧٨.
(٤) مطالع البدور: ٢/١٣٨.

من الثياب من ذلك المطيّب ما له قوام ، وكانت نعال هذه السيّدة من هـذا المـتاع لا تلبسه إلّا عشرة أيّام أو حواليها وترمى ، فيأخذها الخزّان وغيرهم فيستخرجـون منها العنبر والمسك »[١] .

إنّ هذه الألبسة والهبات تصوّر لنا جانباً من الخيانة في أموال المسلمين الذيـن ائتمنوا عـليها لتـنفق عـلى مـحاربة الفـقر ، وتـطوير الحـياة الاجـتماعيّة والفكـريّة للمسلمين ، لكنّ العبّاسيّين قد خانوا الأمانة .

قصور العبّاسيّين

أنفق العبّاسيّون الأموال الهائلة في بناء قصورهم التي لم يشيّد مثلها في البلاد ، فبنوا في بغداد قصر الخلد تشبيهاً له بـجنّة الخـلد التـي وعـد الله تـعالى المـتّقين والصالحين من عباده .

ومن أعظم الأبنية وأهمّها « الديوان » الذي بناه الأمين ، ووصفه المؤرخون بأنّه : كالبيضة بياضاً ، ثمّ ذُهّب بالإبريز المخالف بينه باللّازورد ، وكان ذي أبواب عظام ، ومصاريع غلاظ تتلألأ فيها مسامير الذهب قد قمعت رؤوسـها بـالجوهر النـفيس ، وقد فرش بفُرُش كأنّها صِبغُ الدم ، منقّش بتصاوير الذهب ، وتماثيل العقيان ، ونضّد فيه العنبر الأشهب والكافور المصعّد »[٢] .

وهذا المتوكّل شيّد من القصور ما يعجز عنه البيان من حـيث السـعة والبـذخ ، وقد صنع بركة تسبح فيها جواريه ، وقد ظنّ البحتري أنّ الجنّ هي التي بنتها وبنت ما حولها من المقاصير ، ولنستمع لقوله :

كَـأَنَّ جِنَّ سُلَيمانَ الَّذينَ وَلَـوا   إبْـداعَـها فَـأَدَقُّوا فـي مَـعانِيها

---

(١) الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة : ٦٨٢ .

(٢) طبقات الشعراء / ابن المعتزّ : ٢٠٩ .

فَلَوْ تَمُرُّ بِها بَلقيسُ عَنْ عَرَضٍ قالَتْ هِيَ الصرحُ تَمْثيلاً وَتَشْبيها
إذا النُّجومُ تراءَتْ في جَوانِبِها لَيْلاً حَسِبْتَ سَماءً رُكِّبَتْ فيها
لَا يَبْلُغُ السَّمَكُ المَحْصورُ غايَتَها لِبُعدِ ما بَينَ قاصِيها وَدانِيها (١)

وبنى المتوكّل قصراً سمّاه « الكامل » ألبس سقوفه ذهباً ، وأبدع المهندسون في هندسته إلى حدّ عجيب ، ولعلّه يشير إليه البحتري بقوله :

لَبِسَتْ مِنَ الذَّهَبِ الصَّقيلِ سُقوفُهُ نَوراً يُضيءُ عَلىٰ الظَّلامِ الحافِلِ
وَتَنَفَّسَت فيهِ الصَّبا فَتَعَطَّفَتْ أَشْجارُهُ مِنْ حُيَّلٍ وَحَوامِلِ
مَشْيَ الْعَذارى الغِيدِ رِحْنَ عَشِيَّةً مِنْ بَينِ حالِيَةِ اليَدَيْنِ وَعاطِلِ (٢)

وقال ياقوت الحموي : « ولم يبن أحد من الخلفاء بسامرّاء من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكّل ، فمن ذلك القصر المعروف بالعروس ، أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم ، والجعفري عشرة آلاف ألف درهم ، والغريب عشرة آلاف ألف درهم ، والشّبداز عشرة آلاف ألف درهم ، والبرج عشرة آلاف ألف درهم ، والصبح خمسة آلاف ألف درهم » .

ويوالي تعداد القصور إلى أن يقول : فذلك الجميع مائتا ألف وتسعون ألف ألف درهم ، وتساوي نحو ثلاثمائة مليون درهم » (٣) .

والدرهم في ذلك العصر يساوي قيمة شاة ، وقد وصف عليّ بن الجهم أحد قصور المتوكّل بقوله :

بَدائِعٌ لَمْ تَرَها فارِسٌ وَلَا الرُّومُ في أَطْوَلِ أَعْمارِها

---

(١) ديوان البحتري : ٤/١٦٤٦ .

(٢) ديوان البحتري : ٣/٢٤١٧ .

(٣) معجم البلدان : ٣/١٧٥ .

صُحونٌ تُسافِرُ فيها العُيونُ	إذا ما تَجَلَّتْ لأَبْصارِها
وَقُبَّةُ مُلْكٍ كَأَنَّ النُّجو	مَ تُضيء إلَيها بِأَسْرارِها
فَوّارَةٌ ثَأرُها في السَّماءِ	فَلَيسَتْ تُقَصِّرُ عَنْ ثَأرِها
إذا أُوقِدَتْ نارُها بِالعِراقِ	أَضاءَ الحِجازَ سَنا نارِها
تَرُدُّ عَلى المُزْنِ ما أَنزَلَتْ	عَلى الأَرْضِ مِنْ صَوبِ أَقْطارِها
لَها شُرُفاتٌ كَأَنَّ الرَّبيعَ	كَساها الرِّياضُ بِأَنْوارِها (١)

ووصف الخطيب قصر المقتدر بما يبهر العقول ، وذلك عند زيارة ممثّل ملك الروم له ، فقال : «كان للمقتدر أحد عشر ألف خادم خصيّ ، وكذا من صقلبي ورومي وأسود ، وهذا جنس واحد ممّن تضمّه الدار ، فدع الغلمان وهم ألوف كثيرة والحواشي من الفحول ، وقد أمر المقتدر أن يطاف بالرسول في الدار وفتحت أمامه الخزائن والآلات ، وقد علّقت الستور ونظم جوهر الخلافة من قلّايات على درج غشيت بالديباج الأسود.

ولمّا دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها زاد تعجّبه لأنّ الشجرة كانت من الفضّة ووزنها خمسمائة ألف درهم ، عليها طيور مصنوعة من الفضّة تصفّر بحركات قد جعلت لها ، فكان عجبه بها أكثر من عجبه ممّا شاهده ، وكان عدد ما علّق في القصور من ستور الديباج المذهّبة التي صوّرت فيها الفيلة والخيل والجمال والسباع وغيرها ، وأضاف أنّ عدد تلك الستور ثمانية وثلاثين ألف ستر.

وأُدخل ممثّل ملك الروم إلى خان الخيل ، وهو مبني بأساطين من الرخام في الجانب الأيمن منه خمسمائة فرس ، عليها خمسمائة مركب من الذهب والفضّة ، وفي الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الديباج بالبراقع الطوال ، وكلّ فرس في يد

---

(١) معجم البلدان : ٣/١٧٦.

شكاري بالبزّة الجميلة.

ويستمرّ الخطيب في وصف ما في القصور من العجائب والغرائب البالغ عددها ثلاثة وعشرين قصراً، وفي كلّ قصر من الأُمور الغريبة، ثمّ وصلوا إلى الخليفة المقتدر وهو جالس على سرير الملك، وقد لبس الثياب الديبقيّة المطرّزة بالذهب، وتحيط به عقود من الجواهر الغالية الأثمان(١).

وهكذا كان ملوك العبّاسيّين قد غرقوا بالترف والبذخ، وضمّت قصورهم جميع ألوان الدعارة والمجون، لا ذكر فيها لله تعالى ولا ظلّ فيها للإسلام.

بؤس العامّة

ورزحت الأكثريّة الساحقة من الشعوب الإسلاميّة تحت كابوس من الفقر والحرمان، وقد صوّر بؤس العامّة وفقرها أبو العتاهية بقصيدته التي وجّهها إلى عاهل بغداد:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنّي الإما ... مَ نَصائِحاً مُتَوالِيَه

إِنّي أَرى الأَسْعارَ أَسْـ ... ـعارَ الرَّعيَّةِ غالِيَه

وَأَرى المَكاسِبَ نَزْرَةً ... وَأَرى الضَّرورَةَ فاشِيَه

وَأَرى غُمومَ الدَّهْرِ را ... ئِحَةً تَمُرُّ وَغادِيَه

وَأَرى اليَتامى في البُيو ... تِ البائِساتِ الخالِيَه

مِنْ بَينِ راجٍ لَمْ يَزَلْ ... يَسْمو إِلَيْكَ وَراجِيَه

يَشكونَ مَجْهَدَةً بِأَصْـ ... ـواتٍ ضِعافٍ عالِيَه

يَرجونَ رِفْدَكَ كَي يَرَوا ... مِمّا لَقوهُ العافِيَه

---

(١) تاريخ بغداد: ١/١٠٠ ـ ١٠٤.

وَمُـصَـيِّباتِ الجـوعِ إِذْ تُمْسي وَتُصْبحُ طاوِيَه
مَـنْ لِـلْبطونِ الجـائِعا تِ وَلِـلْجسومِ العـارِيَه
أَلْـقَيْتُ أَخْـباراً إِلَـيْـ ـكَ مِـنَ الرَّعـيَّةِ شـافِيَه

حكى هذا الشعر ما ألمّ بحياة الناس من ارتفاع الأسعار لما يأكلون ويلبسون ، وندرة المكاسب ، وانتشار الضرائب ، وأنّ بيوت اليتامى خالية من الطعام ، والرعيّة ترجو من الخليفة أن يسعفها ويرفع عنها هذه الضائقة الاقتصاديّة التي نهشت أجسامها .

ولندع الحديث لشاعر الشعب أبي العتاهية يحدّثنا ما يتمنّاه في العصر الذهبي الذي اصطلح بعض المؤرّخين على تسميته . يقول :

رَغـيفُ خُـبْزٍ يـابِسٍ تَـأْكُـلُهُ فـي زاوِيَـه
وَغُـرفَةٌ ضَـيِّقَةٌ نَـفْسُكَ فـيها خـالِيَه
أَوْ مَسْـجِدٌ بِـمَعزَلٍ عَنِ الوَرىٰ فـي نـاحِيَه
خَيرٌ مِنَ السّاعاتِ في فَـيءِ القُـصورِ العـالِيَه
فَـهذِهِ وَصِـيَّةٌ مُـخبِرَةٌ بِـحالِيَه
طوبى لِمَنْ يَسْمَعُها تِـلكَ لَـعَمْري كـافِيَه
فَاسْمَعْ لنُصْحِ مُشْفِقٍ يُدعىٰ أَبا العَتاهِيَه[1]

إنّ هذا التشاؤم من الحياة وحبّ العزلة عن الناس ، والرضا بأكل الخبز اليابس والسكن في البيوت الضيّقة ، أو الإقامة بالمساجد ، خير من الجلوس في ظلال القصور العالية ، ومن المؤكّد أنّ ذلك ناجم عن فساد الحكم القائم الذي وجّه اقتصاد

---

(١) ديوان أبي العتاهية : ٤٣٦ .

الأُمّة إلى العازفين والماجنين ، وإلى الدعارة واللهو ، وترك الناس يعيشون في بؤس وشقاء ، ويسكنون في أكواخ هزيلة حقيرة .

هذه لقطات من الأدب العبّاسي صوّر لنا بوضوح الحياة البائسة التي عاشها الأُدباء والعلماء في ظلّ حكمهم الذي استهدف المتع الخاصّة لهم ولأبنائهم وعملائهم ، والليالي الحمراء شاهدة على ذلك .

إنّ الإسلام بكلّ صراحة أهاب بولاة الأمر أن يوجّهوا المجتمع نحو ما تتطوّر به حياتهم الاقتصاديّة .

وقد نجم من تلك الحياة العابثة التي انتهجها العبّاسيّون أنّ كوكبة من الشعراء راحت تهجو الزمان . يقول شاعر :

يا زَماناً أَلبَسَ الأَحْرارَ ذُلّاً وَمَهانَه

لَستَ عِندي بِزَمانٍ إِنَّما أَنتَ زَمانَه

كَيفَ نَرجو مِنكَ خَيراً وَالْعُلا فيكَ مُهانَه

أَجُفوفٌ ما نَراهُ مِنكَ يَبْدو أَمْ مَجانَه

ولنستمع إلى العطوي الشاعر الكبير ، وهو يصوّر كآبته بهذه الأبيات الحزينة ، يقول :

هَجَمَ البَردُ مُسْرِعاً وَيَدَيَّ صُفْرٌ وَجِسمِيَ عارٍ بِغَيْرِ دِثارِ

فَتَستَّرْتُ مِنْهُ طيلَةَ التَّشارِ ينِ إِلىٰ أَنْ تَهَتَّكَتْ أَسْتاري

وَنَسَجْتُ الأَطْمارَ بِالخَيْطِ وَالإِ بْرَةِ حَتّى عَريتُ مِنْ أَطْماري

وَسَعى القَمْلُ مِنْ دُروزِ قَميصِـ ـي مِنْ صِغارٍ ما بَيْنَهُمْ وَكِبارِ

يَتَساعَونَ في ثِيابي إِلىٰ رَأْ سي قِطاراً تَجولُ بَعدَ قِطارِ

ثُمَّ وافى كانون وَاسْوَدَّ وَجْهي وَأَتاني ما كانَ مِنْهُ حَذارِ

ويستمرّ في وصف بؤسه وفقره قائلاً :

لَوْ تَأَمَّلتَ صورَتي وَرُجوعي　　　حينَ أَمْسي إِلى ربوعٍ قِفارِ
أَنا وَحدي فيهِ وَهَلْ فيهِ فَضْلٌ　　　لِجُلوسِ الأَنيسِ وَالزُّوّارِ (١)

لقد بلغ الفقر بهذا الشاعر البائس إلى مستوى سحيق ، فلم يملك من متع الدنيا ما يستر به بدنه ، ويتّقي به من شدّة البرد ، فكان جسمه عارياً ليس عنده إلّا أطماراً بالية قد سرى فيها القمل كأنّه قطار تجوّل في جسمه ، كما صوّر في البيتين الأخيرين شدّة بؤسه فهو يأوي إلى ربوع خالية ليس فيها أحد يتحدّث معه ، ولنستمع إلى شكوى أبي العيناء محمّد بن القاسم يقول :

الْحَمْدُ للهِ لَيسَ لي فَرَسٌ　　　وَعَلى بابِ مَنزِلي حَرَسُ
وَلَا غُلامٌ إِذا هَتَفْتُ بِهِ　　　بادَرَ نَحْوي كَأَنَّهُ قَبَسُ
ابْني غُلامي وَزَوجَتي أَمَتي　　　مَلَّكَنيهَا المُلّاكُ وَالعُرُسُ (٢)
غَنَّيتُ بِاليَأْسِ وَاعْتَصَمْتُ بِهِ　　　عَنْ كُلِّ فَردٍ بِوَجهِهِ عَبَسُ
فَما يَراني بِبابِهِث أَبَداً　　　طَلَقُ المُحَيّا سَمْحٌ وَلَا شَرِسُ (٣)

إنّ هذا الشاعر لا يملك أيّة متعة من متع الدنيا ، فليس عنده فرس ولا خادم ولا أمة سوى ولده وزوجته ، وقد استغنى بإبائه وشرفه عن الوقوف بأبواب الملوك .

ومن أُدباء العصر العبّاسي الذين لم يركعوا للسلطة هو المهمزي ، ولنستمع إليه يحدّثنا عن فقره بقوله :

تَسامى الرِّجالُ عَلىٰ خَيلِهِمْ　　　وَرِجْلِيَ مِنْ بَيْنِهِمْ حافِيَة

---

(١) ديوان العطوي : ٨١.

(٢) العرس : طعام الوليمة.

(٣) معجم الأُدباء : ٣٠٤/١٧.

فَـإنْ كُـنْتَ حـامِلنا رَبَّـنا وَإلّا فَأرجَل بَـني الزّانِـيَة[١]

ومن كبار علماء العصر العبّاسي في أدبه وعلمه هو الجاحظ ، وقد مني بالبؤس والحرمان ، يقول :

أَقـامَ بِـدارِ الخَـفْضِ راضٍ بِـحَظِّهِ وَذوالحِرصِ يَسْري حَيثُ لا أَحَدٌ يَدْري
يَـظُنُّ الرِّضـا بِـالقَسْمِ شَـيْئاً مُـهَوِّناً وَدونَ الرِّضـا كَـأْسٌ أَمَـرُّ مِـنَ الصَّبْرِ
جَزِعْتُ فَلَمْ أَعْتِبْ فَلَوْ كُنتُ ذا حِجاً لَـقَنَّعتُ نَـفْسي بِـالْقَليلِ مِـنَ الوَفْـرِ
أَظُـنُّ غَـبِيَّ القَـوْمِ أَرْغَـدَ عَـيشَةٍ وَأَجـدَلَ فـي حـالِ اليَسـارَةِ وَالعُسْـرِ
تَـمُرُّ بِـهِ الأَحْـداثُ تَـرعَدُ مَـرَّةً وَتَبرُقُ أُخْرى بِـالخُطوبِ وَمـا يَـدْري
سَـواءٌ عَـلى الأَيّامِ صاحِبُ حِنْكَةٍ وَآخَـرُ كـابٍ لَا يَـريشُ وَلَا يَـبْري[٢]
فَـلَوْ شـاءَ رَبّـي لَـمْ أَكُـنْ ذا حَـفيظَةٍ طَـلوباً لِـغايات المَكـارِمِ وَالفَـخْرِ
خَـضَعْتُ لِـبَعْضِ القَـوْمِ أَرْجـو نَـوالَـهُ وَقَـدْ كُـنْتُ لا أُعْـطي الْـمَنِيَّةَ بِـالقَسْرِ
فَـلَمّا رَأَيْتُ الْـمَرْءَ يَـبْذِلُ بِشْـرَهُ وَيَـجْعَلُ حُسْـنَ البِشْـرِ واقِـيَةَ التِّـبْرِ[٣]
رَبعْتُ عَلىٰ ظِلعي وَراجَـعْتُ مَـنْزِلي فَـصِرْتُ حَـليفاً لِـلدِّراسَـةِ وَالفِكْـرِ

وصوّر الجاحظ الذي هو من حسنات عصره ما مُني بـه مـن الكـآبة والحـزن ، فقد قبع بدار الهوان والذلّ في حين أنّ الجهّال الذين لا يملكون أي وعي قد توفّرت لهم متع الدنيا ومباهجها ، وقد طال عتاب الجاحظ على الأيّام التي أوجبت خضوعه لبعض الناس راجياً نوالهم ومعروفهم ، إلّا أنّه لمّا تبيّن له أنّه يبذل بذلك لهم كرامته انصرف عنهم واتّجه صوب العلم .

---

(١) ديوان المهمزي : ٨٨.

(٢) **الكاب** : مَن كان في غمّ .

(٣) **التبر** ـ بكسر التاء ـ : وهو ما كان من الذهب غير مضروب ، فإذا ضرب دنانير فهو عين .

ومن أُدباء العصر العبّاسي يعقوب بن يزيد التمّار ، فقد كان يسكن في دار تملكها السلطة ، ويدفع لها سبعين درهماً عن أُجرتها شهرين ، وهو لا يتمكّن من دفعها ، وقد صوّر حالته بهذه الأبيات :

يـا رَبَّ لَا فَـرَجٌ مِـمّا أُكـابِدُهُ ... بِسُرَّ مَنْ رأى عَلى عُسْري وَإِقْتارِي

لا راحَةٌ قَبْلَ وَقْتِ المَوْتِ تُدْرِكُني ... فَـيَسْتَريحُ فُـؤادٌ غَـيْرُ صَـبّارِ

قَدْ شَيَّبَتْ مَفْرَقي سَبْعونَ تَلزِمُني ... في مَنزِلٍ وَضحٍ مِنْ نَقْدِ قَسْطارِ[1]

جُـباتُها قَـبْلَ فَـتْحِ النَّـجْمِ وافِـيَةٌ ... وَلَـوْ تَـعَيَّنْتَ ديـناراً بِـدينارِ[2]

يَـطولُ هَـمّي وَأَحْـزاني إِذا فَتَحوا ... نَـجْماً وَأَبْكي بِدَمْعٍ مُسْبِلٍ جارِي

أَموتُ فـي كُـلِّ يَـوْمٍ مَـوْتَةً فَـإِذا ... لاحَ الهِـلالُ فَـمَنْشورٌ بِـمِنْشارِ

تَـغْدو عَـلَيَّ وُجـوهٌ مِـنْ مَـغارِبَةٍ ... كَـأَنَّما طُـلِيَتْ بِـالزِّفْتِ وَالقـارِ

إِذا تَـغَيَّبْتُ عَـنْهُمْ سـاعَةً كَسَروا ... بـابي بِـأَرْزِبَةٍ أَوْ فَـأْسِ نَـجّارِ[3]

وَإِنْ ظَـهَرْتُ فَـقَلْعُ البـابِ أَيْسَـرُهُ ... وَالحَـبْسُ إِنْ لَـمْ تَـخْشَ رِقَّـةَ الجارِ

فَـإِنْ أُعـانُ بِـقَرْضٍ كَـفَّ أَيْـدِيَهُمْ ... أَوْ لا فَـإِنّي غَداً مِنْ كِسْوَتي عـاري

سَلِ المُنادِي الَّذي نادىٰ عَلىٰ سَلَبي ... كَمْ جُهْدُ ما بَلَغَتْ في السّوقِ أَطْماري

إِنْ قيلَ عِنْدَ وَفـاتي أَوْصِ قُلْتُ لَهُمْ ... شَـهِدْتُ أَنَّ إِلـٰهي الخـالِقُ البـاري

وَأَنَّ أَحْـمَدَ عَـبْدُاللهِ أَرْسَـلَهُ ... وَإِنَّ سَـبْعينَ حَـقّاً أُجْـرَةَ الدّارِ[4]

وعانى هذا الشاعر أشقّ ما تكون المعاناة من أُجرة داره التي تملكها الدولة ،

---

(١) **القسطار** : الذي يعلم سلامة الدراهم وزيفها .

(٢) **النجم** : هو الوقت المعيّن لأداء الدين .

(٣) **الأرزبة** : المطرقة الكبيرة التي تكسر بها الحجارة .

(٤) سامرّاء في أدب القرن الثالث الهجري : ١٧٢ .

فهو لا يستطيع دفع الأُجور في الوقت المقرّر، وقد طافت به الآلام والمحن، ففي كلّ يوم يموت من شدّة ما يعانيه من العجز من تسديد الأُجور، وإذا حان الوقت المعيّن لدفعها ولم يؤدّها أسرعت إليه الجباة السود الذين طليت وجوههم بالزفت فكسروا باب داره وحمّلوه رهقاً وحبسوه وأخذوا متاع داره ليستوفوا ما عليه من الديون، وإذا حلّت وفاته وأراد أن يوصي أوصى بأنّه يشهد الشهادتين وأنّه مدين للدولة سبعين درهماً.

أرأيتم ماكان يعانيه رجال الأدب والعلم في العصر العبّاسي من الضيق والحرمان، في حين أنّ ذهب الأرض كان بأيدي ملوك العبّاسيّين الذين جهدوا على ظلم الناس وإرغامهم على الذل والعبوديّة، ونهب أقوات الناس وهباتها إلى العابثين والماجنين.

ومن بؤس العلماء والأُدباء في العصر العبّاسي أنّ أبا عليّ الغالي الذي هو من أعلام عصره في أدبه وفضله باع كتبه وهو أعزّ شيء عنده، وفي ذلك يقول:

أَنِستُ بِها عِشرينَ حَوْلاً وَبِعتُها ... فَقَدْ طالَ وَجْدي بَعْدَها وَحَنيني
وَما كانَ ظَنّي أَنَّني سَأَبيعُها ... وَلَوْ خَلَّدَتْني في السُّجونِ دُيوني
وَلكِنْ لجِوعٍ وَافْتِقارٍ وَصِبيَةٍ ... صِغارٍ عَلَيْهِمْ تَسْتَهِلُّ جُفوني[1]

ويقول العطوي:

يا أَيُّها الجامِعُ عِلْماً جَمّاً ... امْضِ إلى الحِرْفَةِ قُدْماً قُدْما
حُرِمْتَ وَفْراً وَرُزِقْتَ فَهْماً ... فَوَالَّذي أَجْزَلَ مِنْهُ الْقِسْما
لَأَجْهَدَنَّ أَنْ يَكونَ من خَصْما[2]

---

(١) المنتظم: ١٧٤/٨. وفيات الأعيان: ٣١٦/٣.

(٢) ديوان العطوي: ٨٧.

ومعنى هذا الشعر أنّ طلب العلم أصبح من الحرف الكاسدة، وأنّ طالبه يمنى بالفقر والحرمان، وقد نجم من ذلك أنّ كوكبة من الشعراء والأدباء دعوا إلى التقشّف والزهد في الدنيا، فهذا إبراهيم بن الأدهم يردّد هذا البيت:

اتَّخِذِ اللهَ صاحِباً وَدَعِ النّاسَ جانِبا

وكان يلبس في الشتاء فرواً ليس تحته قميص[1] مبالغة منه في الزهد، وكان معروف الكرخي يبكي وينشد في السحر:

أَيَّ شَيْءٍ تُريدُ مِنّي الذُّنوبُ شُغِفَتْ بي فَلَيسَ عَنّي تَغيبُ
ما يَضُرُّ الذُّنوبَ لَوْ أَعْتَقَتْني رَحْمَةً بي فَقَدْ عَلاني المَشيبُ[2]

وكان بشر بن الحارث ينشد هذه الأبيات التي تدعو إلى الزهد:

قَطْعُ اللَّيالي مَعَ الأَيّامِ في خُلُقٍ وَالقَومُ تَحتَ رِواقِ الهَمِّ وَالقَلَقِ
أَحرىٰ وَأَعْذَرُ لي مِنْ أَنْ يُقالَ غَداً إِنّي التَمَسْتُ الغِنىٰ مِنْ كَفِّ مُخْتَلِقِ
قالوا قَنَعْتَ بِذا؟ قُلتُ القنوعُ غِنىً لَيسَ الغِنى كَثْرَةُ الأَمْوالِ وَالوَرَقِ
رَضيتُ بِاللهِ في عُسْري وَفي يُسري فَلَسْتُ أَسْلُكُ إِلّا أَوْضَحَ الطُّرُقِ[3]

وقال العطوي:

يَأْمُلُ المَرْءُ أَبْعَدَ الآمالِ وَهُوَ رَهْنٌ بِأَقْرَبِ الآجالِ
لَوْ رَأى المَرْءُ رَأْيَ عَيْنَيهِ يَوْماً كَيفَ صَولُ الآجالِ بِالآمالِ
لَتَناهىٰ وَأَقْصَرَ الخَطْوَ في اللَّـ ـهْوِ وَلَمْ يَغْتَرر بِدارِ الزَّوالِ

---

(١) حلية الأولياء: ٣٦٧/١.

(٢) حلية الأولياء: ١٨١/٢.

(٣) صفة الصفوة: ١٨٩/٢.

نَحْنُ نَلْهو وَنَحْنُ يُحْصى عَلَيْنا ... حَرَكاتُ الإدْبارِ وَالْإِقْبالِ
فَإِذا ساعَةُ المَنِيَّةِ حَمَّتْ ... لَمْ يَكُنْ غَيرُ عاثِرٍ بِمَقالِ
أَيَّ شَيْءٍ تَرَكْتَ يا عارفاً بِاللّـ ... ـهِ لِلْمُمْتَرينِ وَالجُهّالِ ؟
تَرْكَبُ الأَمْرَ لَيسَ فيهِ سِوى أَنَّـ ... ـكَ تَهْواهُ فِعْلَ أَهْلِ الضَّلالِ
أَنْتَ ضَيْفٌ وَكُلُّ ضَيْفٍ وَإِنْ طا ... لَتْ لَيالِيهِ مُؤْذِنٌ بِارْتِحالِ
أَيُّها الجامِعُ الَّذي لَيْسَ يَدْري ... كَيفَ حَوْزُ الأَهْلينَ للأَمْوالِ
يَسْتَوي في الْمَماتِ وَالبَعْثِ والْمَوْ ... قِفِ أَهْلُ الإِكْثارِ وَالإِقْلالِ
ثُمَّ لَا يُقْسَمونَ لِلنّارِ وَالْجَـ ... ـنَّةِ إِلّا بِسالِفِ الأَعْمالِ(١)

إنّ الدعوة إلى الزهد والتقشّف في العصر العبّاسي كانت ناجمة من إقبال العبّاسيّين على اللهو واللذات ، وإعراضهم عن الله تعالى واليوم الآخر.

جباية الخراج

من مظالم العصر العبّاسي جباية الخراج ، فقد أسندت الحكومات العبّاسيّة هذه الوظيفة إلى عصابه من القساة الذين لم يألفوا الرحمة والرأفة ، وكان يأخذون أموال الخراج وسائر الضرائب بقسوة وعنف ، وقد صوّر ذلك ابن المعتزّ في اُرجوزته :

فَكَمْ وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ نَبيلٍ ... ذي هَيبَةٍ وَمَرْكَبٍ جَليلِ
رَأَيْتُهُ يَعْتَلُّ بِالأَعْوانِ ... إِلى الحُبوسِ وَإِلى الدّيوانِ
وَجَعَلوا في يَدِهِ حِبالاً ... مِنْ قُنَّبٍ يُقَطِّعُ الأَوْصالا
وَعَلَّقوهُ في عُرى الجِدارِ ... كَأَنَّهُ بَرادَةٌ في الدّارِ

(١) تاريخ بغداد : ١٣٨/٣.

وَصَفَقوا قَفاهُ صَفْقَ الطَّبْلِ نَصْباً بِعَينِ شامِتٍ وَخِلِّ
وَصَبَّ سَجّانٌ عَلَيْهِ الزَّيْتا فَصارَ بَعدَ بَزَّةٍ كَمَيْتا [١]

حكت هذه الأبيات ما عاناه الناس من الظلم الفاحش في أخذ الخراج والضرائب منهم.

ويستمرّ ابن المعتزّ في وصف الأحداث الرهيبة التي ترافق أخذ الخراج قائلاً:

وَأَسْرَفوا في لَكْمِهِ وَدَفْعِهِ وَانْطَلَقَتْ أَكُفُّهُمْ في صَفْعِهِ
وَلَمْ يَزَلْ في أَضْيَقِ الحُبوسِ حَتّىٰ رَمىٰ إِلَيْهِمُ بِالكِيسِ [٢]

أرأيتم هذا الجور والطغيان وعدم احترام الناس، وضياع كرامتهم.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن الظلم الهائل الذي صبّه العبّاسيّون على الناس عامّة، وعلى السادة العلويّين خاصّة، وبه نطوي البحث عن الأحداث الجسام التي رافقت حكم الأمويّين والعبّاسيّين، وهي ـ من دون شكّ ـ كانت ناجمة عن فصل الخلافة عن أهل بيت النبوّة ومراكز الوحي، وأعلام المتّقين، وكان ذلك تنفيذاً لإرادة القرشيّين التي أبت أن تجتمع النبوّة والخلافة في بيت واحد.

وقد أعلنوا شعارهم هذا بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، وكانت هذه النتائج المؤسفة لما عملوه، فقد امتحن بها المسلمون أشدّ ما يكون الامتحان، فقد تسلّط عليهم الذئاب والخونة من أمويّين وعبّاسيّين، فأمعنوا في ظلمهم وإذلالهم، وسلب ثرواتهم وهباتها للمغنّين والعابثين، كما ذكرنا ذلك موجزاً في بحوث هذا الكتاب، وعلينا أن ننظر إلى حكم أئمّة أهل البيت عليهم السلام إلى أولئك الملوك والتعاون معهم في أجهزة حكمهم والولاية منهم، فإنّ ذلك من متمّمات البحث في هذا الموضوع.

---

(١) البزّة: الثياب والهيئة.

(٢) ديوان ابن المعتزّ: ٤٩٥.



حكم أئمة أهل البيت عليهم السلام

أمّا حكم أئمّة الهدى عليهم السلام في الحكم الأموي والعبّاسي فهو صريح وواضح ، وهو حرمة التعاون معهم والركون إليهم ، لأنّ في ذلك تقوية للظلم ، وإعانة على الجور.

ولنستمع إلى حديث الإمام زين العابدين عليه السلام فقد كتب إلى محمّد بن مسلم الزهري الذي كان من أجهزة الحكم الأموي رسالة جاء فيها :

وَاعْلَمْ أَنَّ أَدْنىٰ ما كَتَمْتَ ، وَأَخَفَّ ما احْتَمَلْتَ أَنْ آنَسْتَ وَحْشَةَ الظّالِمِ ، وَسَهَّلْتَ لَهُ طَرِيقَ الْغَيِّ بِدُنُوِّكَ مِنْهُ حينَ دَنَوْتَ ، وَإِجابَتِكَ لَهُ حينَ دُعيتَ ، فَما أَخْوَفَني أَنْ تَكونَ تَبوءَ بِإِثْمِكَ غَداً مَعَ الْخَوَنَةِ ، وَأَنْ تُسْأَلَ عَمّا أَخَذْتَ بِإِعانَتِكَ عَلىٰ ظُلْمِ الظَّلَمَةِ ، إِنَّكَ أَخَذْتَ ما لَيْسَ لَكَ مِمَّنْ أَعْطاكَ ، وَدَنَوْتَ مِمَّنْ لَمْ يَرُدَّ عَلىٰ أَحَدٍ حَقّاً ، وَلَمْ تَرُدَّ باطِلاً حينَ أَدْناكَ ، وَأَحْبَبْتَ مَنْ حادَّ اللهَ ، أَوَلَيْسَ بِدُعائِهِ إِيّاكَ حينَ دَعاكَ جَعَلوكَ قُطْباً أَداروا بِكَ رَحىٰ مَظالِمِهِمْ ، وَجِسْراً يَعْبُرونَ عَلَيْكَ إِلىٰ بَلاياهُمْ ، وَسُلَّماً إِلىٰ ضَلالَتِهِمْ ، داعِياً إِلىٰ غَيِّهِمْ ، سالِكاً سَبِيلَهُمْ ، يُدْخِلونَ بِكَ الشَّكَّ عَلَى الْعُلَماءِ ، وَيَقْتادونَ بِكَ قُلوبَ الْجُهّالِ إِلَيْهِمْ ، فَلَمْ يَبْلُغْ أَخَصُّ وُزَرائِهِمْ وَلَا أَقْوىٰ أَعْوانِهِمْ إِلَّا دونَ ما بَلَغْتَ مِنْ إِصْلاحِ فَسادِهِمْ ، وَاخْتِلافِ الْخاصَّةِ وَالْعامَّةِ إِلَيْهِمْ ، فَما أَقَلَّ ما أَعْطَوكَ في قَدْرِ ما أَخَذوا مِنْكَ ، وَما أَيْسَرَ ما عَمَروا لَكَ ، فَكَيْفَ ما خَرَّبوا عَلَيْكَ ؟

فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ ، فَإِنَّهُ لا يَنْظُرُ لَها غَيْرُكَ ، وَحاسِبْها حِسابَ رَجُلٍ مَسْؤولٍ(١).

ولنستمع إلى حديث سيّد المتّقين وإمام الموحّدين الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مع صفوان الجمّال ، وهو من خيار الشيعة ، وكان يكري جماله لهارون الرشيد ، فقد قال له الإمام عليه السلام : **يا صَفْوانُ ، كُلُّ شَيْءٍ مِنْكَ حَسَنٌ جَميلٌ ، ما خَلا شَيْئاً واحِداً**.

وفزع صفوان وراح يقول : جعلت فداك ، أي شيء هو ؟

فأجابه الإمام بما يكرهه منه ، وما يخافه منه عليه قائلاً : **كِراؤُكَ جِمالَكَ مِنْ هٰذا الرَّجُلِ** ـ يعني هارون الرشيد ـ وراح صفوان يقول : والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ، ولا للصيد ولا للهو ، ولكن أكريته لهذا الطريق ـ يعني طريق مكّة ـ ولا أتولّاه بنفسي ؟ ولكن أبعث معه غلماني .

فقال عليه السلام : **أَيَقَعُ كِراكَ عَلَيْهِمْ ؟**

- نعم ، جعلت فداك .
- **أَتُحِبُّ بَقاءَهُمْ حَتّىٰ يَخْرُجَ كِراكَ ؟**
- نعم .
- **مَنْ أَحَبَّ بَقاءَهُمْ فَهُوَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ كانَ مِنْهُمْ كانَ وارِداً لِلنّارِ**.

وفزع صفوان ، وقام بالوقت فباع جماله ، وبلغ ذلك هارون فأرسل خلفه فقال له : بلغني أنّك بعت جمالك .

- نعم .
- لِمَ ؟
- أنا شيخ كبير ، وإنّ الغلمان لا يقدرون على العمل .

---

(١) تحف العقول : ٧٥.

ولم يخف على هارون مقالة الإمام له، فقال له بغيظ: هيهات، هيهات، إنّي لأعلم من أشار عليك بهذا. أشار عليك موسى بن جعفر.

وأراد صفوان أن ينفي ذلك عن الإمام لئلّا يتعرّض إلى أذى أو مكروه منه قائلاً: ما لي ولموسى بن جعفر.

ولم يقنع هارون بذلك وراح يقول: دع عنك هذا، فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك[1].

ومثل هذا الموقف للإمام موسى عليه السلام كان موقفه مع زياد بن أبي سلمة، وهو من شيعته، وكان يتعاون مع السلطة العبّاسيّة، فقال له الإمام: **إنَّكَ لَتَعْمَلُ عَمَلاً لِلسُّلْطانِ**.

فقال زياد: أنا رجل ذو مروّة، وعليَّ عيال، وليس وراء ظهري شيء.

فردّ عليه الإمام قائلاً: **يا زِيادُ، لَئِنْ أَسْقطَ مِنْ حالِقٍ فَأَنْقَطِعَ قِطْعَةً قِطْعَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَوَلّىٰ لأَحَدٍ مِنْهُمْ عَمَلاً، أَوْ أَطَأَ بِساطَ أَحَدِهِمْ، إلّا لِتَفْرِيجِ كُرْبَةِ مُؤْمِنٍ، أَوْ فَكِّ أَسْرِهِ، أَوْ قَضاءِ دَيْنِهِ.**

يا زيادُ، إِنَّ أَهْوَنَ ما يَصْنَعُ اللهُ بِمَنْ تَوَلّىٰ لَهُمْ عَمَلاً أَنْ يَضْرِبَ عَلَيْهِمْ سُرادِقاً مِنَ النّارِ إِلىٰ أَنْ يَفْرُغَ اللهُ مِنْ حِسابِ الْخَلْقِ.

يا زيادُ، فَإِنْ وُلِّيتَ شَيْئاً مِنْ أَعْمالِهِمْ فَأَحْسِنْ إِلىٰ إِخْوانِكَ، فَواحِدَةٌ بِواحِدَةٍ، وَاللهُ مِنْ وَراءِ ذٰلِكَ.

يا زيادُ، أَيُّما رَجُلٍ تَوَلّىٰ لأَحَدٍ مِنْهُمْ عَمَلاً ثُمَّ ساوىٰ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ فَقولوا لَهُ: أَنْتَ مُنْتَحِلٌ كَذّابٌ.

---

(١) رجال الكشّي: ٢٧٦.

يا زيادُ ، إذا ذَكَرْتَ مَقْدِرَتَكَ عَلَى النّاسِ ، فَاذْكُرْ مَقْدِرَةَ اللهِ عَلَيْكَ غَداً ، وَنَفادَ ما أَتَيْتَ بِهِ إِلَيْهِمْ عَنْهُمْ ، وَبَقاءَ ما أَبقيتَ إِلَيْهِمْ عَلَيْكَ »[١] .

رسالة النجاشي للإمام الصادق عليه السلام

من غرر الوثائق السياسيّة في الإسلام رسالة النجاشي للإمام العظيم الصادق عليه السلام ، فأجابه الإمام عنها بجواب يمثّل السياسة الإسلاميّة التي انتهجها أهل البيت عليهم السلام ، وهي حافلة بجميع القيم الإنسانيّة التي تسعد بها الأُمم والشعوب ، وهذه رسالة النجاشي ، وقد جاء فيها بعد البسملة :

« أطال الله بقاء سيّدي ، وجعلني من كلّ سوء فداه ، ولا أراني فيه مكروهاً ، فإنّه وليّ ذلك والقادر عليه .

اعلم يا سيّدي ومولاي أنّي بُليت بولاية الأهواز ، فإن رأى سيّدي ومولاي أن يحدّ لي حدّاً ، ويمثّل لي مثالاً استدلّ به على ما يقرّبني إلى الله عزّ وجلّ ، وإلى رسوله ، ويلخّص لي في كتابه ما يرى لي العمل به ، وفيما أبذله ، وأين أضع زكاتي ، وفيمن أصرفها ، وبمن آنس به ، وإلى من أستريح ، وبمن أثق وآمن وألجأ إليه في سرّي ، فعسى أن يخلّصني الله تعالى بهدايتك وولايتك ، فإنّك حجّة الله على خلقه ، وأمينه في بلاده ، لا زالت نعمته عليك .. » .

تضمّنت هذه الرسالة الكريمة سموّ آداب النجاشي ، ومعرفته بالإمام عليه السلام ، ولزوم طاعته ، وقد أجابه الإمام عن كلّ نقطة من رسالته ، وأحاطه علماً بما يقرّبه إلى الله تعالى ، وما يبعّده عنه .

وتعتبر رسالة الإمام من أهمّ البرامج السياسيّة في الإسلام ، وقد جاء فيها بعد البسملة :

---

(١) التهذيب : ٦/٢٨٣ ، باب المكاسب ، الحديث ٩٢٤ .

«أحاطَكَ اللهُ بِصُنْعِهِ، وَلَطُفَ بِكَ بِمَنِّهِ، وَكَلأَكَ بِرِعايَتِهِ، فَإِنَّهُ وَلِيُّ ذلِكَ.

أَمّا بَعْدُ: فَقَدْ جاءَني رَسولُكَ بِكِتابِكَ، فَقَرَأْتُهُ، وَفَهِمْتُ جَميعَ ما ذَكَرْتَهُ وَسَأَلْتَ عَنْهُ، وَذَكَرْتَ أَنَّكَ بُليتَ بِوِلايَةِ الْأَهْوازِ فَسَرَّني ذلِكَ وَساءَني، وَسَأُخْبِرُكَ بِما ساءَني مِنْ ذلِكَ وَما سَرَّني إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ.

فَأَمّا سُروري بِوِلايَتِكَ، فَقُلْتُ: عَسَى اللهُ أَنْ يُغيثَ بِكَ مَلْهوفاً خائِفاً مِنْ أَوْلياءِ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، وَيُعِزُّ بِكَ ذَليلَهُمْ، وَيَكْسُوَ بِكَ عارِيَهُمْ، وَيُقَوِّيَ بِكَ ضَعيفَهُمْ، وَيُطْفِئُ بِكَ نارَ الْمُخالِفينَ عَنْهُمْ.

وَأَمّا الَّذي ساءَني مِنْ ذلِكَ، فَإِنَّ أَدْنىٰ ما أَخافُ عَلَيْكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِوَلِيٍّ لَنا فَلا تَشُمَّ حَظيرَةَ الْقُدْسِ، فَإِنّي مُلَخِّصٌ لَكَ جَميعَ ما سَأَلْتَ عَنْهُ إِنْ أَنْتَ عَمِلْتَ بِهِ وَلَمْ تُجاوِزْهُ، رَجَوْتُ أَنْ تَسْلَمَ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ.

أَخْبَرَني -يا عَبْدَ اللهِ- أَبي، عَنْ آبائِهِ، عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام، عَنْ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قالَ: مَنِ اسْتَشارَهُ أَخوهُ الْمُؤْمِنُ فَلَمْ يَمْحَضْهُ[١] النَّصيحَةَ سَلَبَهُ اللهُ لُبَّهُ[٢] عَنْهُ.

وَاعْلَمْ أَنّي سَأُشيرُ عَلَيْكَ بِرَأْيي إِنْ أَنْتَ عَمِلْتَ بِهِ تَخَلَّصْتَ مِمّا أَنْتَ تَخافُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ خَلاصَكَ وَنَجاتَكَ في حَقْنِ الدِّماءِ، وَكَفِّ الْأَذىٰ عَنْ أَوْلياءِ اللهِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَالتَّأَنّي، وَحُسْنِ الْمُعاشَرَةِ، مَعَ لينٍ في غَيْرِ ضَعْفٍ وَشِدَّةٍ في غَيْرِ عُنْفٍ، وَمُداراةِ صاحِبِكَ[٣] وَمَنْ يَرِدُ عَلَيْكَ مِنْ رُسُلِهِ، وَأَرْفِقْ بِرَعِيَّتِكَ بِأَنْ توقِفَهُمْ عَلىٰ

---

(١) لم يمحضه: أي لم يخلص له.

(٢) اللب: العقل.

(٣) صاحبه: هو المنصور الدوانيقي.

ما وافَقَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ.

وَإِيّاكَ وَالسُّعاةَ، وَأَهْلَ النَّمائِمِ، فَلا يَلْزَقَنَّ بِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلا يَراكَ اللهُ يَوْماً وَلَيْلَةً وَأَنْتَ تَقْبَلُ مِنْهُمْ صَرْفاً[1] وَلا عَدْلاً[2]، فَيَسْخَطُ اللهُ عَلَيْكَ.

وَأَمّا مَنْ تَأْنَسُ بِهِ، وَتَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ، وَتُلْجِئُ أُمورَكَ إِلَيْهِ فَذلِكَ الرَّجُلُ الْمُمْتَحَنُ، الْمُسْتَبْصِرُ، الأَمينُ، الْموافِقُ لَكَ عَلىٰ دينِكَ، وَمَيِّزْ أَعْوانَكَ، وَجَرِّبِ الْفَريقَيْنِ[3]، فَإِنْ رَأَيْتَ هُناكَ رُشْداً فَشَأْنُكَ وَإِيّاهُ.

وَإِيّاكَ أَنْ تُعْطِيَ دِرْهَماً أَوْ تَخْلَعَ ثَوْباً أَوْ تَحْمِلَ دابَّةً في غَيْرِ ذاتِ اللهِ لِشاعِرٍ أَوْ مُضْحِكٍ أَوْ مُمْتَزِحٍ، إِلَّا أَعْطَيْتَ مِثْلَهُ في ذاتِ اللهِ.

وَلْتَكُنْ جَوائِزُكَ وَعَطاياكَ وَخِلَعُكَ لِلْقُوّادِ وَالرُّسُلِ وَأَصْحابِ الرَّسائِلِ وَأَصْحابِ الشُّرَطِ وَالأَخْماسِ[4]، وَما أَرَدْتَ أَنْ تَصْرِفَهُ في وُجوهِ الْبِرِّ وَالنَّجاحِ وَالْفِطْرَةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ وَالشُّرْبِ وَالْكِسْوَةِ الَّتي تُصَلّي فيها وَتَصِلُ بِها، وَالْهَدِيَّةِ الَّتي تُهْديها إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلىٰ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله مِنْ أَطْيَبِ كَسْبِكَ.

يا عَبْدَاللهِ، اجْهَدْ أَنْ لا تَكْنِزَ ذَهَباً وَلا فِضَّةً فَتَكونَ مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ الآيَةِ ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[5].

---

(١) الصرف: التوبة.

(٢) العدل: الفدية.

(٣) الفريقان: هم الأعداء والأصدقاء.

(٤) الأخماس: هم النخبة المتقدّمة أمام الجيش، فإنّه يتألّف من خمس فرق: المقدّمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساقة، وهم الجنود المتأخّرون.

(٥) التوبة ٩: ٣٤.

وَلَا تَسْتَصْغِرَنَّ مِنْ حُلْوٍ وَلَا مِنْ فَضْلِ طَعامٍ تَصْرِفُهُ في بُطونٍ خالِيَةٍ تُسَكِّنُ بِها غَضَبَ الرَّبِّ تبارَكَ وَتَعالىٰ.

وَاعْلَمْ أَنّي سَمِعْتُ أَبي يُحَدِّثُ عَنْ آبائِهِ، عَنْ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ عليه السلام أَنَّهُ سَمِعَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله يَقولُ لأَصْحابِهِ يَوْماً: ما آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ باتَ شَبْعاناً وَجارُهُ جائِعٌ.

فَقُلْنا: هَلَكْنا يا رَسولَ اللهِ.

فَقالَ: مِنْ فَضْلِ طَعامِكُمْ وَمِنْ فَضْلِ تَمْرِكُمْ وَرِزْقِكُمْ وَخَلِقِكُمْ[١] وَخِرَقِكُمْ[٢] تُطْفِئونَ بِها غَضَبَ الرَّبِّ.

وَسَأُنَبِّئُكَ بِهَوانِ الدُّنْيا وَهَوانِ شَرَفِها عَلىٰ مَنْ مَضىٰ مِنَ السَّلَفِ وَالتّابِعينَ، فَقَدْ حَدَّثَني أَبي مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، قالَ: لَمّا تَجَهَّزَ الْحُسَيْنُ عليه السلام إِلَى الْكُوفَةِ أَتاهُ ابْنُ عَبّاسٍ فَناشَدَهُ اللهَ وَالرَّحِمَ أَنْ يَكونَ هُوَ الْمَقْتولُ بِالطَّفِّ، فَقالَ: أَنا أَعْلَمُ بِمَصْرَعي مِنْكَ، وَما وَكْدي[٣] مِنَ الدُّنْيا إِلَّا فِراقُها.

ثمّ بيّن له الإمام زهد آبائه وإعراضهم عن الدنيا، وأضاف عليه السلام قائلاً:

يا عَبْدَاللهِ، إِيّاكَ أَنْ تُخيفَ مُؤْمِناً، فَإِنَّ أَبي مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام حَدَّثَني عَنْ أَبيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ عليه السلام أَنَّهُ كانَ يَقولُ:

مَنْ نَظَرَ إِلىٰ مُؤْمِنٍ نَظْرَةً لِيُخيفَهُ بِها أَخافَهُ اللهُ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، وَحَشَرَهُ في

---

(١) خلقكم: هي الثياب البالية.

(٢) خرقكم: هي القطعة من الثوب.

(٣) وكدي: أي قصدي.

صورَةِ الذَّرِّ[١] لَحْمُهُ وَجَسَدُهُ حَتّىٰ يورِدَهُ مَوْرِدَهُ.

وَحَدَّثَني أبي عَنْ آبائِهِ، عَنْ عَليٍّ عليه السلام، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، قالَ: مَنْ أغاثَ لَهْفاناً مِنَ الْمُؤْمِنينَ أغاثَهُ اللهُ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلّا ظِلُّهُ، وَآمَنَهُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَآمَنَهُ مِنْ سوءِ الْمُنْقَلَبِ.

وَمَنْ قَضىٰ لأَخيهِ الْمُؤْمِنِ حاجَةً قَضَى اللهُ لَهُ حَوائِجَ كَثيرَةً أَحَدُها الْجَنَّةِ.

وَمَنْ كَسا أَخاهُ الْمُؤْمِنَ جُبَّةً مِنْ عُرْيٍ كَساهُ اللهُ مِنْ سُنْدُسِ[٢] الْجَنَّةِ وَإِسْتَبْرَقِها[٣]، وَلَمْ يَزَلْ يَخوضُ في رِضْوانِ اللهِ ما دامَ عَلَى الْمَكْسُوِّ مِنْها سِلْكٌ.

وَمَنْ أَطْعَمَ أَخاهُ مِنْ جوعٍ أَطْعَمَهُ اللهُ مِنْ طَيِّباتِ الْجَنَّةِ.

ويستمرّ الإمام في بيان فضل معونة المسلم لأخيه المسلم، وما أعدّه الله تعالى له من مزيد الأجر، وأضاف الإمام عليه السلام قائلاً:

يا عَبْدَاللهِ، وَحَدَّثَني أَبي، عَنْ آبائِهِ، عَنْ عَليٍّ عليه السلام أَنَّهُ سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقولُ لأَصْحابِهِ يَوْماً: مَعاشِرَ النّاسِ، إِنَّهُ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ آمَنَ بِلِسانِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ، فَلا تَتَبَّعوا عَثَراتِ الْمُؤْمنينَ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَثْرَةَ مُؤْمِنٍ، تَتَبَّعَ اللهُ عَثَراتِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَفَضَحَهُ في جَوْفِ بَيْتِهِ.

وَحَدَّثَني أَبي عَنْ آبائِهِ، عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ قالَ: أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الْمُؤْمِنِ أَنْ لا يُصَدَّقَ في مَقالَتِهِ، وَلا يَنْتَصِفَ مِنْ عَدُوِّهِ، عَلىٰ أَنْ لا يَشْفِيَ غَيْظَهُ إِلّا بِفَضيحَةِ نَفْسِهِ،

---

(١) الذرّ: صغار النمل أو الذرّات المنتشرة في الهواء.

(٢) السندس: نوع من الديباج الرقيق.

(٣) الاستبرق: الديباج.

لأَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مُلْجَمٌ[1] وَذلِكَ لِغايَةٍ قَصيرَةٍ.

وأضاف الإمام قائلاً:

يا عَبْدَاللهِ، وَحَدَّثني أَبي، عَنْ آبائِهِ، عَنْ عَليٍّ عليه السلام، عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله، أَنَّهُ قالَ: أَدْنى الْكُفْرِ أَنْ يَسْمَعَ الرَّجُلُ عَنْ أَخيهِ الْكَلِمَةَ فَيَحْفَظُها عَلَيْهِ، يُريدُ أَنْ يَفْضَحَهُ بِها أُولٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ.

يا عَبْدَاللهِ، وَحَدَّثني أَبي، عَنْ آبائِهِ، عَنْ عَليٍّ عليه السلام، أَنَّهُ قالَ: مَنْ قالَ في مُؤْمِنٍ ما رَأَتْ عَيْناهُ، وَسَمِعَتْ أُذُناهُ ما يُشينُهُ، وَيَهْدِمُ مُروءَتَهُ فَهُوَ مِنَ الَّذينَ قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

وأضاف الإمام في آخر رسالته قائلاً:

ثُمَّ إِنّي أُوصيكَ بِتَقْوى اللهِ، وَإِيثارِ طاعَتِهِ، وَالْإِعْتِصامِ بِحَبْلِهِ، فَإِنَّهُ مَنِ اعْتَصَمَ بِحَبْلِ اللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيمٍ.

فَاتَّقِ اللهَ وَلا تُؤْثِرْ أَحَداً عَلىٰ رِضاهُ وَهَواهُ، فَإِنَّهُ وَصِيَّةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلىٰ خَلْقِهِ، لا يَقْبَلُ مِنْهُمْ غَيْرَها، وَلا يَعْلَمُ سِواها، وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلْقَ لَمْ يُوكَلوا بِشَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ تَقْوى اللهِ، فَإِنَّهُ وَصِيَّتُنا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لا تَنالَ مِنَ الدُّنْيا شَيْئاً تُسْأَلُ عَنْهُ غَداً، فَافْعَلْ».

ولمّا انتهت رسالة الإمام إلى النجاشي وقرأها، قال: «صدق والله الذى لا

(١) الملجم: كفّ اللسان عن الإساءة إلى الغير.

(٢) النور ٢٤: ١٩.

إلّا هو مولاي فما عمل أحد بما في هذا الكتاب إلّا نجا »[(١)].

وحفلت هذه الرسالة بدستور الإسلام الذي يحقّق التكافل الاجتماعي بين المسلمين ، ويوحّد صفوفهم ، وينشر بينهم المودّة والرخاء ، وهذا بعض ما جاء فيها :

١ ـ حقن الدماء. لقد اهتمّ الإسلام بحقن الدماء ، وجعل إراقتها من أعظم الكبائر التي توعّد عليها في النار إلّا بالحقّ.

٢ ـ كفّ الأذى عن المسلمين ، وعدم التعرّض لأي أحدٍ بمكروه أو إرهاقٍ ، وعدم التكبّر عليهم ، فإنّ ذلك ممّا يوجب إشاعة الاخوّة والمودّة بينهم.

٣ ـ الرفق بالرعيّة ، وذلك بنشر الأخلاق الرفيعة بينهم ، وعدم التكبّر عليهم ، فإنّ ذلك ممّا يوجب ارتباط الشعب بالدولة.

٤ ـ التأنّي بالأُمور ، وعدم التسرّع فيها ، فإنّ التثبّت فيها يوجب سلامة الوطن من الأزمات ، وسلامة الإنسان من الموبقات.

٥ ـ المعاشرة الحسنة ، من الوالي للرعيّة بأن يسير فيهم في لين من غير ضعف ، وشدّة في غير عنف لتستقيم أُمور الناس على الخير.

٦ ـ التجنّب من سعاة السوء ، وهم الذين لا يألون جهداً في الوصول إلى السلطة بالطرق الملتوية ، كالتجسّس على الناس ، وغير ذلك من صنوف الأذى بهم.

٧ ـ الاتّصال بالمؤمنين ، فإنّهم دعاة للخير والمعروف.

٨ ـ الاحتياط بأموال الدولة ، وعدم صرفها على الممزحين والمضحكين وغيرهم من الذين لا يؤمنون بالقيم الدينيّة ، وأن تصرف الأموال على ما يرضي الله تعالى ، كما أوصى بالتجنّب عن كنز الأموال التي يعود الكنز بالأضرار البالغة

---

(١) وسائل الشيعة : ٢ : ١٥١ ـ ١٥٦.

على الناس .

٩ ـ وحدة المسلمين ، أوصى الإمام عليه السلام بوحدة المسلمين ونشر المحبّة بينهم ، وهي :

١ ـ حرمة إخافة المؤمن .

٢ ـ إغاثة الملهوفين .

٣ ـ السعي في قضاء حوائج المسلمين .

٤ ـ إطعام الجائعين .

٥ ـ الحثّ على التزاور .

٦ ـ حرمة تتبّع عثرات المسلمين .

إلى غير ذلك من الوصايا التي حفلت بها رسالة الإمام عليه السلام ، وهي ممّا توجب تضامن المسلمين وإشاعة المودّة والحبّ بينهم[١] .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن موقف أئمّة الهدى ومصابيح الإسلام تجاه ولاة المسلمين ، وبه يتّضح ما أراده النبيّ صلى الله عليه وآله في وصاياه من لزوم اتّباع منهج عترته ، وعدم تقليد الخلافة من بعده لغيرهم فإنّ ذلك يوجب إشاعة الأزمات والفتن بين المسلمين .

إنّ هذه الأزمات والمآسي التي مني بها العالم الإسلامي في اقتصاده وأمنه كانت من النتائج المباشرة لأحداث السقيفة والشورى ، فقد تعمّد أعضاؤها البارزون على إبعاد أئمّة الحقّ ومصابيح الإسلام الذين عيّنهم النبيّ صلى الله عليه وآله لقيادة اُمّته والسير بها في طريق الخير والصلاح ، ولكن القوم قد غرّتهم المناصب وتهالكوا على كرسي

---

(١) عرضنا لتفصيل ما في هذه الرسالة من معالي الأخلاق ومحاسن الصفات والأعمال في كتابنا النظام السياسي في الإسلام .

الحكم ، ولم يقيموا أي وزن لمصلحة الأُمّة .

وليس في هذه الدراسة أي إثارة للنعرات الطائفيّة التي نحن أبعد ما نكون عنها ، وإنما هو إيضاح للحقيقة التي جهلها الكثيرون من المسلمين ، والبحث عنها على ضوء العلم والدراسة بما يعزّز روابط المحبّة والأُلفة بين المسلمين ، ويوضّح أصالة ما تذهب إليه الشيعة من التمسّك بأئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وأنّهم الخطّ الرسالي الذي أقامه النبيّ صلى الله عليه وآله لأُمّته كما في حديث الثقلين .



هؤلاء مصابيح الإسلام
ودعاة العدل والحق

والشيء المحقّق أن من نتائج السقيفة والشورى إقصاء العترة النبويّة المعظّمة عن مسرح الحياة السياسيّة ومعاملتها معاملة عاديّة اتّسمت بالعداء العارم والكراهية الشديدة لهم ، الأمر الذي نجم منه تسلّق الأمويّين ومن بعدهم العبّاسيّين لمركز الخلافة الإسلاميّة ، ولم يتورّعوا في سفك دماء العلويّين ، وحرمانهم من جميع حقوقهم ، وكان ذلك بصورة واضحة في حكم معاوية وابنه يزيد ، والمنصور الدوانيقي والمتوكّل العبّاسي ، وغيرهم من الخونة واللصوص الذين أشاعوا الجور والظلم في البلاد .

إنّ السادة العلويّين قادة المجتمع ، وخيار هذه الأُمّة بسلوكهم وآدابهم ، وتبنّيهم لقضايا المسلمين ورعاية مصالحهم وتطويرهم نحو حياة أفضل تنعدم فيهم الفاقة والحرمان ، ويتساوون في جميع الحقوق على اختلاف قوميّاتهم ولغاتهم ، ولكنّ القوى المعادية لهم حرمتهم من هذه النعمة الكبرى ، وحالت بينهم وبين سعادتهم .

وعلى أي حال ، فإنّا نعرض بصورة موجزة إلى ذكر أئمّة أهل البيت عليهم‌السلام خلفاء النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ، ومصابيح الإسلام ، وعدلاء الذكر الحكيم ، الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، وفرض مودّتهم وطاعتهم على جميع من آمن بالله ورسوله ، وهم :

الإمام علي عليه السلام

وهو أخو النبيّ صلى الله عليه وآله ، وباب مدينة علمه ، وأبو سبطيه ، ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى ، وهو أوّل من آمن بالله تعالى ، وصدّق رسوله ، وفهم أحكام دينه ، وسارع إلى الذبّ عنه ، وحماه من أرجاس الشرك الذين جهدوا على إطفاء نور الله عزّ اسمه ، وإقبار رسالته ، واجتثاث رسوله ، فكان الإمام القوّة الضاربة الذي حصد الرؤوس العفنة من بهائم البشر ، وحطّم كيانهم ، وألحق بهم الهزيمة والخزي ، وهو معجزة الإسلام ببطولاته وإيمانه وجهاده .

ولد الإمام عليه السلام في الكعبة المقدّسة ، ولم يولد أحد في هذا المكان المقدّس سواه ، وكانت ولادته قبل البعثة النبويّة المباركة باثنتي عشرة سنة ، واستشهد في بيت الله تعالى في الجامع الأعظم في الكوفة ، وذكر الله تعالى بين شفتيه ، في شهر رمضان المبارك سنة (٤٠هـ). اغتاله بغي من بغايا الخوارج أرجاس البشريّة وهو المجرم عبدالرحمن بن ملجم .

وقد ألمعنا إلى بعض شؤونه في البحوث المتقدّمة ،كما ذكرنا الكثير من مآثره في كتابنا موسوعة الإمام أمير المؤمنين .

الإمام الحسن عليه السلام

هو السبط الأوّل لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو وأخوه سيّدا شباب أهل الجنّة ، وإمامان إن قاما وإن قعدا .

ولد الإمام الزكيّ في المدينة في شهر رمضان المبارك ، فبادر جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله فأذّن في أُذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ، وأجرى عليه المراسيم الشرعيّة ، وكانت ولادته في السنة الثالثة من الهجرة النبويّة .

تولّى النبيّ صلى الله عليه وآله تربية سبطه ، فسكب في نفسه مُثل النبوّة ومكوّناتها ، وغذّاه بآدابه ، ومكارم أخلاقه حتّى صار صورة مشرقة عنه .

تقلّد الخلافة بعد شهادة أبيه ، وقد امتحن أشدّ ما يكون الامتحان بالجيش الذي كان معه ، فلم تكن فيه أيّة وحدة أو تماسك ، فقد مزّقته دعايات الخوارج ، وأموال معاوية التي كان يغدقها على قادة الفِرق ، حتّى استجاب له القائد العامّ للقوّات المسلّحة عبيدالله بن العبّاس ، فقد أرشاه معاوية بمائة ألف درهم ، فغدر بالإمام وانضمّ إلى معاوية مع فيلق من الجيش كان عدده ثمانية آلاف جندي ، وأخذ الكثيرون من جيش الإمام يهربون إلى معاوية طمعاً بالأموال ، كما ضمن له الكثيرون من قادة الفرق تسليم الإمام له أسيراً ، أو اغتياله ، إن شاء ذلك ، كما اعتدوا عليه فطعنوه في فخذه ، وهو قائم يصلّي .

ورأى الإمام أنّه لا قدرة له على مقاومة معاوية ، وأنّ الواجب الشرعي يحتّم عليه الصلح ، فإنّ الحرب معه لا تجدي نفعاً ، وتعود بالأضرار البالغة عليه وعلى المسلمين ، وكان الصلح هو المتعيّن عليه ، فإنّه إن فتح أبواب الحرب فلا محالة أن

يخسر بها النصر ، فصالح معاوية ، وشرط عليه شروطاً كلّها في غير صالح معاوية ، فقد جرّدته من الشرعيّة وأنّه باغ على الأُمّة .

وقد ندم معاوية على الصلح ، فقد تبيّن له أنّه ليس عند الإمام أيّة قوّة تحميه ، ولم يكن يأوي إلى ركن شديد ، فأعلن رفضه الكامل لجميع الشروط التي أعطاها للإمام ، وجعلها تحت حذائه لا يفِ بشيء منها .

إنّ الحرب لم تكن من صالح الإمام لأنّه إمّا أن يقتل في ساحة الحرب ، أو يقع أسيراً في قبضة معاوية فيملي عليه الشروط التي يريدها .

إنّ الصلح كان هو المتعيّن في العرف السياسي والديني على ما فيه من قذى في العين وشجاً في الحلق ، ولولاه لواجهت الأُمّة سيلاً من المحن والأزمات والأعاصير التي لا يعلم مدى ضررها إلّا الله تعالى .

وقد ذكرنا في كتابنا حياة الإمام الحسن عليه السلام أسباب الصلح وضرورته ، وأنّه لا مناص منه .

وقد اتّهم الأمويّون الإمام الحسن عليه السلام بكثرة الزواج والطلاق ، وفنّدنا ذلك بصورة موضوعيّة في كتابنا حياة الإمام الحسن عليه السلام .

شهادته عليه السلام

اغتال الباغي الأثيم معاوية سيّد شباب أهل الجنّة ، فبعث له سمّاً بتوسّط مروان بن الحكم إلى زوجته جعيدة بنت الأشعث ، فدسّته له ، فتوفّي شهيداً مسموماً قد جرّعه الخطّ الأموي أشقّ ألوان المحن والخطوب .

الإمام الحسين عليه السلام

هو أسمى شخصيّة عرفها التاريخ الإنساني ، قد احتلّ العواطف والقلوب ، وهام الناس بحبّه متّفقين ومختلفين ، إنّه أبو الأحرار وسيّد المصلحين ، وأحبّ الناس إلى جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد قلّده كوكبة من الأوسمة التي منها :

« حُسَيْنٌ مِنّي ، وَأَنا مِنْ حُسَيْنٍ »[١] .

« أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْناً »[٢] .

« إِنَّهُ إِمامٌ ، وَابْنُ إِمامٍ ، وَأَخو إِمامٍ ، وَأَبو الْأَئِمَّةِ التِّسْعَةِ »[٣] .

وكثير من أمثال هذه الدرر النبويّة كانت أوسمة للإمام الحسين عليه السلام ، حكت سموّ شخصيّته ، وعظيم منزلته في الإسلام .

ولد أبو الأحرار في يثرب في السنة الرابعة[٤] ، أو في السنة الثالثة من الهجرة على ما قيل[٥] .

وبادر النبيّ صلى الله عليه وآله إلى بيت الصدّيقة عليها السلام فأخذ الوليد وأوسعه تقبيلاً ، وهو غارق في البكاء ، وبهرت أسماء بنت عميس ، وكانت تقوم بخدمات سيّدة النساء عليها السلام فقالت للنبيّ : فداك أبي وأُمّي ، ممّ بكاؤك ؟

---

(١) مستدرك الحاكم : ٣/٧٧ .

(٢) سنن ابن ماجة : ١/٥١ . مسند أحمد بن حنبل : ٤/١٢٢ . تهذيب الكمال : ٤/٤٧٩ .

(٣) منهاج السنّة : ٤/٢١٠ .

(٤) مسند الإمام زيد : ٤٦٨ .

(٥) حياة الإمام الحسين عليه السلام : ١/٣٠ .

فأجابها النبيّ صلى الله عليه وآله بصوت حزين النبرات قائلاً: **مِنْ ابْني هـٰذا**.

وملكت الحيرة اهابها وراحت تقول: إنّه ولد الساعة.

وأحاطها النبيّ صلى الله عليه وآله علماً بما سيجري عليه من الكوارث قائلاً: **تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْباغِيَةُ، لَا أَنالَهُمُ اللهُ تَعالى شَفاعَتي**».

وأسرّ إلى أسماء أن لا تخبر سيّدة النساء فاطمة بحديثه، لأنّها حديثة عهد بولادته[١].

وأجرى النبيّ صلى الله عليه وآله على وليده المراسيم الشرعيّة من الأذان والإقامة، وسمّاه حسيناً كما سمّا أخاه حسناً من قبل[٢]، وتولّى النبيّ صلى الله عليه وآله تربيته وكان أعزّ من في الوجود عنده.

ونشأ الإمام عليه السلام في كنف جدّه الرسول صلى الله عليه وآله وفي ذرى عطفه، وقد سكب في نفسه مكارم أخلاقه ومكوّناته النفسيّة فصار صورة تحكيه، وقد احتضن الحسين رسالة جدّه ومبادئه، ودافع عن قيمه، ولمّا وقعت الدولة الإسلاميّة فريسة بأيدي يزيد الفاجر المستهتر بشرب الخمر والفجور، وإعلان الكفر والمروق من الدين، أعلن الإمام عليه السلام ثورته الكبرى التي أعزّ الله تعالى بها الإسلام، وكان على يقين بشهادته وشهادة الكواكب المشرقة من الأُسرة النبويّة، فاستطاب ذلك في سبيل الإسلام وإعلاء كلمة الله عزّ اسمه.

واستشهد الإمام عليه السلام مع أبنائه وأهل بيته وأصحابه الممجّدين في صعيد كربلاء، وقد رفعت رؤوسهم على أطراف الرماح يطاف بها في الأمصار، وهي تضيء طريق الحريّة والكرامة والشرف لجميع شعوب العالم وأُمم الأرض.

---

(١) مسند الإمام زيد: ٤٦٨.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ١/٣٠.

لقد أحرز أبو الأحرار النصر الذي لم يحرزه أي مصلح اجتماعي على امتداد التاريخ ، وها هو مرقده الشريف يعجّ بالوافدين إليه من جميع الأقطار ، والوافدون إليه أضعاف الذين يفدون إلى بيت الله الحرام ، وإنّي أكتب هذه الكلمات في « زيارة الأربعين » وقد أمّت المرقد الشريف الملايين من الزائرين وهم مشاة من معظم محافظات العراق ، ولم يحدّث التاريخ أنّ أحداً من عظماء الدنيا قد حظي بمثل هذا التكريم والتعظيم ، فقد هام الناس بحبّه ، وانطبع في مشاعرهم وعواطفهم ، فسلام الله عليه غادية ورائحة .

الإمام السجاد عليه السلام

هو سيّد المتّقين وإمام الموحّدين ، وليس في تاريخ هذا الشرق العربي وغيره مثل هذا الإمام العظيم في تقواه وورعه وزهده وانقطاعه وإنابته إلى الله تعالى ، وهو صاحب الصحيفة السجّاديّة التي هي إنجيل آل محمّد صلى الله عليه وآله ، ومن أروع أدعية أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، فقد حفلت بأسمى دروس التربية والأخلاق والسياسة ، وغير ذلك من مناهج التقوى والتضرّع إلى الله ، وهو صاحب رسالة الحقوق التي شرّعت الحقوق الفرديّة والاجتماعيّة للمجتمع الإسلامي حكومة وشعباً ، كما أنّه أحد المؤسّسين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام ، فقد ضمّت أعلام العلماء في عصره الذين تغذّوا من نمير علومه .

ولد هذا الإمام العظيم في يثرب سنة (٣٨هـ) في شهر شعبان في اليوم الخامس منه[١] ، وتولّى تربيته جدّه الإمام أمير المؤمنين وأبوه سيّد الشهداء وعمّه الزكيّ الإمام الحسن عليه السلام .

شهادته عليه السلام

اغتاله بالسمّ الطاغية الوليد بن يزيد ، فدسّ إليه السمّ على يد عامله على يثرب ، ولم يمكث إلّا قليلاً حتّى وافاه الأجل المحتوم ، وكانت شهادته عليه السلام في شهر محرّم في اليوم الخامس والعشرين سنة (٩٥هـ).

---

(١) تحفة الراغب : ١٣ . الفصول المهمّة : ٢١٢ .

الإمام الباقر عليه السلام

هو باقر علوم الأوّلين والآخرين ، وعملاق هذه الأُمّة بمواهبه وعبقريّاته ، نصّ النبيّ صلى الله عليه وآله عليه قبل ولادته ، وسمّاه محمّد ، وكنّاه الباقر ، وحمل له تحيّاته على يد الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري الذي هو آخر من بقي من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله .

ولد في يثرب في اليوم الثالث من شهر صفر سنة (٥٦هـ) ، تولّى تربيته جدّه الإمام الحسين عليه السلام وأبوه الإمام زين العابدين عليه السلام ، فغرسا في نفسه المثل العليا ، والقيم الكريمة ، فصار صورة عنهما .

شهادته عليه السلام

سقي بالسمّ من قِبل الطاغية هشام بن عبدالملك ، وقيل : إبراهيم بن الوليد ، كانت وفاته سنة (١١٤هـ) ، وقيل غير ذلك .

الإمام الصادق عليه السلام

عملاق هذه الأُمّة ورائد حضارتها العلميّة الذي ملأ الدنيا بعلومه ومعارفه ـ على حدّ تعبير الجاحظ ـ وقد انتهل العلماء من نمير علومه، كالطبّ والفيزياء والفقه والفلسفة وعلم الكلام وغيرها، وكان عدد طلّابه أربعة آلاف، كان منهم: أبو حنيفة، ومالك وغيرهما، وقد ترجمنا ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانية عشر عالماً في موسوعة الإمام الصادق عليه السلام.

ولد هذا الإمام العظيم سنة (٨٣هـ) يوم الجمعة في اليوم (١٧) من شهر ربيع الأوّل، وقام بتربيته جدّه الإمام زين العابدين عليه السلام وأبوه الإمام الباقر عليه السلام، وقد قطع شوطاً من حياته في أواخر الدولة الأمويّة التي عصفت بها الثورات الداخليّة، وقد انهارت أمام قوّة الجيش العبّاسي بقيادة أبي مسلم الخراساني، وقد اغتنم الإمام الصادق عليه السلام هذه الفرصة فبثّ علومه ونشر معارفه، وكان له الدور الإيجابي في تأسيس مختلف العلوم، ومن أهمّها علم الفقه، فقد كان المؤسّس له، ممّا جعله المؤسّس لمذهب أهل البيت عليهم السلام.

شهادته عليه السلام

اغتاله المنصور الدوانيقي بالسم بتوسّط عامله على المدينة، وقضى نحبه شهيداً، وكانت وفاته سنة (١٤٨هـ)، وكان عمره الشريف خمساً وستّين سنة، وقيل غير ذلك.

الإمام الكاظم عليه السلام

هو شبيه السيّد المسيح في ورعه وزهده، وإنابته إلى الله تعالى، وكالنبيّ أيّوب في محنه وبلواه.

ولد في الأبواء سنة (١٢٨هـ) في أيّام الطاغية عبدالملك بن مروان. تولّى تربيته أبوه الإمام الصادق عليه السلام، فأغدق عليه معارفه ومواهبه، وبعد وفاة أبيه صار المرجع الأعلى للعالم الإسلامي، وقد احتفّ به العلماء والرواة ينتهلون من نمير علومه.

شهادته عليه السلام

كان الإمام موسى عليه السلام من أشدّ الناقمين على حكومة هارون التي خلدت إلى اللهو والعزف والمجون. اعتقله الطاغية هارون وأودعه في سجونه، ودسّ إليه السمّ على يد السندي بن شاهك مدير شرطته، فلمّا تناوله لم يمكث إلّا قليلاً حتّى صعدت روحه الطاهرة إلى الله تعالى تحفّها ملائكة الرحمن، ووضعت الشرطة جثمانه المقدّس على الجسر، ونادت عليه بنداء فظيع فبدل أن تقول: احضروا جنازة الطيّب ابن الطيّب، قالوا عكسها، وانبرى سليمان العبّاسي وهو من ألمع الشخصيّات العبّاسيّة، فأنقذ الجثمان المقدّس من يد الشرطة وشيّعه بتشييع حافل ودفنه في مرقده الذي صار أعزّ مرقد في الإسلام، كانت شهادته في سنة (١٨٣هـ) في اليوم الخامس والعشرين من شهر رجب.

الإمام الرضا عليه السلام

هو أروع صور العلم والإيمان ، تقلّد الإمامة بعد وفاة أبيه موسى عليه السلام ، وهو أعظم شخصيّة في عصره ، ونظراً لسموّ مكانته وسيادته على العلويّين ومكانته العلميّة ، فقد رشّحه المأمون لقيادة الدولة الإسلاميّة ، وكان ذلك لعبة سياسيّة من المأمون ، فرفض الإمام ذلك ، وأخيراً أجبره على ولاية العهد من بعده ، فاستجاب إلى ذلك على كره ، وشرط عليه أن يكون بمعزل عن جميع الشؤون السياسيّة ، فوافق المأمون على ذلك .

وجلب المأمون جميع علماء الدنيا ووعدهم بالثراء العريض إن امتحنوا الإمام وعجز عن إجابتهم ، ليتّخذ ذلك وسيلة للطعن بمذهب أهل البيت عليهم السلام من أنّ الإمام لا بدّ أن يكون أعلم أهل عصره ، وقدّم له العلماء أعقد المسائل وأكثرها غموضاً ، فقد سأله العلماء في نوب متفرّقة عمّا يزيد على أربعة وعشرين ألف مسألة في مختلف العلوم ، فأجاب عنها ، وذهل العلماء من وفرة علمه ، فذهب بعضهم إلى إمامته ، وأنّه حجّة الله تعالى على خلقه .

ولد الإمام الرضا عليه السلام سنة (١٤٨هـ) ، ونشأ في كنف أبيه الإمام الكاظم ، فأفرغ عليه مثله ومكوّناته النفسيّة والعلميّة ، حتى صار مثلاً عنه .

شهادته عليه السلام

واستوعبت شخصيّة الإمام جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وتحدّث العلماء عن فضله وعلومه وتقواه وورعه فحسده المأمون ، فدسّ له سمّاً في عنب وقضى عليه ، وكانت شهادته في (١٧) من شهر صفر سنة (٢٠٣هـ) .

الإمام الجواد عليه السلام

هو قبس من نور الله تعالى ، وكنز من كنوز حكمته ، تقلّد الإمامة بعد وفاة أبيه الإمام الرضا عليه السلام ، وعمره الشريف لا يتجاوز التسع سنين ، وانتهز العبّاسيّون هذه الفرصة فعقدوا المؤتمرات العلميّة لامتحانه لعلّه يعجز عن الجواب فيتّخذوا من ذلك وسيلة لإفساد مذهب أهل البيت القاضي بأنّ الأئمّة الطاهرين قد منحهم الله تعالى العلم ووهبهم الحكمة من دون فرق بين الصغير والكبير منهم .

وقدم العلماء له أعقد المسائل ، فأجاب عنها جواب العالم المتمرّس ، وكان ما سئل عنه ما يزيد على عشرين ألف مسألة في نوب متفرّقة في مختلف العلوم ، الأمر الذي أثار إعجاب العلماء وحديث الأندية عنه ، واعتناق جملة من العلماء لمذهب أهل البيت عليهم السلام .

ولد الإمام الجواد سنة (١٩٥هـ)، واغتيل بالسمّ على يد المعتصم العبّاسي بتوسّط زوجته اُمّ الفضل ، ولم يلبث إلّا قليلاً حتّى التحق بالرفيق الأعلى ، وكانت شهادته في سنة (٢٢٠هـ) يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذي الحجّة .

الإمام الهادي عليه السلام

هو سميّ جدّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وشبيهه في نكران الذات ، والتجرّد من جميع النزعات الماديّة ، وكان أعلم أهل عصره في إيمانه وتقواه وإنابته إلى الله تعالى ،كما كان الممثّل للجبهة المعارضة للحكم العبّاسي القائم على الظلم والجور والطغيان ، جلبه الطاغية المتوكّل العبّاسي إلى سامرّاء ، وفرض عليه الإقامة الجبريّة فيها ، ومنع العلماء من الاتّصال به ، وكان يعتقله ثمّ يطلق سراحه ، فعل ذلك مراراً .

ولد هذا الإمام العظيم سنة (٢١٢هـ) ، سمّاه أبوه الجواد عليّاً ، تبرّكاً باسم جدّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وكنّاه بأبي الحسن .

اغتاله الطاغية المعتمد العبّاسي بالسمّ حتّى سمت روحه إلى الرفيق الأعلى ، وكانت وفاته في سنة (٢٥٤هـ) في يوم الاثنين لخمس ليالٍ بقين من جمادى الآخرة ، وقيل غير ذلك .

الإمام العسكري عليه السلام

هو الإمام الحادي عشر من أئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين حملوا رسالة الله تعالى ، وعانوا الخطوب والكوارث من حكّام عصورهم من أجل إقامة الحقّ والدفاع عن حقوق المظلومين والمضطهدين .

كان مع أبيه الهادي في سامرّاء ، وقد فرضت عليهما الحكومة العبّاسيّة الإقامة الجبريّة فيها ، لأنّهما لم يواكبا السياسة العبّاسيّة ولم يقرّا أعمالها .

ولد الإمام في يثرب ، وقيل : في سامراء سنة (٢٣٢هـ) ، وقيل غير ذلك .

شهادته عليه السلام

اغتاله العبّاسيّون بالسمّ ، وذلك في سنة (٢٦٠هـ) ودفن مع أبيه الهادي في دارهما ، وقد أُقيم لهما مرقد شامخ ، وقد عمد الأنذال الخارجون عن الإسلام إلى هدم قبّة المرقد الشريف بالصواريخ والعبوات الناسفة في الثالث والعشرين من محرّم سنة ١٤٢٦هـ ، وكان هذا منهم جزاءً للنبيّ صلى الله عليه وآله الذي برّ بدنيا المسلمين ودينهم .

الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه

هو المصلح الأعظم للبشريّة يحقّق لها الأمن والسلام ، وينقذها من ويلات الظالمين وطغيان الحكّام المستبدّين ، وقد بشّر به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة الطاهرون من بعده والأخبار بذلك متواترة ، وهو جزء من رسالة الإسلام فمن أنكره فقد أنكر الإسلام .

ولد الإمام المنتظر عليه السلام في سامرّاء سنة (٢٥٥هـ) ، وقد أخفى الله تعالى ولادته كما أخفى ولادة رسوله موسى بن عمران خوفاً عليه من السلطة الظالمة التي اعتقدت أنّ زوال ملكها يكون على يده ، ففرضت الرقابة الشديدة من الرجال والنساء عليه .

تقلّد الإمامة وزعامة الأُمّة ، وكان عمره الشريف يزيد على أربع سنين ، وقد شاهده والتقى به خيار الشيعة وصلحاؤهم في زمان أبيه ، وبعد وفاته غاب عن الأبصار غيبته الصغرى ، وأقام له نوّاباً أربعة كانوا واسطة بينه وبين شيعته ، وهم من خيار الناس في سلوكهم وإيمانهم .

واستمرّت الغيبة الصغرى زهاء سبعين عاماً ، ثمّ حدثت الغيبة الكبرى ، وقد أقام الإمام لشيعته الفقهاء المتحرّجين في دينهم والزاهدين في دنياهم ، وكلاء عنه عليه السلام وأوجب على الشيعة الرجوع إليهم في قضايا دينهم .

إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن أئمّة الهدى الذين أقامهم النبيّ صلى الله عليه وآله خلفاء وأوصياء من بعده على أُمّته ليقيموا أودها ، ويهدوها للتي هي أقوم .

إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام قد اختارهم الله تعالى أعلاماً لعباده ، وأدلّاء على

صراطه ، وأمناء في بلاده ، قد عصمهم من الزلل ، وطهّرهم من الدنس ، وجعل كلامهم نوراً ، وأمرهم رشداً ، إن ذكر الخير فهم أصله وفرعه ومنتهاه ، وهم بقيّة الله تعالى وخيرته وحزبه ، وعيبة علمه ، ودعاة توحيده .

وقد تشرّفت بالبحث عن سيرتهم ومآثرهم ، فألّفت موسوعة عنهم بلغت ما يزيد على أربعين مجلّداً ، ولا أدّعي أنّي ألممت بجميع ما أُثر عنهم من معالي الأخلاق وكرائم الآداب ، فإنّ ذلك بعيد المنال .

وأخيراً الحمد لله عزّ اسمه الذي هدانا لمعرفتهم والإقرار بولايتهم ، وجنّبنا من اتّباع أئمّة الضلال الذين يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .



أتباع أهل البيت عليهم السلام

أُحبّ أن أتحدّث باختصار وإيجاز عن عقيدة أتباع أهل البيت عليهم السلام ، وأتحدّث عمّا يؤمنون به بصراحة ووضوح لا دجل ولا نفاق في الحديث ، وإنّما هو الواقع الذي لا ستر عليه من التضليل .

لقد أُلصقت بالشيعة بعض التهم الرخيصة التي تحكي العقد النفسيّة والانحراف عن الحقّ عند القائلين بها ، فإنّ عقيدة الشيعة في جميع بنودها وتشريعاتها مجرّدة وبريئة من كلّ زيغ ، فهي كالشمس في صفائها وإشراقها ، إنّها تعتنق الإسلام بجميع قيمه ومكوّناته ، وعلى حقيقته النازلة من ربّ العالمين .

إنّ عقيدتهم بجميع شرائحها وفصولها تساير الطبيعة ، وتواكب الفطرة ، ولا تشذّ عن سنن الكون ، وتتفاعل مع الحياة الكريمة التي يجب أن يعيشها كلّ إنسان يؤمن بالقيم الكريمة ، والمثل الرفيعة ، وهذا عرض لما تؤمن به الشيعة في مجالاتها العقائديّة .

الإيمان بالله

تؤمن الشيعة إيماناً وثيقاً لا يخامره شكّ بالله تعالى خالق الكون وواهب الحياة ، وأن من صفاته التي هي عين ذاته :

١ ـ إنّ الله تعالى واحد لا شريك له ، ولو كان له شريك لأتت منه آياته ورسله .

٢ ـ إنّه تعالى نور السمٰوات والأرض ، لا جسم له كما في الممكنات ، وأنّه

لم يلد ولم يولد كما حكت سورة التوحيد .

٣ ـ إنّ الله جلّت عظمته لا تحدّ علومه ، وهو محيط علماً بكلّ شيء ، وجميع مجريات الأحداث قد وسعها علماً .

٤ ـ إنّ قدرة الله عزّ اسمه هي أجلّ وأعظم من أن يحيط بها الوصف والبيان .

٥ ـ إنّ فيض الله تعالى ورحمته شاملة لجميع المخلوقات ، فلا يختصّ بها فريق دون فريق ، ولا صنف دون صنف .

٦ ـ إنّ الله تعالى بالمرصاد لكلّ ظالم وطاغ ، وأنّه ينتقم منهم ويمحو آثارهم وأثرهم ، وقد رأينا ما حلّ ببعض الظالمين من الانتقام ، ففرّق شملهم ، وأباد جموعهم ، وترك ديارهم بلاقع ، وقرأنا في التاريخ الإسلامي ما أنزل الله تعالى من العذاب الصارم على الأمويّين والعبّاسيّين ، فأزال حكمهم ، ومحا آثارهم لما طغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد .

٧ ـ تنزّه الشيعة الخالق العظيم ، وتبرأ ممّا قاله فيه اليهود ، وبعض الروايات الموضوعة التي هي من صنائع عملائهم من أنّ الله تعالى خلق الإنسان على صورته ، وأنّه ينزل إلى السماء الدنيا ، وأنّ له جسماً مكوّناً من يدين ورجلين وأمثال ذلك من الموضوعات .

هذه هي معتقدات الشيعة في الخالق الحكيم وهي تتّفق مع نصوص القرآن الكريم ، ليس فيها أي انحراف عن الحقّ ، ولا بعد عن هدي الإسلام وتعاليمه .

النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله

تؤمن الشيعة كبقيّة المسلمين بأنّ النبيّ الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله خاتم النبيّين ، أرسله تعالى بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون ، فهو كلمة الله تعالى في الأرض ، ومحطّم الأصنام والأوثان .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : **فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَىٰ طَاعَتِهِ ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنكَرُوهُ .**

ويقول سيّد الموحّدين وإمام المتّقين زين العابدين عليه السلام :

اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ أَمِينِكَ عَلَىٰ وَحْيِكَ ، وَنَجِيبِكَ مِنْ خَلْقِكَ ، وَصَفِيِّكَ مِنْ عِبادِكَ ، وإمامِ الرَّحْمَةِ ، وَقائِدِ الْخَيْرِ ، وَمِفْتاحِ الْبَرَكَةِ ، كَما نَصَبَ لِأَمْرِكَ نَفْسَهُ ، وَعرَّضَ فيكَ لِلْمَكْرُوهِ بَدَنَهُ ، وَكاشَفَ في الدُّعاءِ إِلَيْكَ حامَّتَهُ ، وَحارَبَ في رِضاكَ أُسْرَتَهُ ، وَقَطَعَ في إِحْياءِ دينِكَ رَحِمَهُ ، وَأَقْصَى الْأَدْنَيْنَ عَلىٰ جُحُودِهِمْ ، وَقرَّبَ الْأَقْصَيْنَ عَلَى اسْتِجابَتِهِمْ لَكَ ، وَوالىٰ فيكَ الْأَبْعَدينَ ، وَعادىٰ فِيكَ الْأَقْرَبينَ .

وَأَدْأَبَ نَفْسَهُ في تَبْليغِ رِسالَتِكَ ، وَأَتْعَبَها بِالدُّعاءِ إِلىٰ مِلَّتِكَ ، وَشَغَلَها بِالنُّصْحِ لِأَهْلِ دَعْوَتِكَ ، وَهاجَرَ إِلىٰ بِلادِ الْغُرْبَةِ ، وَمَحَلِّ النَّأْيِ عَنْ مَوْطِنِ رَحْلِهِ...

لقد آمنت شيعة أهل البيت عليهم السلام بالنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله كما آمن به بقيّة المسلمين ، وواكبت تعاليمه وما أُثر عنه من الأحكام والآداب ، وملئت قلوبهم بحبّه والصلاة عليه لأنّه المنقذ الأعظم للبشريّة .

الإمامة

الإمامة عند الشيعة أصل من أُصول الإسلام كالنبوة ، بل هي امتداد لعطائها ، واستمرار لمناهجها ، وهي من ضروريّات الدين التي لا غنى عنها ، لأنّ بها هداية الناس ، وتهذيب أخلاقهم ، وهي غير خاضعة للانتخاب كالنبوة ، وقد دلّلنا على ذلك في البحوث السابقة .

ولاء الشيعة لأهل البيت عليهم السلام

إنّ ولاء الشيعة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام لم يكن عاطفيّاً ولا تقليداً، وإنّما ساقتهم الأدلّة الحاسمة من الكتاب والسنّة، ولا يسعهم مخالفة كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه.

لقد آمنت الشيعة منذ فجر تاريخها بمودّة أهل البيت عليهم السلام، وكان ذلك عنصراً من عناصر حياتهم العقائديّة لا يحيدون عن ذلك ولا يتحوّلون.

مظاهر الولاء

أمّا مظاهر ولاء الشيعة لأئمّتهم، وحبّهم العارم لهم فهي:

أوّلاً: إنّ الشيعة يأخذون معالم دينهم أُصولاً وفروعاً وأحكاماً وآداباً من أئمّتهم، فقد بنوا إطار عقائدهم على التعبّد بما أُثر عنهم، ولم يكن ذلك عن تعصّب أو تحزّب، وإنّما النصوص القطعيّة قد ألزمتهم بذلك.

يقول الإمام شرف الدين نضّر الله مثواه: «إنّ تعبّدنا في الأُصول بغير المذهب الأشعري، وفي الفروع بغير المذاهب الأربعة لم يكن لتحزّب أو تعصّب، ولا لريب في اجتهاد أئمّة تلك المذاهب، ولا لعدم عدالتهم وأمانتهم ونزاهتهم وجلالتهم علماً وعملاً.

لكن الأدلّة الشرعيّة أخذت بأعناقنا إلى الأخذ بمذهب أهل بيت النبوّة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي والتنزيل، فانقطعنا إليهم في فروع الدين وعقائده، وأُصول الفقه وقواعده، ومعارف السنّة والكتاب، وعلوم الأخلاق والسلوك والآداب، نزولاً على حكم الأدلّة والبراهين، وتعبّداً بسنّة النبيّين وسيّد المرسلين صلى الله عليه وآله أجمعين.

ولو سمحت لنا الأدلّة بمخالفة الأدلّة من آل محمّد صلى الله عليه وآله أو تمكّنا من تحصيل نيّة القربة لله سبحانه في مقام العمل على مذهب غيرهم لتعقّبنا أثر الجمهور، وقفونا

أثرهم تأكيداً لعقد الولاء وتوثيقاً لعرى الإخاء ، لكنّها الأدلّة تقطع على المؤمن وجهته ، وتحول بينه وبين ما يروم .

وأضاف الإمام بعد حديث له قائلاً :

وما أظنّ أحداً يجرأ على القول بتفضيلهم ـ أي أئمّة المذاهب ـ في علم أو عمل على أئمّتنا ، وهم أئمّة العترة الطاهرة ، وسفن نجاة الأُمّة وباب حطّتها ، وأمانها من الاختلاف في الدين ، وأعلام هدايتها ، وثقل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد قال صلى الله عليه وآله : **لا تَقَدَّموهم فتهلكوا ، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا ، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم ،** لكنّها السياسة وما أدراك ما اقتضت في صدر الإسلام »[١] .

وأيّد شيخ الأزهر الشيخ سليم رحمه الله مقالة الإمام بقوله : « إنّ أئمّتكم الإثني عشر أوْلى بالاتّباع من الأئمّة الأربعة لأنّ الإثني عشر كلّهم على مذهب واحد قد محّصوه وقرّروه بإجماعهم بخلاف الأربعة ، فإنّ الاختلاف بينهم شائع في أبواب الفقه كلّها فلا تحاط موارده ولا تضبط .

ومن المعلوم أنّ ما يمحّصه الشخص الواحد لا يكافئ في الضبط ما يمحّصه اثنا عشر إماماً . هذا ممّا لم تبق فيه وقفة لمنصف ولا وجهة لمتعسّف »[٢] .

وهذا السمت من الولاء ليس فيه غلوّ ولا تعصّب ، وإنّما يساير الأدلّة العلميّة القطعيّة التي لها حكومة في كلّ شيء .

ثانياً : من مظاهر ولاء الشيعة لأئمّتهم قيامهم بإحياء ذكراهم في احتفالات تأبينيّة يعرض فيها إلى ما أصاب الأئمّة الطيّبين من الكوارث والخطوب التي تعصف بالعبد من فراعنة زمانهم الذين لم يألوا جهداً في ظلمهم دعماً لسلطانهم وحكمهم .

---

(١) المراجعات : ٦٠.

(٢) المراجعات : ١٨٦.

إنّ الحفلات التي تقيمها الشيعة لأئمّتهم مشفوعة بالوعظ والإرشاد والحثّ على تقوى الله وطاعته ، وعرض مآثر أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً .

ثالثاً : من مظاهر ولاء الشيعة لأئمّتهم عليهم السلام زيارة مراقدهم والتقرّب بذلك إلى الله عزّ اسمه ، فإنّ ذلك من أعظم صور الولاء والمحبّة لهم ، والقيام بامتثال أمر الله تعالى الذي فرض مودّتهم . قال تعالى : ﴿ **قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ** ﴾[1] .

هذه بعض صور ولاء الشيعة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين فرض الله تعالى مودّتهم في محكم كتابه ، وليس في ولائهم غلوّ أو عبوديّة لهم ـ كما يزعمون ـ .

وبهذا نطوي الحديث عن هذا الكتاب ، وقد ذكرنا الكثير من البحوث التي تتعلّق بمعتقدات الشيعة في كتابنا « هذه هي الشيعة » ، والحمد لله تعالى على ما وفّقنا لخدمة أهل البيت عليهم السلام ، وإبراز قيمهم المستمدّة من جدّهم النبيّ صلى الله عليه وآله .

---

(١) الشورى ٤٢ : ٢٣ .

المصادر

أثر التشيّع في الأدب العربي............... محمّد سيّد الكيلاني

الاحتجاج الأحكام السلطانيّة.......... الشيخ الطبرسي

الأحكام السلطانيّة .... الماوردي

الأخبار الطوال.................. ابن قتيبة الدينوري

أُسد الغابة .... ابن الأثير

الإسلام.............. الشيخ محمّد أمين زين الدين

الإسلام والحضارة العربيّة............ محمّدكرد علي

الإصابة.............................. ابن حجرالعسقلاني

أصل الشيعة وأُصولها............ الإمام كاشف الغطاء

أعلام النساء........................ د. عمر رضا كحالة

الأغاني .... أبو الفرج الأصفهاني

أمالي الصدوق.......................... الشيخ الصدوق

أمالي الطوسي .... الشيخ الطوسي

أمالي المرتضى .... السيّد المرتضى

الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة .... جورج جرداق

الامامة والسياسة.................. ابن قتيبة الدينوري

أنساب الأشراف .... البلاذري

الأنوار البهيّة .... الشيخ عبّاس القمّي

الأوراق .... الصولي

بحار الأنوار .... العلّامة المجلسي

البداية والنهاية........................ ابن كثير الدمشقي

البيان والتبيين........................... الجاحظ

بين الخلفاء والخلعاء .... غي استرانج

تاج العروس........................... الزبيدي الحنفي

التاج في أخلاق الملوك .... الجاحظ

تاريخ ابن خلدون .... ابن خلدون المغربي

تاريخ أبي الفداء............... عماد الدين إسماعيل بن عليّ أبو الفداء

تاريخ الإسلام .... الذهبي

تاريخ الأمم والملوك .... الطبري

تاريخ بغداد .... الخطيب البغدادي

تاريخ التمدّن الإسلامي .... جرجي زيدان

تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام............... بندلي جوزة

تاريخ الخلفاء........................... السيوطي

تاريخ مدينة دمشق........................ ابن عساكر

تاريخ اليعقوبي .... اليعقوبي

تحف العقول .... ابن شعبة الحرّاني

التحف والهدايا .... الخالديان

تحفة الراغب .... أحمد بن عبدالسلام الشافعي

تذكرة الخواص .... سبط ابن الجوزي

تزيين الأسواق .... داود الأنطاكي

تطهير الجنان واللسان................ ابن حجر العسقلاني

تفسير فرات .... فرات بن إبراهيم الكوفي

التفسير الكبير........................ الفخر الرازي

تلخيص الشافي .... الشيخ الطوسي

تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون............ صلاح الدين الصفدي

تهذيب الأحكام........................ الشيخ الطوسي

تهذيب الكمال........................ أبو الحجّاج يوسف المزي

جامع السعادات .... الشيخ محمّد مهدي النراقي

جمهرة أشعار العرب .... أبو زيد النميري المصري

جمهرة رسائل العرب .... أحمد زكي صفوت

حضارة الإسلام في دار السلام........................ جميل نخلة

حلية الأولياء .... أبو نعيم الأصفهاني

حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام .... المؤلّف

حياة الإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام........................ المؤلّف

حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام........................ المؤلّف

حياة الحيوان .... الدميري

خزانة الأدب .... عبدالقادر البغدادي

خصائص النسائي .... النسائي

الخصال .... الشيخ الصدوق

الخطط المقريزيّة........................ تقيّ الدين أحمد المقريزي

ديوان ابن المعتزّ........................ ابن المعتزّ

ديوان أبي العتاهية .... أبو العتاهية

ديوان البحتري........................ البحتري

ديوان دعبل .... دعبل بن عليّ الخزاعي

ديوان العطوي .... العطوي

ذخائر العقبى .... محبّ الدين الطبري

الرسائل العشر .... الشيخ الطوسي

روح الاسلام .... السيّد مير علي الهندي

الرياض النضرة .... محبّ الدين الطبري

سامراء في أدب القرن الثالث الهجري .... يونس أحمد السامرّائي

سنن ابن ماجة .... أبو عبدالله محمّد بن يزيد القزويني

السنن الكبرى .... البيهقي

السيادة العربيّة والشيعة والإسرائيليّات .... فان فلوتن

سيّدات البلاط العبّاسي .... مصطفى جواد

سير أعلام النبلاء .... شمس الدين الذهبي

شذرات الذهب .... عبدالحيّ بن عماد الحنبلي

شرح نهج البلاغة .... ابن أبي الحديد

الشرف المؤبّد .... يوسف النبهاني

صبح الأعشى .... القلقشندي

صحيح البخاري .... محمّد بن إسماعيل البخاري

صحيح الترمذي .... ابن سورة الترمذي

صحيح مسلم .... مسلم بن الحجّاج القشيري النيشابوري

صفة الصفوة .... أبو الفرج ابن الجوزي

الصواعق المحرقة .... ابن حجر الهيتمي

ضحى الإسلام .... أحمد أمين

طبقات الشعراء .... ابن المعتزّ

طبقات فحول الشعراء .... ابن سلام الجمحي

الطبقات الكبرى .... ابن سعد الواقدي

العصر العبّاسي .... الدوري

عصر المأمون .... الرفاعي

العقائد الإماميّة .... الشيخ المظفّر

العقد الفريد .... ابن عبدربّه الأندلسي

عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب .... ابن المهنّا

الغارات .... إبراهيم بن محمّد بن هلال الثقفي

الغدير .... العلّامة الأميني

الفخري في أنساب الطالبيّين .... المروزي

الفرج بعد الشدة .... التنوخي

الفصول المهمّة .... ابن الصباغ المالكي

فضائل الخمسة من الصحاح الستّة .... مرتضى الحسيني الفيروزآبادي

فقه عمر .... الدكتور محمّد رواس قلعه‌چي

فوات الوفيات .... محمّد شاكر الكتبي

في رحاب عليّ عليه السلام .... خالد محمّد خالد

الكافي .... شيخ الإسلام الكليني

كشف الغمّة .... الإربلي

كفاية الأثر .... علي بن محمّد الخزّاز القمّي

كنز العمّال .... المتّقي الهندي

كنز اللغة .... محمّد علي عبدالله

لسان العرب .... محمّد بن منظور الأفريقي

المجدي .... عليّ بن محمّد الصوفي

مجمع الزوائد .... عليّ بن أبي بكر الهيتمي

مختصر تاريخ العرب .... السيّد مير علي الهندي

المراجعات .... الإمام عبدالحسين شرف الدين الموسوي
مروج الذهب.............. عليّ بن الحسين المسعودي
مستدرك الحاكم .... الحاكم النيسابوري
المستطرف.................. شهاب الدين
مسند أبي داود............... أبو داود السجستاني الأزدي
مسند أحمد بن حنبل .... أحمد بن حنبل الشيباني
مسند الإمام زيد .... الإمام زيد بن عليّ بن الحسين (عليهما)
مشكل الآثار.............. أحمد بن محمّد الطحاوي الحنفي
مطالع البدور.................. علي النبهاني
معجم البلدان .... ياقوت الحموي
مقاتل الطالبيّين .... أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهاني
مقدّمة ابن خلدون .... ابن خلدون المغربي
مناقب آل أبي طالب .... ابن شهرآشوب المازندراني
المناقب والمثالب............. القاضي النعمان بن محمّد المصري
المنتظم في تاريخ الأمم والملوك .... عبدالرحمن بن عليّ بن الجوزي
منهاج السنّة النبويّة............. تقي الدين أحمد بن تيميّة
موسوعة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام............ المؤلّف
النصّ والاجتهاد........... الإمام عبدالحسين شرف الدين الموسوي
النظام السياسي في الإسلام .... المؤلّف
النكت الاعتقاديّة .... الشيخ محمّد بن محمّد بن النعمان
نور الأبصار............... الشيخ مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي
نهاية الإرب في فنون الأدب............ أحمد بن عبدالوهاب النويري
نهج البلاغة...... ما جمعه الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام

الوزراء والكتّاب .... محمّد بن عبدوس الجهشياري

وسائل الشيعة .... الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي

وفيات الأعيان .... أحمد بن محمّد بن خلّكان

هارون الرشيد.............................. الجومرد

ينابيع المودّة .... سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي

المحتويات

المخطّطات والبرامج الإصلاحيّة

٤١ - ٦٠

الإمامة بالنصّ أو بالانتخاب

٦١ ـ ١٠٣

المضاعفات المدمّرة لفصل الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام

١٠٥ ـ ٢٠٣

حكم أئمة أهل البيت عليهم السلام

٢٠٥ ـ ٢١٨

هؤلاء مصابيح الإسلام ودعاة العدل والحق

٢١٩ ـ ٢٣٧

أتباع أهل البيت عليهم السلام